تاريخ ليبيا

الجزء الثامن

القسم الاول

ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين

تأليف

محمد مصطفى بازامه



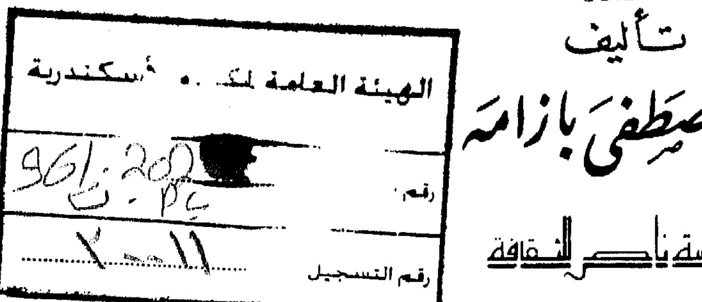
تاريخ ليبيا

تاريخ ليبيا

الجزء الثامن

القسم الأول

في عهد الخلفاء الراشدين



تأليف

محمد مصطفى بازامة

مؤسسة ناصر للثقافة

الإهداء

إلى روح أستاذي :

الشيخ السنوسي الأسمع المرتضي

وإلى روح أستاذي :

الشيخ عبد الجواد الفريطيس

اعترافاً مني لذكراهما بما قدماه
هذا الوطن من صالح الخدمات في
ميدان التربية والتعليم

المؤلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله القدير ، الواحد الأحد ، خالق الكون والإنسان ، ومعلمه بالقلم ما لم يكن يعلم ، والصلاة والسلام على محمد الرسول ، الصادق الأمين ، جاء بالرسالة نوراً ، فاهتدينا بفضلها للتوحيد والتنزيه ، وابتعدنا عن الشرك والتجسيد والتشبيه . وفقنا الله لطاعته ، وشملنا برعايته ورحمته ، وأعاننا على منفعة عباده ، إنّه هو السميع المجيب .

وبعد : فهذه ثمرة جهد وعناء ، قضيت فيها ما انصرم من العمر ، سعيت بها لتحقيق أمنية ولدت معي طفلاً ، وترعرعت معي شاباً ، ولازمتني رجلاً ، وإنّه ليسرني أن أقدمها لك يا أخي العربي ، مؤملاً أن أسد بها ثغرة طالما أحس بها كل راغب علم ، وباحث في التاريخ الليبي ، ولا سيما في لغة الضاد .

إن المكتبة العربية مفتقرة حتى الآن إلى مفصل في تاريخ هذا الإقليم من الوطن العربي الكبير الذي ندين له وحده بالولاء ، وأرجو أن يقبل عملي هذا على أنّه خير ما استطعت ، وأن أعذر فيه عن الخطإ وعن التقصير فما أنا غير إنسان ينشد الكمال فيما يقوم به ، ولكنه يعرف نفسه ويعترف بالعجز لأنّه إنسان .

م.م.بازامه

تقسيمات الكتاب

الكتاب الأول : ما قبل الفينيقيين والإغريق (٠٠٠ — ٧٥٠ ق.م)

١ — الجزء الأول : عصور ما قبل التاريخ .

٢ — الجزء الثاني : ليبيا في عهد الفراعنة .

الكتاب الثاني : ليبيا بين اليونانيين والفينيقيين (٧٥٠ — ٩٦ ق.م.)

٣ — الجزء الأول : اليونان في برقة .

٤ — الجزء الثاني : الفينيقيون في طرابلس .

٥ — الجزء الثالث : البطالمة والحكم البطلمي .

الكتاب الثالث : ليبيا والاستعمار الروماني (٩٦ ق.م. — ٦٤٣م)

٦ — الجزء الأول : ليبيا ولاية رومانية .

٧ — الجزء الثاني : ليبيا والحكم البيزنطي .

الكتاب الرابع : ليبيا والإسلام (٦٤٣ — ١٧١١ م.)

٨ — الجزء الأول : ليبيا العربية .

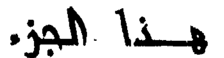
٩ — الجزء الثاني : ليبيا والأتراك .

الكتاب الخامس : ليبيا في العصر الحديث (١٧١١ — ١٩٦٩ م)

١٠ — الجزء الأول — ليبيا والحكم القرمانلي — العثماني .

١١ — الجزء الثاني : الاستعمار الإيطالي .

١٢ — الجزء الثالث : من المملكة إلى الجمهورية .



أن أكتب تاريخ ليبيا مفصلاً ومسلسل الحلقات ، هذه هي أمنيّتي الغالية في الحياة ! فلقد أحسست بفراغ المكتبة العربية من البحوث الجادة في التاريخ الليبي ، منذ أن تفتحت عيناي على عالم الكلمة المدونة في كتاب ، واتصلت بميدان الثقافة الرحب الفسيح ؛ ثم اكتشفت ، لما استطعت ، فراغ المكتبة الإفرنجية ، هي الأخرى ، من البحوث المفصلة فيه ، اللهم : إلا في بعض الفترات المتصلة منه مباشرة بالتاريخ الأوربي ! فعشت ، مذ وعيت هذه الحقيقة ، ساعياً لتحقيق امنيّتي الكبرى في كتابة تاريخ مفصل لليبيا ، عاملاً لبلوغها ، مؤملاً في ذلك بتوفيق الله .

وبعد تردد طويل ، ومحاولات شتى ، أقدمت على كتابة تاريخ ليبيا ، هذه المنطقة من الوطن العربي الذي انتمي إليه نشأة ومولداً ، وبالصورة التي أرغبها واتمناها . مقسماً عصوره الى أجزاء ، باحثاً في كل جزء على حدة ، فترة التاريخ المتعلقة بالعصر موضوع التأليف وقد سبق لي الفراغ من كتابة أول أجزائه ، وقد تولت الجامعة الليبية مشكورة نشره بعنـوان « ليبيا في عصور ما قبل التاريخ » ؛ كما فرغت من تأليف القسم الأول من الجزء الثالث ، وهو في طريقه إلى النشر تحت عنوان « قورينة وبرقة ، نشأة المدينتين في التاريخ » ؛ وهذا هو القسم الأول من الجزء الثامن ، ويسرني أن أقدمه لك ، بعنوان « في عهد الخلفاء الراشدين » . وهذا الموضوع الذي أطرقه اليوم أجده موضوعاً محبباً إلى النفس ، له خطورته وأهميته في التاريخ ، وارجوالله ،سبحانه

وتعالى ، أن أكون قد وفقت بما قدمته فيه من دراسات وتحليل ،
المتعلقة بالفتح الاسلامي لهذه البلاد .

* * *

ومسائل التاريخ الليبي التي تحتاج إلى أن يطرحها الباحث
البحث عديدة ، وبعضها ليس من السهل الوصول فيه إلى قرا
المؤرخون ، والسبب في هذا : إنما يعود إلى أن التاريخ الليبي ، لم
بجدية من قبل المؤرخين ، في العصر الحديث .

وأول هذه المسائل وأهمها ، هي : النظرة التي يجب أن ننظر بـ
إلى طبيعة الفتح الإسلامي ؛ ذلك أن عمليات الفتح ، ليست محا
لإنشاء دولة ذات كيان سياسي ، وامبراطورية مترامية الأطراف
الأولى والأخيرة السيطرة على من تخضعه لسلطانها من الأمم والث
هي الحال ، بالنسبة إلى التوسع الروماني ، أو البيزنطي ، أو ا
غيرها من الامبراطوريات الكبرى التي عرفناها في التاريخ ؛ وإنما
مد حضاري ، عقائدي ، يستهدف هداية البشرية ، إلى نور الحق
المستقيم ، وغايته الوحيدة : إحداث تغيير جوهري ، في معتقدات
وفيما يتصل من حياتها بنظم الاسلام واحكامه ، والتي من أو
منع إقامة الفوارق ، والفواصل التي تميز الشعب الحاكم ،
المحكوم . فالكل : باعتناق الاسلام يتساوون في الحقوق ، وا
وهذا ، ما لم يقره نظام في التاريخ غير الاسلام ؛ فاذا غابت ه
عن أعيننا ، ونحن ندرس التاريخ الاسلامي ، عجزنا عن فهم حر
على حقيقتها ، وجانبنا الصواب في الحكم على تصرفات قادته الفاتـ
فيما يتعلق بليبيا وحدها ، وإنما بالنسبة لكل الاقطارالتي افتتحها
الفتح الإسلامي ، في الشرق والغرب على السواء .

وبما أن طبيعة الفتح الإسلامي ، هي في نظرنا على ما قدمنا
من أن تصحب أول مراحل الفتح ، حركات مد وجزر ؛ باعثها

في نفسيات المجتمع من تشبث بالقديم المعتاد ، واقبال على الجديد الطارىء ؛ وفي خلال هذه الفترة ، قد تجنح الأطراف المتنازعة فيه إلى السلاح ، يدفعها : التحمس للفكرة التي تعتنق ، فإذا نحن لم نفهم هذه الحقيقة ، أيضاً ، جانبنا الصواب ، وأسأنا فهم طبيعة الاسلام السمحة ، الذي يأمر : « وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، ويقرر : أن « لا اكراه في الدين » ، و .... الخ . وذهبنا نبحث عن علل وأسباب ، نصنعها نحن ، ونفترض وجودها حيث لا علل ، ولا أسباب .

وقد كانت هذه النظرة تقودني ، وهذا الفهم يرشدني ، وأنا أحاول دراسة المسائل التاريخية الغامضة ، في أخبار الفتح المتعلقة بليبيا ، ولقد أعملت فيها الفكر ، وتحريت الدقة ، واجتهدت فيها برأيي ، وحاولت أن أصل في معظمها إلى قرار مقبول ، ولكنني لا أدعي التوفيق في جميع ما ذهبت إليه من تعليل وتحليل ، فبعض القضايا المثارة لم تناقش من قبل ، وبعضها نوقش من قبل مؤرخين آخرين ولكنني تناولتها بمفهوم جديد ، وقد أدى بي هذا ، في بعض الأحيان ، إلى مخالفتهم في الذي قالوا به من آراء وتعليلات .

* * *

وحتى أصحح فكرة خاطئة ، روج لها بعض المؤرخين من الإفرنج ، حتى كادت تصبح كالحقيقة ، فسلم بها مَنْ جاء بعدهم ، في الغالب من غير نقاش ، تأثراً بنفوذهم العلمي فقد جئت : بالفصلين الأول والثاني من هذا الكتاب ، على شكل مقدمات ، أمهد بها لفترة الفتح ، وما تلاها من فترات ، وقد حاولت فيهما ، إعطاء صورة واقعية أو قريبة من الواقع ، قـــدر المستطاع ، لاثبت : أن العرب الفاتحين ، لم يهدموا من البنيان ، ولا قضوا على ما كان في ليبيا من سابق حضارة وعمران ، لسبب بسيط ، هو : أن آخر العهد الرومي ، قد محى كل ذلك ، بصراعه الديني ، وبسوء إدارته ، وفساد أخلاق حكامه ، ولم يترك من معالم العمران ، ما يُسأل العرب الفاتحون ، ولا من جاء بعدهم ، عن افساده والقضاء عليه .

أما الفصول الثلاثة الباقية ، فقد ناقشت فيها المسائل المتعلقة بأخبار الفتح ، وتاريخه بالنسبة لكل من إقليمي برقة وطرابلس ؛ وحاولت عن طريق التحليل ، الوصول الى آراء أعتقد أنني لم اسبق إليها في كثير من النقاط الغامضة في تاريخ هذه الفترة ، مما ستجده في صلب البحث مفصلاً ، ولا داعي لاجماله هنا .

واختتمت هذا البحث ، بملاحق خصصتها لترجمة حياة القائدين الاسلاميين العظيمين : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، لأنني رأيت هذا أفضل من الإكتفاء بهامش صغير ، به لمحات عن حياة كل واحد من هذين القائدين العظيمين . وبثالث بجـــدول تتابع زمني ، جئت فيه بخلاصة للأحداث التاريخية التي ذكرت بهذا البحث ، مسلسلة حسب تتابع الزمن ، من تعيين التاريخ وبالتقويمـــين ، الهجري ، والميلادي ، ابتداء من سنة الفتح الاسلامي لهذه البلاد .

ويسرني أن أقدم لك أيها القارىء العربي ، هذا القسم من تاريخ ليبيا وقد خصصت جميعه لعهد الخلفاء الراشدين . على الرغم من أن عهد الخليفة الأول ، أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، قد مضى قبل أن يدخل الأسلام القارة الافريقية ؛ وبالرغم من أن ليبيا ، كانت محايدة ، ولا دور يذكر لها في النزاع بين سيدنا علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وبين خصومه العديدين ؛ مما جعل الكتاب قاصراً على عهد عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، رضي الله عنهما . وذلك : حتى تكون الحلقة التي ستأتي بعد هذه ، ان شاء الله تعالى ، متعلقة بالعهد الأموي ، تمشياً مع التقسيم الذي وضعه وارتضاه المؤرخون ، للتاريخ الإسلامي .

وعلى هذا فسيكون العهد الأموي ، والعهد العباسي — الفاطمي ، وما تلاهما حتى استيلاء الأتراك على البلاد ، بقية أقسام هذا الجزء من تاريخ ليبيا الاسلامي ؛ والذي ارجو من الله سبحانه وتعالى : أن أوفق في دراسته ، إنه وحده سبحانه الموفق والمعين .

المؤلف

م.م.بازامه

بنغازي مارس ١٩٧٢

مُقَدّمَات

ليبيا قَبْل الفتح الإِسْلامِيّ

الفصل الأول

تاريخ ليبيا قبل الفتح

تمهيد :

الحديث عن تاريخ ليبيا قبل الفتح ، ليس من السهل الإحاطة به في سائر أحداثه ، في فصل واحد ، ولو طال ، فالتاريخ الليبي طويل ، وعريق في القدم ، يضرب بأصوله في أغوار ما قبل التاريخ ، ويمتد لآلاف السنين . وسرده في اختصار ، لا يفيد منه القارىء العادي كثيراً ، ولا يحتاجه القارىء المتخصص ؛ وهو فوق ذلك ، لا يخدم هذا البحث الذي لا يحتاج منه إلا إلى قدر معين ، يسمح بتصور وضع البلاد : سياسياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً ، وفكرياً ، قبيل الفتح الإسلامي مباشرة ؛ وهذا ، تكفي فيه فترة من الزمن غير مديدة !

ولقد احترت في المدى الذي اتراجع إليه من الزمان ، لاقدم للقارىء العربي ، فصلاً تمهيدياً يرسم له : صورة حقيقية ، أو قريبة من الحقيقية ، لما عليه الوضع السياسي الاجتماعي ، في هذه البلاد (التي نسميها اليوم ليبيا) قبيل الفتح الإسلامي مباشرة . وارتأيت بعد البحث العميق ، أن أبدأ بالغزو الوندالي للشمال الإفريقي ؛ وهذا يعني ، أنني سأتناول من تاريخ ليبيا فترة تستغرق قرنين من الزمان ، وهي مدة أعتقد أنها كافية لتصوير ما عليه الوضع

الحضاري ، في هذه البلاد الي خضعت للحكم الروماني ، لأكثر من سبعة قرون متتابعة من التاريخ .

وبما أنني لا أؤرخ لهذه الفترة ، وانما اتخذ منها مجرد تقديم للفترة التاريخية التالية ، وهدفي من تناولها في هذا الكتاب ، إنما هو الرغبة في تصحيح تلك الفكرة الخاطئة كلية ، عن وضع ليبيا العمراني حين الفتح ، والتي عمقهـا كتاب الغرب ، وضغطوا عليها كثيراً ، حتى يتمكنوا من إلصاق تهمة معاداة العرب للحضارة ، وقضاؤهم في ليبيا على ما كان بها من زاهر العمران ؛ وهذا محض افتراء[1] . لذلك ، فإنني سأركز حديثي هنا على بعض الأحداث منها دون سائرها ، وخاصة على ما يتعلق منها بآثار الاحتلال الوندالي في الغرب ، والاحتلال الفارسي في الشرق من ليبيا ، وبتأثير حروب استرجاع النفوذ الروماني في الجانبين ، وبموقف الليبيين أنفسهم من الصراع الدائر بين الغزاة من الغرب ومن الشرق ؛ تاركاً الحديث عن العديد من التفصيلات الأخرى التي لا تخدم فكرة التمهيد للحديث عن أخبار الفتح الإسلامي ، وما تلاه ، فهذه هي الغاية الجوهرية لنا في هذا الفصل بالذات .

---

(١) من بين من أطلقوا هـذه الفكرة في العصر الحديث : المؤرخ الإنجليزي ألفرد ج. بتلر ، الذي اشتهر بين العرب بكتابه : « فتح العرب لمصر » ، وخاصة بعد أن ترجمه المرحوم محمد فريد أبو حديد ؛ فقد أسهب بتلر في وصف خصوبة المزارع العامرة ، وعدد المدن والقرى اليونانية الرومانية التي ورد ذكرها في تلك الجهات خلال التاريخ ، مدعياً استمرار العمران بها حتى زمن الفتح على الأقل ، ودافع عن زعمه هذا في حرارة ، في الصفحات ٧ و٨ و٩ و١٠ من الطبعة الثانية للترجمة العربية ، ثم عاد إلى الأمر يؤكده كحقيقة في أماكن أخرى من كتابه ، ونقل عنه كثيرون من مؤرخي العرب المحدثين ، دون أن ينتبهوا إلى خبث المقصد فيما يدعيه هذا وأمثاله ، ومن غير أن يكلفوا أنفسهم عناء التحقيق فيما يدعيه وفيما قدمه من مغالطات تكاد تكون مفضوحة ببعد الزمن ، بين من ينقل عنهم بتلر محتجاً بما ذكروه ، من أمثـال سترابون ، وبطليموس ، وبين الفتح الإسلامي ، وكأن الوضع الحضاري لليبيا ، في بداية العهد الروماني ، قد امتد إلى نهايته ، ومن غير أن يعتريه تدهور أو اضمحلال .

الغزو الوندالي :

وقد تعرضت ليبيا الرومانية كغيرها من بلدان الشمال الإفريقي (التي تكون أقطار المغرب العربي في العصر الحديث) ، لغزو شعب الوندال . غير أن سيطرة هؤلاء عليها لم تمتد مطلقاً إلى أبعد من الضفة الغربية لخليج سدرة أو سرت[1] ، (طرابلس) ؛ بينما استمرت الضفة الشرقية من هذا الخليج (برقة)[2] تابعة للامبراطورية الرومانية الشرقية البيزنطية .

برقة لم تخضع للوندال وانما ظلت بيزنطية

وحتى عهد الامبراطور جستنيان الذي طرد الوندال من طرابلس نجد إقليم بنتابوليس خاضعاً للروم البيزنطيين ويحدثنا بروكوبيوس مؤرخ جستنيان عن ايقيبولوس Ecceboło حاكم تلك الولاية فيقول بأن هذا قد اتخذ من ثيودورا (زوجة جستنيان فيما بعد) خليلة له وقد كانت بغياً ، واصطحبها معه إلى بنتابوليس من القسطنطينية حيث أقامت بقصره يعاشرها مدة ثم مجها وقذف بها خارج القصر فعاشت مومساً بالبلاد لبعض الوقت ثم غادرتها إلى الاسكندرية فالشام وأقاليم أخرى حتى عادت الى القسطنطينية وذلك قبل جلوس جستنيان على العرش بسنوات قليلة[3] .

حالة برقة في العهد البيزنطي :

وليس لدينا من أحداث التاريخ في هذه الفترة التي استمرت فيها بنتابوليس خاضعة للامبراطورية الرومانية الشرقية عدا ما كتبه الأسقف

---

(١) نسبة الخليج إلى سدرة لا يقصد بها شجرة السدر المعروفة وإنما إلى قبيلة بربرية كانت مساكنها عنده تسمى قبيلة « سدراته » . أما نسبته إلى سرت فإلى المدينة الواقعة عنده ، وهي قديمة جداً في التاريخ .

(٢) وبرقة هي التسمية العربية التي أطلقت على الإقليم بعد الفتح الإسلامي لها . أما اسمها الروماني فقد كانت بنتابوليس أي المدن الخمس ، وقد حرفه العرب إلى انطابلس . وكانت قبل ذلك « قورينيقه » ويبدو أنها سميت بنتابوليس على أثر قيام اتحاد بين مدنها الخمس الرئيسية وهي قورينه وبرقة وبرنيق وتيوكيره وأبولونيا في العهد البطلمي .

(3) Procopio : — Storia Segreta. Cap. XIV P. 95.

سينزيوس[1] عنها في رسائله ذات القيمة الأدبية والتاريخية العالية . وهي كافية وحدها دليلاً على ما انتهت إليه الحضارة الرومانية في برقة منذ ذلك التاريخ . وعلى سبيل المثال نورد منها الفقرة التالية التي تصور الوضع كما يراه : « إن بنتاووليس قد ضاعت ، قد انتهت ، قد اغتيلت ، قد ماتت ، ولا وجود لها ؛ لا بالنسبة إلينا ولا بالنسبة للإمبراطور ذلك أنه بالنسبة للامبراطور فإن أية ولاية لا تعطي فائضاً ما، هي ولاية ضائعة، وماذا يمكن أن تعطيه أرض تحولت إلى صحراء؟ »[2]

اما بعد عهد سينزيوس فليس فيما وصل إلى يدي من معلومات ما يساعدني على تكوين فكرة ولو عامة عن هذه المنطقة من ليبيا . وما قيل عنها وحولها في كتب التاريخ الحديثة لا يخرج عن استقراءات واستنتاجات للمؤرخين ؛ من ذلك القول بأن الاعانات المالية المحدودة التي كانت خزينة الامبراطورية تخصصها للإقليم إنما كانت تصرف على ترميمات الحصون والأسوار المعرضة

(١) سيزيزيوس Sinesio أسقف بطليموسة الشهير ، هو آخر النجوم المتألقة في الأدب اليوناني القديم ولد في حدود سنة ٣٧٠ م. من أسرة دورية عريقة . وبالرغم من اعترافه بهذا إلا أنه كان يصر على ليبيته ويصف نفسه بالليبي . كان يوناني الثقافة ، واسع الاطلاع راجح العقل . أوفد سنة ٤٠٠ م. إلى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية ليصور المظالم التي تتعرض لها البلاد في عهد الامبراطور أركاديوس .وكان قبل إيفاده قد خدم لمدة قصيرة في الجيش وتقلد عدة مناصب مدنية في بلاده . وبعد أن بقي بالقسطنطينية ثلاث سنوات خدم فيها بلاده وحقق لها بعض مطالبها غادر القسطنطينية مسرعاً فراراً من هزة أرضية عنيفة أفزعته . وقدم إلى الاسكندرية حيث بقي بها سنتين (٤٠٢ - ٤٠٤) وقد عاد إليها مرات بعد ذلك وتزوج بإحدى بناتها المسيحيات فيما يظن . وكان هو حتى سنة ٤١٠ م. وثنياً . وفي هذه السنة مات أسقف بطليموسة فتوجه مسيحيوها إلى بطريرك الإسكندرية بالرجاء ليعينه أسقفاً فعمد سينزيوس نزولا عند رغبة زوجته ومن أجل أبنائه الثلاثة منها . فخدم الكنيسة بعلمه وثقافته الواسعة ومات سنة ٤١٥ م. حسبما يقدر البعض . وترك لنا عدة آثار أدبية رائعة ترجمت إلى عدة لغات حديثة من بينها الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية . وتعد رسائله من أهم المراجع في تاريخ برقة عن الفترة التي عاشها على الأقل . (نقلا عن كتابي مدينة بنغازي عبر التاريخ ص ٢١٧ و٢١٨ م .

(2) Valori Franc. Storia Della Cirenaica. P. 73.

لهجمات البربر على الدوام[1] . والقول بأن جستنيان إنما عني بترميم الأسوار وباصلاح المدن في هذا الجزء من ليبيا لما أراد مهاجمة الونداليين المسيطرين على الجانب الآخر الذي يكون اقليم المدن الثلاث (طرابلس)[2] ومثل ذلك من المعلومات التي لا تلقي أي ضوء محدد على تاريخ بنتابوليس حتى عهد جستنيان بل وحتى عهد فوكاس .

ما ينسب الى الوندال من فساد :

ولا يهمنا نزوح الشعب ، الوندالي إلى الشمال الإفريقي ولا ما بُرِّرَ به في التاريخ ؛ وانما يعنينا فقط أن ملكهم جنسريك Genseric قد قضى على نفوذ الرومان الغربيين في هذه الأقاليم سنة ٤٣٠ للميلاد ، ولكن جيوشه لم تبادر بالاستيلاء على اقليم المدن الثلاث (طرابلس) الا بعد سنة ٤٥٥ فيما يعتقد[3] أي بعد أن غزت قواته روما ذاتها وانتهبتها .

وهذا الشعب الوندالي الذي غزا اقاليم الشمال الإفريقي وقضى على نفوذ دولة الرومان الغربيةفي هذه الأقاليم ،لم ينصف من المؤرخين الرومان الذين كتبوا عنه ، فيما يبدو ، فوصف بالوحشية وبالقسوة ، وباللاتمدين ؛ لسببين : الأول أنه كان عدواً شرساً عاتياً قضى على نفوذ روما وسيطرتها العالمية ، وألحق بها الخزي والعار . والثاني أنه كان أرياني المذهب[4] وهذا المذهب المسيحي قد صارعته الكنيسة الكاثوليكية الارثذكسية طويلاً ولم تتغلب عليه إلا في صعوبة وقد اعتبر معتنقوه ملاحدة مارقين ، وضاعت جميع

(1) Valori F.OP. cit. P. 76.

(2) Valori F. OP. cit. P. 75.

(3) Merighi Antonio : — La Tripolitania Antica, vol. I, P. 293.

(٤) نسبة إلى آريوس من مواليد بطليموسة ، نادى بمذهب في المسيحية مخالف لما تنادي به الكاثوليكية . اشتهر مذهبه وانتشر في أقاليم كثيرة وصارعته الأرثوذكسية طويلا حتى حكم عليه بعد محاولات عدة ومجامع متعددة بالإلحاد وقد انتشر مذهبه بين القوط الشرقيين والغربيين وكان من بينهم الوندال الذين نحن بصددهم الآن .

مقالات ومجادلات أصحابه ولم يبقَ ما يساعد الباحثين على فهمه وفهم فلسفته الدينية بسبب مطاردة الكنيسة لأصحابه واتيانها على تراثه الفكري والغقائدي . ولذا يجب أن نأخذ ما يقال في التاريخ عن هؤلاء القوم بتحفظ شديد عند الحديث عن تاثيرهم السيء على الحضارة الرومانية في هذه البلاد .

ويحدثنا بروكوبيوس أن الونداليين حينما استولوا على إقليم المدن الثلاث هدموا أسوار مدينتي لبتس مانيا وصبراته[1] وتقول المصادر الحديثة أن احتلالهم لهذه البلاد كان إسمياً تقريباً ، على أقوى الاحتمالات ، وذلك لعدم تركهم لأية آثار في هذا الإقليم خلال المدة التي حكموا فيها أهله[2] . وما يذكره بروكوبيوس من هدم الونداليين لاسوار هاتين المدينتين يمكن التشكيك فيه بأنه انما ذكر هذا ليبرر اهتمام الامبراطور جستنيان بأمر هاتين المدينتين وسوريهما وترميمه لهما مع العلم بأنه من غير المستبعد أن يقع هذا فكثيراً ما يلجأ الجيش المحتل إلى مثل هذه التصرفات الإستراتيجية العسكرية في أي زمان ومكان اذا ما رأى ضرورة لمثل هذا الإجراء . أما عدم العثور على أية آثار تعود الى زمن الوندال فحجة واهية هي الأخرى ويمكن ردها بأن عدم التوفق في العثور على شيء منها لا يعني عدم حكمهم للبلاد حكماً مباشراً ، ولا يعني كذلك أنهم لم يقوموا ببناء أي شيء بالإقليم ، فمن المعلوم لدينا أن الرومان كانوا بارعين في طمس معالم العدو الحضارية ، هذا بالإضافة إلى صعوبة التفرقة بين هؤلاء الرومان في آخر عهدهم بليبيا خاصة وأن الجميع مسيحيون وان اختلفت مذاهبهم .

الصراع الديني بين الوندال والرومان :

ومهما يكن ما ارتكبه الوندال في غرب الإقليم الليبي من سوء إدارة

(1) Procopio : — De Bellum Vandalic. III, 5, 8.

(2) Merighi A. La Tripolitania Antica, vol. I P. 293. Rossi Ett. Storia Di Tripoli E Della Tripolitania Ecc... P. 20. وآخرون .

وفوضى وفساد فهو ليس بالتأكيد بأقل مما كانت الادارة الرومانية تقترفه آنذاك في شرقه وفي غربه بعد التغلب على الوندال من مظالم ومن عنت ومن إفســـاد .

ويحدثنا بروكوبيوس أيضاً كيف أن ملك الوندال قد سلب الرومـــان والليبيين المسيحيين أراضيهم ومزارعهم وأقطعها للوندال ولذوي النفوذ من الليبيين الذين يؤازرونه حتى يضمن استمرار ولائهم له وغير ذلك كملاحقته للروم الكاثوليك باعتباره ارياني المذهب[1] ويذكر مريقي في كتابه « طرابلس القديمة » أن جنسيريك ملك الوندال قد اعتبر حروبه ضد الرومان حروبـــاً دينية ، ولذلك حرص على أن يفرض العقيدة الأريانية التي يدين بها على القساوسة والرهبان وعامة الشعب الذين يعتنقون الكاثوليكية ، وسارع بنفي وتشريد القساوسة والرهبان الذين قاوموه ورفضوا اعتناق الأريانية ، ومنع عامة الشعب الذين يدينون بغير الأريانية حتى من حق الإجتماع للعبادة في الكنائس[2] ولا غرو في هذا فقد كان الدين والسياسة في ذلك العصر أمرين متداخلين بشكل يتعذر على الباحث في التاريخ التفرقة بينهما كمؤثرين أساسيين في الاحداث ولا سيما المتعلقة منها بحركات الشعوب العنيفة . لذلك نجد الرومان وهم من الارثذوكس يأخذون في ملاحقة المسيحيين الذين يدينون بغيـــر الكاثوليكية كلما سيطروا على شعب وأخضعوه لهم تماماً كما فعل الونداليون في ملاحقتهم لمن يدين بغير الاريانية .

فشل الرومان في استعادة طرابلس من الوندال :

ويحدثنا التاريخ عن جنسريك الذي تمكن من الاستيلاء على روما وانتهابها سنة ٤٥٥ فقضى بهذا على نفوذ الرومان الغربيين التقليدي . ولم يرض الرومان بهذا ولم يسلموا به فشرعوا في مناوأة النفوذ الوندالي بالشمال الإفريقي فبعث

(1) Rossi E. Storia Di Tripoli E Della Tripolitania Ecc... P: 19-20.
(2) Merighi A. La Tripolitania Antica vol. I P. 293.

الامبراطور ليون في سنة ٤٦٠ بقائدين من قواده هما باسيليكوس ويتولى قيادة الأسطول ومهمته مهاجمة قرطاجنة التي أصبحت عاصمة لملوك الوندال، وهراكليوس ويتولى قيادة الجيش البري، ومهمته الاستيلاء على طرابلس ومن ثم يساند باسيليكوس في القضاء على الوندال . واستطاع هراكليوس أن يتغلب على مقاومة الوندال في إقليم المدن الثلاث (طرابلس) ويستولى على مدينة طرابلس وما يقع إلى الشرق منها . ومن ثم بدأ يستعد للهجوم براً على قرطاجنة ذاتها غير أن باسيليكوس كان سيء الحظ فخسر المعركة البحرية بعد خديعة جنسيريك له، وبهذا تم للوندال القضاء على الأسطول الروماني سنة ٤٦٨ وفشلت المحاولة، ولم يتمكن الرومان من التغلب على الوندال الذين استطاعوا استعادة نفوذهم على إقليم المدن الثلاث من جديد [١].

ثورات ليبية على الوندال :

ويروي بروكوبيوس في تاريخه عن الحرب الوندالية أن أهل طرابلس والليبيين القاطنين حولها قد ثاروا فيما بين سنتي ٤٩٦ و ٥٢٢ على الوندال بزعامة واحد منهم يدعى كاباؤن Cabaun [٢]، وتمكنوا من التغلب على حامية الوندال بقيادة تراساموند Trassamondo ومن الحاق الهزيمة بهم [٣] غير أن الوندال فيما يبدو قد استعادوا سيطرتهم على الإقليم بعد ذلك من جديد .

وحدثت ثورة أخرى في عهد الملك أولديريك Ulderico يجعلها المؤرخ بروكوبيوس فيما بين سنتي ٥٢٧ و ٥٣٣ للميلاد [٤]، وقد قامت بها

(1) Rossi E. Storia Di Tripoli E Della Tripolitania Ecc... P. 20.
Merighi A. La Tripolitania Antica, vol. I, P. 297.

(٢) يلاحظ أن هناك مدينة بربرية الأصل لا تزال تعرف باسم كاباو . فهل ثمة صلة ما بين الشخص والمدينة ؟... هذا جائز وإن كنا لا نستطيع إثباته .

(3) Rossi E. Storia Di Tripoli E Della Tripolitania Ecc... P. 20.

(4) Merighi A. La Tripolitania Antica vol. I, P. 294 Nota 2.

قبيلة ليباتا Lebata (وهي لواته عند العرب) ، وهاجمت فيها مدينة لبتس مانيا فانتهبتها ، وهدمت مبانيها وحصونها وأشعلت فيها النار[١] .

ويبدو أن هذه الثورات الوطنية التي كانت تندلع بين القينة والفينة في صفوف البربر — وما ذكرناه ليس بجميع ما يعرف منها — إنما يؤججها في النفوس ما كانوا يتعرضون له من مظالم وقسوة وغدر بالرجال من زعمائهم (كالتي سنذكرها فيما بعد) ضد الرومان .

جستنيان والوندال في الشمال الافريقي :

ولما تولى جستنيان عرش الامبراطورية الشرقية ناصب الوندال العداء ، وحاول كما حاول الأباطرة الذين سبقوه ، استعادة افريقيا الشمالية ، وتحرير أراضي الامبراطورية الرومانية الغربية من سيطرة البرابرة القوط والوندال معـــاً .

وعلى الرغم من ممانعة الحاشية ورجال القصر له في الاقدام على الدخول في حرب حقيقية ضد الوندال كانوا يرونها ويتوقعونها طويلة ومريرة ، لما اشتهر به هؤلاء من روح حربية شرسة ، فان الامبراطور جستنيان قد صمم على خوضها مدفوعاً — وفي الحقيقة متستراً — بالحافز الديني ورغبة منـــه — أبداها — في القضاء على الالحاد الأرياني الذي ينشره الونداليون في سائر الشمال الافريقي[٢] .

ويبدو أن حروب العصر كانت جميعها دينية وباسم الدين كما سبق القول ، أو على الأصح من أجل تغليب مذهب مسيحي معين على آخر يخالفه أو على الأقل كانت الحروب تتخذ هذا المظهر ربما استغلالاً للتعصب الأعمى للمعتقد في صفوف الجماهير الرومانية .

وسواء أكانت الرغبة في محاربة الالحاد الأرياني هي الدافع حقيقة لجستنيان

---

(1) Merighi A.OP. CiT P. 294.
(2) Merighi A. La Tripolitania Antica vol. I P. 296, 297.

أو أنها كانت الرغبة في استعادة النفوذ الروماني على تلك الأقاليم لاعادة مجد الرومان أو هي الرغبة في التوسع للحصول على المزيد من المغانم والثروات. – وهذا هو الارجح – فإن جستنيان قد أقدم في جرأة وشجاعة على هذه الخطوة مخالفاً رأي مستشاريه ورجال دولته .

التمهيد للحرب :

ويذكر لنا المؤرخون تلك المعلومات التمهيدية التي سبقت الحملة ، ومهدت لها سياسياً في تلك الأقاليم فيقولون بأن الامبراطورة ثيودورا كانت تحيطه بحقيقة الأوضاع داخل مناطق النفوذ الوندالي ، اذ أنها عاشت ولبضع سنوات خليلة للحاكم الروماني على بنتابوليس (برقة) ، وذلك قبل زواجها من جستنيان على ما يذكره من اخبارها بروكوبيوس في تاريخه السري(1) ، وبالتالي فلا يستبعد أنها وقد أصبحت امبراطورة حاولت الاتصال سرياً بالعناصر الرومانية في غرب ليبيا ، وحرضتها على الثورة ، كما ينسب من جهة أخرى الى جستنيان أنه تمكن من زيادة الشقاق الداخلي بين الوندال(٢) .

وتذكر بعض كتب التاريخ نقلاً عن اشارات غامضة لمصادر قديمة ، ان الأحوال في الشمال الافريقي قد بلغت زمن الوندال حداً كبيراً من السوء بالنسبة إلى الرومان وغيرهم من الذين يدينون بغير الأريانية اذ بالغ الوندال في اضطهاد هؤلاء والقوا في السجون بأعداد كبيرة منهم ، ولا سيما من القساوسة ورجال الدين بالإضافة إلى مصادرة ممتلكاتهم الخاصة(٣) . وكنتيجة لهذا هاجر بعضهم ، والتجأ إلى العاصمة الشرقية . وهناك سعوا لدى

(1) Procopio : Storia Segreta Cap. XIV P. 95.

(٢) الدكتور العريني : الدولة البيزنطية ص ٧١ .

(٣) بما أن هؤلاء القساوسة والرهبان الذين سجنوا وصودرت ممتلكاتهم من الأرثذوكس ، فلا نستبعد أنهم كانوا يتآمرون على دولة الوندال الاريانيــة ويخونونها لصالح الامبراطورية الرومانية كنوع من المساهمة منهم في الصراع الديني بين المذهبين المسيحيين ، وقد حدث مثل هذا كثيرا في الزمن القديم وفي الحديث أيضاً .

الامبراطور ليعمل على إنقاذ البلاد من سيطرة الوندال وخلاص الأرثذوكس مما يقاسونه مؤكدين له بأن السكان سيثورون على مستعمريهم بمجرد وصول حملة عسكرية إلى افريقية[1].

ويذكر بروكوبيوس أن مغامراً من طرابلس يدعى بودينزيو Bodenzio – ويبدو من الاسم أنه روماني الأصل – قد كاتب جستنيان سراً، ودعاه لتوجيه حملة عسكرية إلى الإقليم، ووعد بتسليم المدينة للبيزنطيين دون كبير عناء بالنظر لانعدام قوات وندالية كبيرة تستطيع أن تصمد للمهاجمين والثائرين. وأعلمه بأنه قد أعد عدته في الخفاء ليثور بأهل المدينة من الرومان على الحامية الوندالية[2].

استعادة طرابلس والقضاء على الوندال :

وسواء أصحت كل هذه الأخبار أو بعضها، فإن من الثابت، ولاسباب أخرى أيضاً، ذات علاقة بالوضع العام للدولة البيزنطية وموقفها من الدولة الفارسية، قد وجد جستنيان الفرصة سانحة، فأوفد حملة عسكرية على رأسها قائد عرف باسم تاتيموث Tattimuth إلى اقليم المدن الثلاث (طرابلس).

ويذكر في التاريخ أن هذه الحملة ما أن وصلت حتى انضم اليها المغامر بودينزيو الذي سبقت الإشارة إليه، وتمكنت في سرعة من الاستيلاء على سائر الإقليم وكان هذا في سنة ٥٣١/٥٣٢ للميلاد. وحدث هذا في وقت شغل فيه ملك الوندال بقضايا تمرد أخرى أهم عاقته عن تسيير حملة تأديبية ضد طرابلس لاستعادتها من يدي الرومان حتى داهمه بلزاريوس قائد جستنيان سنة ٥٣٣ بقوات الامبراطورية التي تمكنت من القضاء على دولة الوندال سنة ٥٣٥ م. واقتاد بلزاريوس قائدها الملك جليمير Gelimero آخر

(١) الدكتور العريني : الدولة البيزنطية ص ٦٩.
(2) Rossi E. Storia Di Tripoli E Della Tripolitania Ecc... P. 20.

ملوك الوندال أسيراً إلى عاصمة الامبراطورية[1]

ثورة الليبيين على الرومان منذ البداية :

ولما كانت المؤامرة التي دبرت للعودة بالبلاد إلى الحكم الروماني من جديد قد تمت — فيما يبدو — بمعزل عن ارادة وتدبير أهل البلاد نفسها من البربر (الليبيين) ، فقد نقم هؤلاء على مدبريها وقاوموا تاتيموث وجنده الامبراطوري وحاصروهم داخل المدينة وكادوا أن يتغلبوا عليهم لو لم ينجدهم بلزاريوس بفرقة من جيشه في قرطاجنة بعيد نزوله بقواته هناك[2] . على أنه اذا لم تكن هناك مؤامرة انقلاب مدبرة سلفاً من بوديزيو هذا ، ولم تكن هناك اضطهادات دينية عنيفة ضد الرومان الأرثذوكس فإن إقدام الونداليين على تخصيص الأراضي التي انتزعت من أيدي الرومان ، ومنحت اقطاعات لبعض الزعماء الليبيين من جانب وانضمام الرومان من أهل المدينة إلى صف الغزاة من جانب آخر يكفيان لعدم تقبل الليبيين لهذا التصرف سبباً ودافعاً لمقاومة جيش جستنيان الغازي لبلادهم والمحتل لمدنهم .

ولا نريد أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنشير إلى أن الأريانية قد كانت منتشرة بشرق البلاد ، وبرقة هي مبعثها وموطن نشأتها ، وربما في غربها أيضاً حتى قبل الاحتلال الوندالي للشمال الافريقي ، وربما كان هذا في حد ذاته سبباً في سهولة سيطرة الوندال على هذه الأقاليم ، ونفترض ان الليبيين إنما آزروا مذهبهم العقائدي وأهله بثورتهم على الرومان الذين يدينون بالكاثوليكية الارثذوكسية ويكفرون الأريانيين .

ثار البربر على الرومان ، ولكن ثوراتهم كان ينقصها التنسيق فيما بينها مما جعلها تتخذ طابع الغارات الخاطفة على المدن والحصون ، الأمر الذي حمل الإمبراطورية الرومانية على الاعتناء بأمر الدفاع عن المناطق الشمالية

(1) Rossi E. Storia Di Tripoli E Della Tripolitania Ecc.. P. 20, 21.
(2) Rossi E. OP .CiT. P. 21.

التي يحتلونها ويعسكرون بها . كما أن جستنيان وقد تستر بالدين في تلك الحرب وجد نفسه مضطراً إلى العناية بأمر الرومان الأرثذوكس الذين تعرضوا لقسوة الحكم الوندالي فقام بعدة اصلاحات مدنية أيضاً كترميمه لبعض المباني من حمامات وكنائس وأسواق .

وضع البلاد تحت الحكم البيزنطي :

ويذكر لنا بروكوبيوس مؤرخ جستنيان في كتاب أفرده لذكر أعمـــال هذا الإمبراطور العمرانية في سائر أنحاء امبراطوريته أن حكومة جستنيان قد عنيت بأمر هذا الإقليم فقامت بعدة إصلاحات مدنية وعسكرية في عديد من المدن والقرى ذكرها بروكوبيوس بالتفصيل[1] .

كانت حرب جستنيان في شمال افريقيا قد ألبست الثوب الديني ، ولذلك كان انتصاره فيها انتصاراً للكنيسة الرومانية الارثذكسية التي بالغت هـــي الأخرى في مطاردة الملاحدة ليس من الأريانيين فقط وإنما من سائر الملل والنحـــل :

فالأريانيون قد وضعوا في أدنى المراتب اجتماعياً ومنعوا من مزاولة عباداتهم وطقوسهم الدينية واليهود طوردوا وعذبوا ونكل بهم ، والوثنيون لاقوا نفس المصير ، وحتى المسيحيون من غير الكاثوليك كاليعاقبة (الاقباط) لم يلاقوا معاملة أحسن من الآخرين .

والرومان الذين انتزعت ممتلكاتهم أيام حكم الوندال هم الآخرون قد اعتبروا عودة الرومان إلى الحكم نصراً لهم فشرعوا يستولون على الأراضي والمزارع التي اقطعت من الوندال لليبيين ويستولون على غيرها معها في جشع وعنف وتكالب ، وأخذوا يطاردون ملاكها السابقين وينكلون بهم ، فعمت البلاد الفوضى وسادها عدم استقرار داخلي مريع سارع بثورة هذه الفئات على الحكم حتى قبل استتباب الأمر للرومان في الأقاليم المحتلة .

---

(1) Procopio : — Gli Edifizii, Lib. VI Cap. II, III, IV.

وحاول جستنيان إصلاح الأمر غير أنه لم يفلح ، فعلى الرغم من تلك الإصلاحات العمرانية ، وعلى الرغم من أعمال جستنيان الأخرى في ميداني القانون ، والاصلاح الإداري ، فإن خطر اضمحلال الدولة كان ماثلاً حتى في أيامه كما يقول بتلر : « فقد توالت النوازل على الدولة حتى خشي عليها ، فمن فساد خلقي(١) إلى آخر سياسي(٢) وزادت عليها نكبات طبيعية فاجتاح الزلزال والوباء بلاد الشرق كلها ، ولم تنج منه ليبيا أيضاً(٣) » .

كما أن التنظيم لم يوقف يد الحاكم الروماني سالامون Salomone الذي خلف بلزاريوس على قيادة الجيش وادارة الأرض المحتلة ، ولا ردعه عن التمادي في ملاحقة المسيحيين الذين يدينون بالأريانية ولا حال بينه وبين الإسراف في التنكيل باليهود وبالوثنيين من الوطنيين ، وكانت أعمال مصادرة الأموال وهدم المعابد ، ونفي وتشريد هذه الطوائف أقل ما يمكن أن ينزل بهم من عقاب . فأجج هذا بينهم حقداً أسوداً على الرومان ، وأكد وعمق الكراهية لحكمهم وحاكمهم الذي اتخذ من الصلف والكبرياء نهجاً له واسلوباً في معاملة الرعايا المستعمرين(٤) .

ثورة لواتة سنة ٥٣٥ م :

دفع هذا بالبربر وببقية الفئات المستضعفة إلى الثورة على الرومان . وبدأت الثورة حينما نقمت قبيلة لواته على هذا الوضع فهاجمت مدينة

---

(١) لعله من أبرز مظاهر الفساد الخلقي زواج جستنيان نفسه من ثيودورا ذات الماضي المريب ، ويعتبر ما دونه المؤرخ بروكوبيوس في كتابه الذي عرف بالتاريخ السري أهم سجل يحصي لنا أبرز أدلة ذلك الانهيار الخلقي السياسي في عهد جستيبان بالذات .

(٢) ليس من غايتنا هنا التعرض لتلك الأحداث السياسية في عهد هذا الملك ولو فعلنا لخرجنا عن الموضوع كثيراً . ولذلك فمن الممكن الرجوع إليها في شتى مصادر التاريخ الروماني وفي جميع اللغات .

(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١ .

(4) Caetani L. Annali Dell'Islam Anno 21 H. - 114. Merighi : La Tripolitania Antica Vol. I P. 300.

لبتس مانيا وغيرها من المدن الليبية ثم اندلعت الثورة في سائر الشمال الأفريقي سنة ٥٣٥ ، ولم يقض عليها الا بعودة بلزاريوس على رأس تعزيزات عسكرية قوية .

وبدا أن الأرض الخاضعة للحكومة البيزنطية أوسع من أن تُسَيَّر من قرطاجنة مركزياً بادارة واحدة وحكام على المدن والأقاليم فأقدم الأمبراطور جستنيان سنة ٥٤٣ للميلاد على فصل إقليمي طرابلس وبنتابوليس عن ادارة إفريقية ، ونصب لكل منهما حاكماً مستقلاً وهما سرجيوس Sergio وقيروس Ciro حفيدا سلومون نفسه ، وقد كانت برقة من نصيب قيروس وهو أكبر الأخوين بينما كانت طرابلس من نصيب سرجيوس[1] . غير أن الحاكم الجديد سرجيوس كان مثل غيره في سوء الحكم وعجرفة الطباع فثار الناس عليه أيضاً وتمكنوا من طرد الرومان والخروج بالبلاد عن سلطانهم في النهاية .

الثورة على سرجيوس واسبابها :

ويذكر ميريقي أن الثورة على الروم قد بدأت في اقليم المدن الثلاث (طرابلس) سنة ٥٤٤ ، أي في السنة الثانية من حكم سرجيوس ، وكان السبب فيها عجرفة وجهل هذا بأساليب الحكم ، واستخفافه بالعناصر الوطنية ، مما دفع بالبربر وعلى رأسهم قبيلة لواته الى التمرد عليه . وتحت الحاح الثائر المتآمر القديم بوديزيوس قبل سرجيوس التفاوض مع الثوار على مضض ، وانتهى الأمر بتفاهم أخذت فيه المواثيق الغليظة من الطرفين على احترام نصوص ذلك الاتفاق ودعى سرجيوس زعماء تلك القبيلة إلى مائدته بمدينة لبتس مانيا التي كانوا ينزلون بجوارها وتحيط منازلهم بها منتشرة في الأودية وعلى المرتفعات .

---

(1) Rossi E. Storia Di Tripoli E Della Tripolitania Ecc... P 21.

وفي داخل القصر تنكر سرجيوس للقوم وحنث في يمينه الذي أقسم به على الأناجيل ، وأمر حراسه فأعملوا في ضيوفه السيف وكانوا ثمانين رجلاً فقتلوهم جميعاً عدا واحد فقط ، تمكن من الافلات حيث أعلم البربر بالخديعة فثارت لواته ، وثار لثورتها سائر البربر على امتـــداد الشمال الافريقي(١) ولم يتمكن الإمبراطور من استعادة سلطانه على هذه الولاية الا بعد حروب وحملات عسكرية أتت على معظم مظاهر العمران في البلاد، والا بعد أن أفنت الرجال ، ويقدر جبون Gibbon ضحايا هذه الثورات في فترة العشرين سنة الأولى من حكم البيزنطيين للبلاد بعد التغلب على الوندال استناداً إلى ما ذكره بروكه بيوس في « التاريخ السري » بخمسة ملايين في أقطار الشمال الإفريقي(٢) .

بين جستنيان وهرقل :

وجاء من بعد الإمبراطور جستنيان أباطرة آخرون ضعاف أهملوا شأن هذه البلاد فيما أهملوه من شئون الدولة حتى كان الإمبراطور « فوكاس » وهو جندي جاهل مشوه الخلقة جاء به الشعب بعد أن طوح بالإمبراطور موريق(٣) .

ويقول المؤرخ ليوني كايتاني في حوليات الإسلام (السنة ٢١ هـ فقرة

---

(1) Merighi A. La Tripolitania Antica vol. I, PP. 309, 310.
ويشير بروكوبيوس في التاريخ السري الفصل العاشر إلى العلاقة التي تصل بين سرجيوس هذا وأنتونيتا زوجة بلزاريوس وحماية هذه له على الرغم مما ارتكب من جرائم إلى حـــد إقناع الامبراطور بإعادته حاكماً للبلاد بدلا من سلومون الذي قتـــل من الثوار سنة ٥٤٤ للميـــلاد .

(2) Caetani L. Annali Dell'Islam. Anno 21 H. - 114. Procopio : — Storio Segreta Cap. XX. وبروكوبيوس في هذا الفصل يرفع العدد في تقديره إلى واحد وعشرين مليوناً ، ويرد الروايات الشائعة في زمنه لأنها تقدرهم بخمسة ملايـــين فقط ويرى أن الرقم كان أقل من الواقع بكثير .

(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢ .

١١٥) أنه لا فائدة ترجى من سرد أحداث تاريخ العهد البيزنطي في هذه الاقاليم المغربية (البربرية) فهي عبارة عن سلسلة متشابهة من المخازي والجرائم والجهل بأساليب الحكم والسياسة العقيمة ، والتعصب الأعمى للمعتقدات الدينية التي تتشابه في إفريقيا وفي آسيا وبقية المناطق وما يؤدي إليه هذا من اصطدام بين السلطة الحاكمة وبين رجال الدين ولكنه في هذه الأقاليم ابرز عنصراً ثالثاً خطيراً هو البربر أهل البلاد الأصليين الذين كانوا أبداً الضحية في جميع هذا الصراع وما يؤدى إليه من اضطهاد وسفك دماء . على أن كايتاني نفسه يعود فيذكر عن البربر أنهم كانوا دائمي الثورة على الحكم البيزنطي بحيث لم يعد أمام حكام وجند الامبراطورية سوى هدف واحد هو الحرص الشديد على الاحتفاظ بالسلطة في حين أصبحت جميع الأهداف الأخرى تأتي في المرتبة الثانية[١] .

عهد الامبراطور فوكاس :

وقد بدأ حكم الإمبراطور فوكاس في نوفمبر سنة ٦٠٢ للميلاد وسط أفراح الشعب وابتهاجاته لما كان يؤمله على يديه من اصلاحات عظيمة . ولكن هذا الامبراطور لم يستطع أن ينقذ الامبراطورية الرومانية مما توشك أن تتردى إليه ، ولذلك ما أن حلت سنة ٦٠٩ للميلاد حتى كان شعبه في سائر الدولة الرومانية قد برم به ، ومل حكمه ، وأصبح لدى الخاصة والعامة استعداد كبير للثورة عليه[٢] .

وجاءت الثورة فعلاً ، ولكنها بدأت بعيداً عن العاصمة فقد اندلعت في اقليم بنتابوليس أي المدن الخمس ، وكان القائم بها هو هرقل الأب الذي عرف العرب المسلمون ابنه وسميه هرقل فيما بعد امبراطوراً للرومان الذي حاربوهم في الشام ومصر .

(1) Caetani L. Annali Dell'Islam Anno 21 H - 115.

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣ .

ثورة هرقل من بنتابوليس :

كان هرقل الأب قائداً لجيش الامبراطورية في حربها ضد الفرس أيام الامبراطور موريق ، ونجده في عهد فوكاس باقليم المدن الخمس (بنتابوليس) فهل كان والياً عليها ؟... هذا ما لا توضحه لنا صراحة المصادر التي بين أيدينا وهي حديثة ؛ ومهما يكن من أمره فان هرقل الأب باقليم المدن الخمس كان يعد لثورته على فوكاس اعداداً محكماً ذلك أننا نجده على وفاق فيها مع كريسبوس صهر فوكاس – زوج ابنته – وعلى وفاق أيضاً مع بعض الأحزاب في سالونيك باليونان ، ومع حاكم طرابلس كيسيل وعلى وفاق كذلك مع ليونتيوس حاكم إقليم مريوط[1] . وربما مع غير هؤلاء من قادة جند ونبلاء وساسة الدولة أيام الإمبراطور موريق والذين أبعدوا من مناصبهم أو جردوا من سلطاتهم أيام الامبراطور فوكاس غير أن هرقل الأب كان كبير السن اذ كانت سنه آنذاك اكثر من ٦٥ سنة ، وهذه سن لا تتناسب والقيام بهذه المجازفة[2] .

وقد كان لهرقل هذا ابن في مقتبل العمر[3] يدعى هرقل هو الآخر فرأى هرقل الأب في هرقل الإبن قوة الصبا وحيوية الشباب فدفع به إلى أكبر مجازفة وأخطر محاولة يقدم عليها إنسان .

الثائرون مع هرقل من الرومان :

وكان لهرقل الأب صديق يدعى نيقتاس يقول بتلر عنه أنه كان نائب هرقل ووكيله الأكبر[4] فجعل منه الشريك لابنه في هذه المؤامرة .

---

(١) بتلر السابق ص ٤ – ٥ .

(٢) بتلر المصدر السابق ص ٣ .

(٣) يروي المؤرخون أنه كان من مواليد سنة ٥٧٥ للميلاد فهو إذن حينما بدأ ثورته كان ابن ٣٤ سنة فقط وهي السن المناسبة للقيام بالثورة ولتحمل أعبائها ومسئولياتها الجسام .

(٤) بتلر : المصدر السابق ص ٤ .

ويقول مؤرخو ذلك العصر أن كريسبوس صهر الامبراطور فوكاس هو رأس التآمر على حماه ، وأنه الذي دفع بهرقل إلى الثورة ، غير ان بتلر لا يرى في كريسبوس ذلك المغامر الجريء القادر على الاقدام على مثل هذا الأمر ، ويظن أنه وقد حدث منه ما استوجب غضب حماه « فوكاس » عليه غضباً هائلاً من جهة ، وبلغه نبأ خروج هرقل في بنتابوليس على الامبراطور من جهة أخرى « قويت نفسه ، فأنفذ سراً إلى الثائرين كتباً يحثهم فيها على ما هم فيه ويعدهم بالمساعدة اذا ما استطاع هرقل أن يسير إلى القسطنطينية »[1] .

البربر وثورة هرقل :

وقد بدأ هرقل الإبن ثورته على الإمبراطور في إقليم بنتابوليس (برقة) نفسه ، بأن جمع جيشاً من المرتزقة ، قوامه ثلاثة آلاف جندي ، جندهم بما بذله لهم من أموال طائلة ، واجتمع لديه فوق ذلك جيش مما يسميه (حنا النقيوسي) بالهمج وكانوا بلا شك من البربر[2] . وهذه الاشارة منه إلى الجند غير النظامي تكشف لنا عن حقيقتين هامتين : الأولى أن موقف الليبيين من الثورة كان موقف المؤيد لها الناصر لزعيمها ، وهذا يمكن تعليله بأن الليبيين ربما كانوا يؤملون على يدي هرقل خلاصاً من سيطرة رومانية شديدة القسوة عليهم والبطش بهم ، ومن أجل هذا آزروه وكانوا السبب المباشر في انجاح الثورة في مرحلتها الأولى على الأقل . والثانية أن البربر (الليبيين) قد اعتنقوا الثورة قضية ، ولم ينضموا إليها ولا وقفوا إلى جانبها من أجل المال ، ولهذا ميز المؤرخ القبطي بين الفريقين .

نشوب الثورة في برقة :

ويبدو أن في بنتابوليس كما في غيرها قوة تؤيد حكم الامبراطور فوكاس

---

(١) بتلر : المصدر السابق ص ٧ .
(٢) بتلر : المصدر السابق ص ٣ .

وتنتصر له تتمثل في بعض قادة الجند ، ولذلك ما أن أعلن هرقل عن ثورته حتى تصدى لها قواد الدولة المخلصين لفوكاس وهم مارديوس، واكليزياريوس وإيزيدور ، وحاولوا اخمادها غير أن الثوار بقيادة شخص يوناني يسمى يوناكيس[1] قد استطاعوا أن ينتصروا على هؤلاء في موقعة فاصلة وبهذا سيطر هرقل على بنتابوليس سيطرة تامة . وفي الوقت نفسه أرسل كيسيل حاكم طرابلس ، وكان متضامناً كما سبقت الإشارة مع الثوار ، بكتيبة يبدو أنها لم تشارك في معارك الثورة الأولى في إقليم المدن الخمس إذ يقول بتلر عنها : لعلها ذهبت إلى جنوب بنتابوليس[2] وسواء أكان هذا الاحتمال صادراً عن بتلر نفسه أو أنه كان ناقلاً له من مصدر قديم أو حديث ، فإننا لا نجد ما يحمل على قبوله ، وذلك لأن جنوب هذا الإقليم لم توجد به قوات للامبراطورية وليس الليبيون بأنصار لفوكاس أو لسواه من اباطرة الروم السابقين ، بل وان فيما قدمناه لما يحمل على القول بأنهم كانوا يقفون إلى صف الثورة والثـــوار .

من بنتابوليس إلى العاصمة :

ولا يقبل بتلر برواية تاريخية قديمة قبل بها سواه من المؤرخين من أمثال جيبون وديهل وغيرهما مؤداها أن هرقل ونيقتاس قد اتفقا على أن يقصد هرقل الإبن العاصمة الإمبراطورية بحراً ، ويقصدها نيقتاس براً وأيهما يبلغها قبل صاحبه بجنده يكون التاج من نصيبه[3] فيناقش هذه القضية في إسهاب ، ويرى فيها خطة مدروسة في إحكام تقضي بأن يذهب هرقل إلى سالونيك حيث يجمع المزيد من الرجال ويستميل اعداء فوكاس الآخرين في سائر أنحاء الإمبراطورية بما في ذلك أهل العاصمة . وبأن يذهب نيقتاس إلى

---

(١) يقول بتلر حول هذا الاسم أنه تحريف أثيوبي لاسم يوناني وذلك لان حنا النقيوس صاحب المصدر كان كتب أو ترجم كتابه إلى الإثيوبية في القديم ومنها ترجم إلى اللغات الحديثة .

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٧ .

(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٤ .

مصر ويستولي على الإسكندرية فيمنع عن الإمبراطور الامدادات البحرية والمثونة التي كانت العاصمة تحصل عليها من وادي النيل[١] .

ولا يهمنا هنا من أمر القائدين بعد ذلك، ولا ما لقياه في مسيرتهما تلك حتى انتهت بهرقل إلى الجلوس على العرش الروماني وتتويجه إمبراطوراً وهو لا يزال في سن الخامسة والثلاثين . وانما يعنينا هنا الاشارة إلى أن هرقل قد غادر إقليم بنتابوليس سنة ٦٠٩ للميلاد في عدد كبير من الجند الروماني ومن المرتزقة اليونان وغيرهم وفي عدد أكبر من البربر سكان الإقليم ، وأن نيقتاس قد غادرها في نفس الوقت بقوة أخرى لا تقل عن الأولى عدداً ووجهته فتح مصر . كما غادرها بعدهما نفس هرقل الأب على رأس حملة ثالثة في اتجاه الغرب وغايته قرطاجنة التي استولى عليها واتخذ منها مقراً جديداً له . وقد ظن بعض المؤرخين خطأ ، فيما يقوله بتلر أن قرطاجنة كانت موطن الثورة والمركز الذي انطلقت منه . ولعل منشأ هذا الخطأ جهل أولئك لبعض أو للكثير من تفصيلات الأحداث التي أشرنا إليها في ايجاز .

أثر الثورة على البلاد البرقية :

ثلاثة جيوش قوية ، تخرج من إقليم بنتابوليس في نفس الفترة تقريباً إلى بلاد اليونان والى مصر وإلى إفريقية ، فمن الذي بقي بعد ذلك من حامية الروم في هذه الولاية ؟ بل ومن بقي فيها من الشباب الليبي القادر على حمل السلاح ؟ وهل عاد أحد من هؤلاء وهؤلاء إلى البلاد بعد ذلك ؟ هذه أسئلة قد لا يكون من الممكن الإجابة عليها بعد كل هذا الزمن اللهم الا اذا كانت هناك نصوص تاريخية تقدمها لنا أو تعيننا على ذلك وهو ما لا علم لنا به .

وإذا نحن أخذنا بعين الإعتبار سوء الادارة الرومانية في البلاد منذ قرون ، وشدة احتياج هذه الجيوش الثلاثة إلى المال والسلاح والمثونة ، وليس من

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٤٤، ٦٥ .

سبيل للحصول عليها غير إرهاق عامة الشعب بكل نوع من أنواع الإتاوات والضرائب أدركنا حالة الجزء الشرقي من ليبيا آنذاك ، ومدى العبء الذي تحمله الليبيون في سبيل بلوغ هرقل غايته في المراحل الأولى من الثورة على الأقـــل .

احتلال الفرس لبرقة :

وليت الأمر اقتصر على هذا الحد ، فقد تعرضت المنطقة الشرقية ذاتها لغزو آخر عقب هذه الأحداث بفترة وجيزة لا تجاوز الخمس سنوات بكثير ، اذ داهمها الفرس بجيوشهم حينما امتد نفوذهم إليها فيما بين سنتي ٦١٥ و ٦١٨ للميلاد ويبدو أن فترة احتلال الفرس لبنتابوليس قد صحبها الحاق بعض الدمار والفناء بالمدن والقرى التي مروا بها وقاومتهم ، وذلك على الرغم من تحفظ بتلر في عباراته التالية : « واكبر ظننا أن أخبار تدميرهم وتخريبهم للمواضع الأخرى مبالغ فيها ، فمثلاً يقول جيبون أنهم محوا من الوجود مدينتي قيرين وبرقة في حين أن العرب وجدوا هاتين المدينتين بعد سنين من ذلك الوقت ، وكانتا جديرتين بفتح جديد »[1] .

استرجاع هرقل لحكمه برقة :

ولم يدم هذا الاحتلال الفارسي طويلاً ، وعادت البلاد بعده إلى سيطرة الروم من جديد . ويبدو هذا واضحاً في عبارات بتلر التالية ، والتي جاء بها بعد الفقرة السابقة وكجزء متمم أو كبقية لها : « بل ان هاتين المدينتين في هذا الوقت الذي نصفه لم تذهبا وتنمحيا ، واننا لا نستطيع أن نفسر قوله (يعني جبون) هذا بأنهما نزعتا إلى الأبد من الدولة الرومانية ، فإن ذلك لم

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٦٧–٦٨ . وتجدر الاشارة هنا إلى أن بتلر يغالط في أمر قورينة إذ أنها لا وجود لها فعلا في أخبار الفتح والعرب الفاتحين وقد يكونوا وجدوا برقة ولكنهم لم يتعرضوا بأي خبر لمدينة قورينة مما يؤكد عدم استمرار عمرانها بعدما لحق بها في الفتح الفارسي .

يكن ، وليس في الأخبار ما يبرر أن حظ هاتين المدينتين كان غير حظ مصر . فإنها جميعاً دخلت في حكم كسرى ، وبقيت على ذلك حيناً من الدهر ، ثم قدر لها أن تعود إلى حكم هرقل قبل أن تدخل في الاسلام، وتصير إلى الأبد في حكمه .[1] »

ودفاع بتلر عن الفرس في هذه القضية ، ونفيه لأن يكون قد أصاب مدينتي قورينة وبرقة الكثير من الدمار بأيدي الفرس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما سبق لنا التلميح إليه في أول هذا الفصل من محاولته الصاق تهمة القضاء على معالم الحضارة في البلاد بالعرب وليس بغيرهم والا فان العرب الفاتحين لم يجدوا شيئاً اسمه قورينة ولم يفتحوا مدينة باسم برقة في هذا الإقليم على ما سيرد في الفصول التالية من هذا الكتاب .

وقد دام حكم الفرس لمصر وبنتابوليس معاً مدة عشر أو اثنتي عشرة سنة[2] أي أنه انتهى فيهما بعودتهما إلى سلطان هرقل سنة ٦٢٧ أو حتى سنة ٦٢٩ اذ يقول بتلر : « واكبر الظن أن أكثر الفرس خرجوا من مصر في أول سنة ٦٢٧ ، وأن البعض القليل منهم قد بقي في مسالح متفرقة إلى سنة ٦٢٨ ، وخرجوا بعد ذلك عندما تم الصلح مع هرقل » . ويقول بعد هذا أن هرقل أرسل جيشاً عن طريق البحر في شتاء سنة ٦٢٨ — ٦٢٩ ليحتل مصر ويعيد أمر الدولة الرومانية من فلسطين إلى بلاد بنتابوليس[3] .

طرابلس لم تخضع للفرس :

وكما أن إقليم بنتابوليس قد سلم من الزحف الوندالي الى عهد جستنيان ، فقد نجا إقليم تريبوليس أو طرابلس من الاحتلال الفارسي ، ولم يقع تحت سيطرتهم وانما استمر في تبعيته للامبراطورية البيزنطية غير أن هذه التبعية فيما

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٦٧ .
(٢) بتلر : المصدر السابق ص ٦٦ .
(٣) بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٢٩ .

يبدو كانت إسمية بسبب تعدد ثورات البربر ضد حكمها وبسبب انشغال الروم بالحرب الفارسية التي أخذت تهدد العاصمة نفسها وتسيطر على الأقاليم القريبة منها إلى درجة حملت هرقل على التفكير في نقل مركزه القيادي إلى إفريقيا لولا ممانعة رجال دولته له في ذلك واخذهم عنه المواثيق الغليظة بالبقاء في العاصمة مهما تكن النتيجة لذلك .

غموض أحداث آخر العهد الروماني :

وليس لدينا من المعلومات ما يوضح لنا أحداث السنوات العشر الأخيرة من حكم الرومان لهذين الإقليمين ، ولكن يبدو أن مناصرة البربر لهرقل في ثورته لم تشفع لهم عنده . وأن أسلوب السيطرة الرومانية قد ازداد قسوة وشراسة تكاد تفصح لنا عنها شروط الصلح التي ابرمت بين أهل انطابلس (بنتابوليس) وقائد جيش المسلمين الأول عمرو بن العاص .

غموض تاريخ المناطق الجنوبية :

هذا هو تاريخ إقليمي الشمال (برقة وطرابلس) أما تاريخ إقليمي الجنوب (الكفرة وفزان) ، فإن معلوماتنا عنهما لا تسمح لنا باستعراض تاريخهما لنفس الفترة ، وأغلب الظن أن أمرهما قد ظل بيد البربر من أهلهما لا ينازعهم عليه أحد طوال ذلك العصر ، ما عدا واحة أوجلة التي يذكر لنا بروكوبيوس عنها أن جستنيان قد حرص على فرض المسيحية على أهلها وقد كانوا من قبل وثنيين ، فاستبدل ببعض سكانها عناصر رومانية من الشمال ، وبنى بها كنيسة للسيدة العذراء . وبالرغم من أن التاريخ لا يحدثنا عن مصير أولئك الذين أسكنهم جستنيان بالواحة فأغلب الظن أنهم هجروها إلى الشمال لتعذر استمرار حياتهم بها بعد انحسار سلطان الروم عنها بسبب ثورات البربر التي سادت الشمال بعد ذلك .

ومع ذلك وكنتيجة لنقص معلوماتنا عن تاريخ الجنوب فإنه يتعذر علينا

القول بأنهما كانا بمنجاة من أي غزو أجنبي يتهددهما من شعوب الجنوب بل من الجائز جداً وقوع احتكاك بين اهل هذه الواحات وشعوب أواسط القارة وان جهلنا أمره وطبيعته ومداه.

تصحيح واقع تاريخي :

ومما تقدم جميعه يتضح لنا أن ذلك العمران الممتد فيما بين بنتابوليس ومصر، وذلك الازدهار الاقتصادي في إقليم تريبوليس، مما يشير إليه مؤرخو العصر الحديث[1] لم يكن سوى اكذوبة كبرى دست على التاريخ عن سوء قصد لإلحاق تهمة القضاء على معالم الحضارة الرومانية في هذه البلاد بالعرب الفاتحين وهي تهمة تبرئهم منها عبارات المؤرخين القدماءمن مثل قول الأسقف سينزيوس : « إن بنتابوليس قد ضاعت، قد انتهت، قد اغتيلت، قد ماتت، ولا وجود لها، لا بالنسبة إلينا ولا بالنسبة للامبراطور، ذلك أنه بالنسبة للامبراطور فإن أية ولاية لا تعطي فائضاً، هي ولاية ضائعة؛ وماذا يمكن أن تعطيه أرض تحولت إلى صحراء؟.» ومن مثل قول مؤرخ جستنيان بروكوبيوس أن الوندال قد هدموا أسوار المدن في غرب ليبيا ومن مثل قول الذي نقل عنه جبون من أن الفرس قد هدموا المدن والقرى ومحوا مدينتي برقة وقورينة من الوجود، وهي تهمة تبرئهم منها أيضاً تلك الأحداث التي رويناها في هذا الفصل بايجاز : فالغزو الوندالي لغرب البلاد وثورات الرومان عليه في الداخل، والاحتلال البيزنطي لاقليم تريبوليس وثورات الليبيين عليه، ومقاومتهم له، واخلاء البلاد من رجالها بعد ارهاق السكان اقتصادياً من قبل هرقل في ثورته على فوكاس في بنتابوليس، والاحتلال الفارسي وامتداده لعشر سنوات واستعادة هرقل لهذا الاقليم،

(١) وسنرى في الفصول التالية كيف أن بعض مؤرخي العرب ممن تأخر بهم العهد قد أخطأوا هم الآخرون في تحديد المسئول عن هذا الخراب الذي لحق بالبلاد، ولكن لسبب غير الذي قصده المؤرخون الأوربيون في العصر الحديث.

الى جانب سوء الإدارة وفساد الحكم ، والصراع العقائدي المذهبي بين الاريانيين والارثذوكس والوثنيين الذي صاحب هذه الأحداث في شطري البلاد ، وانشغال الامبراطورية البيزنطية بالاحداث الفارسية ، ثم بحروب الشام ومصر ضد العرب . جميعها هي المسئول المباشر عن القضاء على معالم الحضارة الرومانية المنهارة حتى قبل ذلك في سائر انحاء البلاد التي لم تكن يوم زحف اليها جيش الاسلام فاتحاً سوى آثار مدن مهجورة ، وبقايا عمران مندثر ، ولعل أكبر دليل على هذا قلة اسماء المدن والقرى التي ذكرت في أخبار الفتح واهمال ذكر مدن كانت العواصم الكبرى للإقليمين من مثل قورينة ولبتس مانيا مما يدل على أنهما كانتا قد اندثرتا تماماً حين الفتح الاســـلامي .

الفصل الثاني

المجتمع الليبي قبل الفتح

تمهيـــد :

قبل أن تصبح ليبيا بعد الفتح الإسلامي كاملة العروبة ماذا كانت أصلاً ولغة وحضارة ؟... أو بعبارة أخرى : ما هو الوجه الحضاري لليبيا قبل الفتح ؟... أهو روماني ؟... أهو فينيقي في الغرب ، يوناني في الشرق ؟... أم أنه ليبي ليس بهذا ولا بذاك ؟... وقبل أن يدين شعبها بالإسلام ما هي معتقداته ؟... أكان وثنياً ؟... أم مسيحياً ؟... وان كان الأخير ، فأي المذاهب يعتنق من المسيحية ؟... وأي الكنائس يتبع ؟...

هذه الأسئلة التي وضعتها أمامي وأنا أكتب هذا الفصل من التاريخ ، واضح منها أنني إنما أقصد به هو أيضاً التمهيد لتاريخ ليبيا في العهد الإسلامي الذي بدأ بالفتح وصبغ البلاد جميعها بعروبة تأصلت في جميع مظاهر الحياة مع تعاقب الأيام والعصور .

والإحاطة بالوجه الحضاري للبلاد الليبية قبيل الفتح الإسلامي ليس من السهولة بمكان : فمادة البحث نزرة قليلة ، وهي فوق ذلك مبعثرة في شتى المراجع التاريخية والأدبية القديمة ، وهذه في أكثر من لغة بحيث يصعب على

الباحث تجميعها وتنسيقها لدراستها واستخلاص الحقائق منها ، وما ذلك الا لأن من كتب في التاريخ الليبي قبل الآن قد أهمل هذا النوع من الدراسات التاريخية ذات الطابع الإجتماعي .

وقد رأيت مع هذا أن أجازف هنا فأضع ولو مجرد خطوط عامة ، لصورة ستكتمل حتماً مع الأيام ، وتقدم الدراسات الليبية في المستقبل ؛ عملاً بالقاعدة السديدة التي ترى « أن ما لا يدرك كله لا يترك جله » . وارجو من القارىء العربي أن لا يتوقع مني لذلك الكثير في هذا المجال بالذات .

تركيب المجتمع الليبي قبل الإسلام :

والحديث عن المجتمع الليبي قبل الإسلام في تركيبه ، وفي تعدد العناصر المكونة له ليس كالحديث عن تاريخه السياسي بحيث يمكن الإكتفاء منه بفترة معينة من الزمان ، بل لا بد من الذهاب فيه إلى أبعد من ذلك كثيراً ، وعلى الأقل ، إلى بداية العصر التاريخي وذلك للإحاطة بالعناصر الطارئة على أهل البلاد والمنصهرة فيهم مع الزمن في امتداده .

وحتى لا نتحول عن الفكرة الأساسية وهي التمهيد للفتح الإسلامي لهذه البلاد ، فإننا سوف نلجأ هنا أيضاً ، إلى الإيجاز مع التركيز على نقاط معينة تحدد لنا معالم التركيب الاجتماعي لما خالط العرب من سكانه زمن الفتح .

قدماء الليبيين في الآثار المصرية :

والمجتمع الليبي قديم جداً تتحدث عنه الآثـــار المصرية الفرعونية منذ زمن ما قبل الأسرات الفرعونية باعتباره شعباً أجنبياً مخالفاً في السمات والملابح للشعب المصري ذاته ، وتميزه عن غيره من الشعوب التي عرفت في القدم بالألوان والملابس وشارات الزينة وما إلى ذلك وتسميه بعدة اسماء أقدمها وأعمها هو اسم « تحنو » ثم « تماحو » و « ليبو » وغير ذلك ، وأخيراً تتحدث عن « المشواش » . وهؤلاء بالذات قوم طرأوا على ليبيا من الغرب خلال

أواسط الألف الثانية قبل الميلاد ولا يعرف على وجه الدقة من أين ، وان كان المظنون أنهم من نفس الشمال الإفريقي وليس من خارج القارة .

وفي نفس الفترة أو قبلها بقليل تعرضت ليبيا كما تعرض غيرها من بلدان أخرى ، لموجات نازحة من شعوب أوربية عرفت في نقوش الآثار المصرية بشعوب البحر ، وقد اشترك أفرادها في حملة كبرى لغزو مصر في عهود الرعامسة (الاسرتان ١٩ و ٢٠) .

وهذه الشعوب لا يعرف من أمرها الشيء الكثير وليس من الممكن الآن القول بأن نزوحها إلى ليبيا كان نهائياً أو أنها عادت فغادرت البلاد بعد ذلك بزمن .

ومن كل هؤلاء الذين سبق ذكرهم تكون المجتمع الليبي الذي اعتبر العنصر الأساسي لليبيين في التاريخ بغد ذلك الزمن ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لمن جاء بعدهم إليها من الشعوب فهي شعوب معروفة محددة العناصر في التاريخ القديم .

العنصر الفينيقي :

وفي أوائل الألف الأولى قبل الميلاد طرأ على البلاد شعب جديد هو « الشعب الفينيقي » ، وقد استطاع هذا الشعب أن يقيم لنفسه دولة قوية ، واليه تنسب نشأة المدن الأولى في الجانب الغربي من ليبيا . وهذا العنصر الطارىء على أهل البلاد الأصليين موطنه ساحل لبنان أو أرض كنعان على الشواطىء الشرقية من حوض البحر المتوسط . وهو من أصل سامي يختلف بعض الشيء عن العنصر الليبي المنسوب إلى الحامية في عنصره . وقد استمر الفينيقيون يحكمون هذا البلد حتى قضى الرومان على دولتهم في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد . وكانوا خلال هذه الفترة يكونون العنصر الأجنبي الدخيل الطارىء على البلاد ، انصهروا في الليبيين وشاعت تسمية تاريخية بعد ذلك توحي ببدء الإنصهار في العنصر الأصلي هي « الليبوفينيق » .

ومن المعلوم تاريخياً أن الروم قد قضوا على سيطرة ونفوذ القرطاجنيين (الفينيقيين) ولكن هذا الشعب الذي اتخذ من «افريقية» موطناً له وسكنا منذ قرون عديدة لم يغادر الإقليم بعد زوال دولته وانما استمر أفراده وجماعاته يسكنون المدن والقرى والسهول والقفار بعد ذلك كرعايا عاديين للرومان في ليبيا ، ودخلوا بهذا في الليبيين وانصهروا مع الزمن في بوتقة الوطنيين ، ولكن هذا لم يحدث طفرة وإنما استمر وضعهم لمئات السنين بعد ذلك واعتقد شخصياً أنهم الأفارقة الذين تشير إليهم المصادر العربية وتقول عنهم أنهم خدم الروم .

الفينيقيون والبربر :

وهؤلاء الأفارق الذين هم خدم الروم إنما هم سكان المدن أي الحضر دون بقية الفينيقيين الذين يبدو أنهم اندمجوا في البربر إلى حد أنهم جعلوا من أنفسهم أصلاً أولاً للبربر في احدى الروايات التي ترويها كتب التاريخ العربية حول أصل البربر . ونعني بها تلك التي تجعلهم قوم جالوت الذي قاتله داود وتفرقوا من بعده . فالرواية تاريخياً يمكن اعادتها إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد وأرض كنعان التي جاءوا منها غير بعيدة من فلسطين التي تجعلهـا الأسطورة و(سنرجع اليها فيما بعد) موطناً للبربر قبل سكنى الشمال الإفريقي مما يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الاسطورة عن أصل البربر إنما تروي قصة نزوح الفينيقيين الأول الذين اصبحوا بربراً بالانصهار في البربر مع طول الأمد ، وهذا اعتقاد نبنيه أصلاً على عامل التاريخ لحادثة النزوح وعامل تقارب مكان النزوح وعامل الموطن الذي استقر البربر به ، وهذه عوامل ثلاث لا يستهان بها في هذا المجال .

العنصر اليوناني

وفي القرن السابع قبل الميلاد ، حسب المقبول به من مختلف الروايات في هذا الموضوع ، طرأ على الجانب الشرقي من ليبيا شعب آخر هو «الشعب

اليوناني » ، ولقد استطاع هذا الشعب هو الآخر أن يقيم لنفسه دولة في هذا الجزء وأن ينشر حضارته الهلينية ، وإليه تنسب نشأة المدن القديمة في هذا الجانب من البلاد . ولقد استمر حكم اليونانيين لبنتابوليس زهاء ستة قرون ولم ينته وجودهم كشعب ولا ماتت حضارتهم ولا هجرت لغتهم بالسيطرة الرومانية على الإقليم .

واستمر اليونانيون يشكلون غالبية سكان المدن في برقة ، واستمرت اليونانية هي لغة الشعب وحضارته حتى أواخر القرن الخامس على الأقل وربما حتى دخول العرب الفاتحين إلى برقة . وهذا يعني انصهار عنصر اليونان في البربر بالاندماج مع الزمن ، ذلك أننا لا نجد حديثاً عن اليونان في أخبار الفتح الإسلامي في برقة ولكننا نجد اشارات في بعض المصادر العربية تشير إلى بقية منهم لم تنصهر بعد في المجموع [1] . ولكننا لا نجد ذكراً لهؤلاء في المصادر المتأخرة كابن خلدون مما يحملنا على الاعتقاد بأنهم قد انصهروا كلية في سكان البلاد الأصليين كما حدث للفينيقيين في افريقية والجانب الغربي من ليبيا .

العنصر الروماني الغربي :

وفي القرن الثاني قبل الميلاد سيطرت روما على الجانب الغربي من ليبيا ، وامتد نفوذها إلى الجانب الشرقي أيضاً سنة ٩٦ ق . م . فصاحب هذا تدفق عنصر جديد هو ما نسميه تجاوزاً بالعنصر الروماني الغربي والا فهو خليط من الأجناس التي خضعت بلدانها للسيطرة الرومانية آنذاك . ولكنها لم تشكل غالبية سكان المدن كما حدث في السابق بالنسبة للفينيقيين واليونان إلا بعد مدة غير قصيرة من الزمان .

---

(١) مثال ذلك ما نجده عند اليعقوبي في كتابه البلدان : « قوم من مزاتة وغيرهم من العجم القدم » بالرمادة ، وفي برفيق » ... وأهلها قوم من أبناء الروم القدم الذين كانوا أهلها قديماً و...الخ » وعند غيره من مثل ما قدمت أمثلة أخرى .

العنصر اليهودي لم ينصهر في البربر :

وبعد أن خضعت فلسطين للبطالمة فالرومان وربما قبل ذلك أيضاً نقل إلى شرق البلاد وغربها مجموعات من اليهود غير قليلة وتكاثر عددها حتى وجدت من نفسها القدرة على القيام بتلك الثورة المدمرة سنة ١١٥ للميلاد والتي كادت أن تقضي على معالم الحضارة اليونانية في برقة . غير أن هذا العنصر بالذات لم يختلط بالعنصر البربري ولم ينصهر فيه لارتباط عقيدته الدينية بأصله العرقي أبداً ، ويبدو أنه كما هو شأنه في التاريخ يأتي في ركاب الغزاة الجدد وبعد أن يمتص ثروات الشعب يتسرب إلى الخارج مهاجراً قبل أن تدوسه أقدام غزاة آخرين . لهذا فمن المستبعد جداً أن يكون هذا العنصر قد انصهر في السكان الوطنيين كما حدث مع غيره من الشعوب التي سكنت هذه البلاد .

العنصر البيزنطي والعنصر الوندالي :

وبعد أن قسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية تعرض الجانب الشرقي من البلاد للنفوذ البيزنطي وصاحب هذا تدفق عناصر جديدة من البلاد الشرقية (تركيا — البلقان — الروس — الشام) كما تعرض الجانب الغربي من البلاد لتدفق عنصر الوندال الذي استطاع أن يكون لنفسه دولة حكمت البلاد حوالي قرن من الزمان ولما انتهت دولتهم بقضاء بلزاريوس عليهم لم يغادر الونداليون البلاد ، وإنما استمروا بها رعايا لمن يحكمها من الروم مثلهم في هذا كمثل من سبقهم من الشعوب الأخرى حتى تم صهرهم في بوتقة الشعب البربري وكان الوندال آخر العناصر التي ساهمت في تكوين الشعب الليبي قبل الفتح الإسلامي في اواسط القرن السابع للميلاد .

وحدة العنصر البربري وهمية :

ومما تقدم يتضح لنا أنه لا وجود لشعب نقي العنصر اسمه البربر باقليمي

بنتابوليس وتريبوليس أي برقة وطرابلس حينما قدم العرب إليهما وإنماهم كما رأينا خليط عجيب من الناس ابتدأ بالمشواش وانتهى بالوندال ودخل فيه فينيقيون ويونان ورومان من أجناس متعددة . ولذلك كانت وحدة البربر في الأصل وحدة وهمية أسطورية ليس إلاّ وإن قوى منها انصهار الوافد في الأصيل نسباً ولغة وأسلوب حياة قبل الفتح ، وتغلب العنصر العربي بعد الفتح مما جعل السكان القاطنين يتكتلون لحماية أنفسهم ووقايتها من الإنصهار في العرب الوافدين[1] .

التسمية هي الأخرى لا تدل على وحدة الأصل البربري :

وحتى تسميتهم بالبربر إنما هي تسمية لصقت بهم واختصوا بها بعد الفتح الاسلامي للشمال الافريقي وما نتج عنه من اتصال العرب بهم والا فهم « المور » عند بروكوبيوس ، وهم الليبيون قبل العصر الروماني وحتى عند هيرودوت هم كذلك أما كلمة بربر في حد ذاتها فقد ارتبطت في التاريخ بمعنى لغوي فدلت عند اليونان على الذين لا يفقهون هم لغة لهم ولها نفس المدلول تقريباً في العربية ومنها بربرة الأسد أو هي « الاصوات المتجمعة غير المفهومة » كما ارتبطت بمعنى سياسي عند الرومان إلى جانب المعنى الأولى فدلت على الشعوب التي لم تخضع لسلطانهم ، ولذلك نجد شعوب الشمال الإفريقي ، والغوط الغربيين والشرقيين في أوربا جميعهم بربر في نظر الروماني الغربي . وهكذا نجد أن الاسم الذي عرفوا به هو الآخر حادث في التاريخ ولا يدل على وحدة هذه الشعوب التي تكون سكان الشمال الافريقي زمن الفتح العربي ولا يمكن أن يتخذ هذا الاسم دليلاً على وحدة هذه العناصر العرقية كذلك .

وحدة المجتمع البربري قبلية :

ومن مميزات التركيب الاجتماعي للبربر أنهم كالعرب قبائل وبطوناً

---

(١) وهذا الموضوع سنعود إليه في الفصول التالية .

وأفخاذاً تتصل ببعضها بروابط دموية صحيحة أو منتحلة (أسطورية) ولكن مما يستلفت نظر الباحث في تسميات القبائل الليبية خلال عصور التاريخ المتعاقبة أن هذه الأسماء كانت تختلف في المصادر المصرية القديمـــة (النقوش والكتابات) عما هي عليه في المصادر التاريخية الكلاسيكية (اليونانية — الرومانية) وتختلف في هذه عما هي عليه في المصادر العربية مما يتعذر معه اجراء دراسة مقارنة تقوم على التسميات ذاتها .

قبائل البربر قبل الفتح :

وهذه الظاهرة الغريبة لا يمكن تعليلها الا بأن التسميات التي وردت عن المصريين وعن اليونان والرومان وعن العرب أخيراً إنما لانها لم تكن تسجل حين حدوث الاتصال لأول مرة ولكن بعد أن يتم الإتصال الحضاري ويؤثر في اللغة وفي المجتمع فتأتي المسميات لذلك حديثة هي أقرب إلى لغة الحضارة المسيطرة منها إلى لغة الحضارة التي كانت سائدة قبلها في الإقليم .

وقد عنى أوريك بيتس وهو مؤرخ أمريكي في مطلع هذا القرن بدراسة أمر تعاقب أسماء القبائل الليبية القديمة السابقة لعهد الفتح الإسلامي وحاول تحديد مناطق سكناها فكتب فصلاً قيماً في كتابه « الليبيون الشرقيون » جمع فيه مختلف الروايات وحاول القيام بدراسة مقارنة بينها تعتبر أكمل بحث أجري في هذا الموضوع حتى الآن(١) .

ولما كان التعرض هنا لذكر أسماء تلك القبائل البربرية التي ذكرت في المصادر اليونانية — الرومانية — البيزنطية لا يفيدنا كثيراً في التقديم لفترة الفتح الإسلامي وما تلاها من عهود حتى عصرنا الحاضر لانعدام الترابط بين تلك وما ورد عند مؤرخي العرب بعد ذلك من اسماء القبائل البربرية فإننا نكتفي بما قدمناه حوله ، ونحيل الراغب من القراء في تتبع هذا الموضوع على ما كتبه أوريك بيتس في الفصل المشار إليه وعلى المراجع الأخرى المذكورة بهوامشه .

(1) Bates, Oric : — The Eastern Libyans pp. 39-72.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصل البربر في المصادر العربية :

أما أشهر وأقدم الروايات التي قدمها مؤرخو العرب عن أصل بربر الشمال الإفريقي فنجدها عند ابن عبد الحكم ، وفيها يقول : « وكان البربر بفلسطين وكان ملكهم جالوت ، فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية مما يشرب من ماء السماء ولا ينالهما النيل . فتفرقوا هنالك فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال ، وتقدمت لواتة فسكنت أرض انطابلس وهي برقة ، وتفرقت في هذا المغرب وانتشروا فيه حتى بلغوا السوس . ونزلت هوارة مدينة لبدة . ونزلت نفوسة الى مدينة سبرة . وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك »(١) .

ونجد هذه الرواية ، وبنفس النص تقريباً عند عدد آخر من المؤرخين من مثل ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ(٢) ؛ ومن مثل أبي الحسن علي ابن سعيد في كتابه « المغرب في حلى المغرب »(٣) وغيرهما .

ونجد رواية أخرى عند أحمد بن أبي يعقوب بن واضح في تاريخه المشهور بتاريخ اليعقوبي غير هذه تقول : « ... وكانت البربر والأفارقة ، وهم أولاد فارق بن بيصر بن حام بن نوح ، لما ملك إخوتهم بأرض مصر ، فأخذوا من العريش إلى أسوان طولاً ، ومن أيلة إلى برقة عرضاً ، خرجوا نحو المغرب فلما جاوزوا أرض برقة أخذوا البلاد ، فغلب كل قوم منهم على بلد ، حتى انتشروا بأرض المغرب . فأول من ملك منهم لواتة في أرض يقال لها أجدابية(٤) من جبال برقة ، وملكت مزاته في أرض يقال لها ودان ، فنسب

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وافريقية ص ١٧٠ .
(٢) الجزء الثالث ، ص ١٩ .
(٣) ص ٤٤ .
(٤) يقول ياقوت حولها : أجدابية بالفتح ثم السكون ودال مهملة وبعد الألف باء موحدة وياء خفيفة وحاء يجوز أن يكون — ان كان عربياً — جمع جدب ، جمع قلة . ثم نزلوه منزلة المفرد لكونه =

هؤلاء القوم إلى أبيهم ، وجاز قوم منهم إلى بلد يقال له تورغة ، فملكوا هناك ، وهم هواره ، وآخرون إلى بلاد أرميك ، وهم بذرعه . وسار قوم إلى طرابلس يقال لهم المصالين ، وجاز قوم إلى غربي طرابلس يقال لهم وهيلة(١) .

ونجد روايات أخرى كثيرة غير هذه وتلك واختلافات كثيرة حول أصل البربر كتلك التي تنسبهم إلى بر بن قيس بن عيلان ، في قصة طويلة ملخصها أن لمضر بن نزار ولدان هما الياس وعيلان . وقد رزق عيلان بولدين هما قيس ودهمان . وكان لقيس أربعة أبناء من بينهم « بر » هذا . وكان لدهمان بنت جميلة رغب كل من الأربعة الزواج منها فخيرها أبوها بينهم فاختارت براً فحسده إخوته واجمعوا على قتله ففر مع والدته وأهله وسكنوا الشام .....الخ(٢) .

ويقول ابن حزم حول هذه الرواية ومثيلاتها : « قال قوم : انهم من بقايا ولد حام بن نوح — عليه السلام — وادعت طوائف منهم إلى اليمن ، إلى حمير ، وبعضهم إلى بر بن قيس بن عيلان . وهذا باطل ، لا شك فيه . وما علم النسابون لقيس عيلان ابناً اسمه « براً » أصلاً . ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر ، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن(٣)

ويقول ابن خلدون ما يقرب من هذا : « والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح . وان اسم أبيهم

= علماً ، فنسبوا إليه ثم خففوا ياء النسبة لكثرة الاستعمال ، والأظهر أنه عجمي ... وهي من فتوح عمرو بن العاص ، فتحها مع برقة صلحاً على خمسة آلاف دينار واسلم كثير من بربرها ... الخ وكون الاسم « عجمي » وكونها فتحت من قبل عمرو بن العاص يعني أنها سابقة في النشأة على دخول العرب إلى هذه البلاد .

(١) الجزء الأول : ص ١٩٠ .

(٢) روى هذه كل من ابن زرع وابن خلدون والبكري وغيرهم فيما يقولة الناصري السلاوي في الاستقصا لاخبار المغرب الأقصى الجزء الأول .

(٣) ابن حزم : جمهزة انساب العرب ، دار المعارف مصر ١٩٦٢ ص ٤٩٥ .

مازيغ ..... فلا يقعن في وهمك غير هذا فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه »[1]

وغير هذه أقوال كثيرة ، لا داعي لاستعراضها جميعاً لقيامها أصلاً على تلك الروايات الشعبية التي تداولها الناس في ازمنة وأمكنة مختلفة ومصدرها جملة في الغالب نوع من الأساطير القديمة المكيفة التي لا يجد لها الباحث سنداً تاريخياً متيناً يقيمها عليه اليوم . وخاصة بعد أن أحطنا بما ترويه النقوش الهيروغليفية المصرية وشتى كتابات مؤرخي اليونان والرومان عنهم ابتداء من عصر هيرودت وحتى عصر انتشار الإسلام .

واورد ابن حزم في فصل من كتابه جمهرة انساب العرب باسم « وهذه جمهرة من نسب البربر » شجرة نسب عامة لقبائل البربر بدأها بالجد الأعلى لهم جمله وسماه « بر » وبولديه : مادغس وبرنس ثم عدد الأحفاد في شكل قبائل وبطون وافخاذ وصاهر بين الأصلين في بعض القبائل وبين بعض الأفخاذ في تسلسل عجيب[2] . وقد كان ما كتبه الأصل الذي أفاد منه ابن خلدون فيما بعد في تاريخه ، ولكن هذا وما قدمه ابن خلدون ايضاً لا يفيدنا في تكوين فكرة عن سكان ليبيا بالذات في عصر الفتح وما تلاه .

ولما كان حديث المؤرخين العرب عن أصل البربر لا يوفر لنا ما يفيدنا كثيراً في هذا التقديم لما أوضحناه ، فقد رأينا أن نلجأ إلى نوع آخر من الكتابات العربية القديمة يمكنها أن تقدم لنا معلومات أدق عن قبائل البربر وبطونها في ليبيا ، وهي محور الحديث هنا ، وهذه هي كتب الجغرافيا والرحلات التي تذكر اسماء قبائلهم وبطونها وافخاذها وتحدد منازلهم في فترة معينة من الزمان .

---

(١) ابن خلدون : الجزء السادس ويرى بعض المؤرخين في العصر الحديث نوعاً من التشابه بين مازيغ أو مادغس كما عند ابن حزم وبين الـ Maxis الذين يتحدث عنهم هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد فيذهبون إلى اعتبار هؤلاء هم أولئك ،

(٢) ص ٤٩٥ – ٤٩٨ من طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٢ .

وصف اليعقوبي لبربر البلاد الليبية :

ولعل أقرب هذه المصادر إلى زمن الفتح هو كتاب البلدان لليعقوبي (صاحب التاريخ) المتوفي سنة ٢٨٤ ﻫ . ونجد عند هذا حديثاً عن البربر مبعثراً فيما كتب عن المغرب نقدمه لك أيها القارىء بنصه في الفقرات التالية :

بربر برقـــة :

« ... ثم يصير في عمل لوبية ، وهي كورة ....[1] (الى)[2] خربة القوم ، ثم الرمادة وهي أول منازل البربر ، يسكنها قوم من مزاتة .... (الى) جب الرمل ، وهذه ديار البربر من ماصلة بن لواتة .... ثم يصير إلى وادي مخيل .... وفيه أخلاط من الناس وأكثرهم من البربر من ماصلة ، وزنارة ، ومصعوبة ، ومراوة ، وفطيطة . ومن وادي مخيل إلى مدينة برقة ثلاث مراحل في ديار البربر من مراوة ، ومفرطة ، ومصعوبة ، وزكودة ، وغيرهم من بطون لواتة .

.... ولبرقة جبلان : أحدهما يقال له الشرقي .... والآخر يقال له الغربي ، فيه قوم .... وقرى بطون البربر من لواتة من زكودة ، ومفرطة ، وزنارة .... ولبرقة أقاليم كثيرة تسكنها هذه البطون من البربر ، ولها من المدن برنيق .... وأهلها قوم .... وقوم من البربر من تحلالة ، وسوة ، ومسوسة ، ومغاغة ، وواهلة ، وجدانة.......... ومدينة اجدابية .... وأهلها قوم من زنارة ، وواهلة، ومسوسة، وسوة ، وتحلالة ، وغيرهم وجدانة وهم الغالبون عليها .... وهي آخر ديار لواته من المدن » .

---

(١) النقط هنا للاشارة إلى كلام محذوف يتعلق بغير البربر .

(٢) ما وضع بين القوسين ليس من كلام اليعقوبي ، وإنما هو لنا للايضاح والربط .

أقوال لواتة في أصلهم الأول :

« وبطون لواتة يقولون أنهم من ولد لواتة ، بن بر ، بن قيس عيلان ؛ وبعضهم يقول أنهم قوم من لخم كان أولهم من أهل الشام فنقلوا إلى هذه الديار ؛ وبعضهم يقول أنهم من الروم » .

بربر سرت :

« ومن مدينة اجدابية إلى مدينة سرت على ساحل البحر المالح خمس مراحل ، مرحلة (واحدة) منها من ديار لواتة وفيها قوم من مزاتة ، وهم الغالبون عليها .... ومدينة سرت، وأهل هذه المنازل وأهل مدينة سرت من منداسة ومحنحا ، وقنطاس[1] ، وغيرهم . وآخر منازلهم على مرحلتين من مدينة سرت بموضع يقال له تورغه ، وهو آخر حد برقة .

بربر فزان :

ومزاته كلها اباضية .... ومن أعمال برقة المضافة إليها ودان .... وبه قوم مسلمون ، يدعون أنهم عرب من يمن ، واكثرهم من مزاته، وهم الغالبون عليه .... ووراء ذلك بلد زويلة .... واكثرهم زواته ، .... وما يلي زويلة إلى طريق أوجلة وأجدابية قوم يقال لهم لمطة وهم أشبه شيء بالبربر .... وجنس يعرف بفزان اخلاط من الناس ...... »

بربر طرابلس :

« .... وينقطع ديار مزاتة من تورغة ويصير في ديار هوارة .

---

(١) في الأصل « ونطاس » دون اعجام القاف ويرى ناشره Secundà (طبعة بريل ١٨٩٢) أنه ربما قرئت ونطاس بالواو ، ونحتمل نحن انها ربما كانت بالفاء فنطاس ، ذلك أننا نجد بمدينة اجدابية في العصر الحديث بئر ومنطقة الفنطازي فلعل البئر منسوبة أصلا إلى هذه البطن « فنطاس » ونسبة البئر إلى القبيلة في برقة لها مثيل في « الحوتية » نسبة الى قبيلة الحونة والعباريات وغير ذلك والتحريف من السين إلى الزاي ممكن وسهل وبالتالي فهو محتمل في النطق مع كل هذا الفاصل الزمني .

فأول ذلك ورداسة ، ثم لبدة .... وهوارة يزعمون أنهم من البربر القدم ، وأن مزاتة ولواتة كانوا منهم . فانقطعوا عنهم وفارقوا ديارهم ، وصاروا إلى أرض برقة وغيرها . وتزعم هوارة أنهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم . وبطون هوارة يتناسبون كما تتناسب العرب : فمنهم بنو اللهان ، ومليلة ، ورَسْطَفة ، فبطون اللُّهان بنو درمنا ، وبنو مرمزبان ، وبنو وَرْفَلة ، وبنو مَسْراته . ومنازل هوارة من آخر عمل سرت إلى أطرابلس » .

« .... ومن أطرابلس إلى أرض نفوسة .... وديار نفوسة متصلة من حد أطرابلس مما يلي القبلة إلى قريب من القيروان ، ولهم قبائل كثيرة ، وبطون شتى . ومن أطرابلس على الجادة العظمى إلى مدينة يقال لها قابس .... خمس مراحل عامرة يسكنها قوم من البربر من زناتة ولواتة والأفارق الأول .... »[1] .

رأينا في الأخذ بوصف اليعقوبي :

هكذا وضح اليعقوبي منازل البربر في ليبيا وبهذه الأسماء سماهم ، وقد ذكر معهم أقواماً أخرى من العرب والروم اغفلنا ذكرهم هنا لسببين الأول أن حديثنا ينصب على البربر والثاني أن العرب طارئون على البلاد بعد الفتح أما البربر فإننا لا نحتمل حدوث تغيير كبير في توزيعهم الجغرافي خلال الفترة بين الفتح وعهد اليعقوبي ، واذا حدثت زحزحة في المواطن فلا نراها من الخطورة بالدرجة المغيرة للصورة التي قدمها لنا في إطارها العام على الأقل والتي يمكن تلخيصها فيما يلي :

لواته : وتسكن المنطقة الممتدة من الرمادة في الشرق وحتى إلى ما بعد اجدابية بمرحلة واحدة (الفاروج ؟) ومن بطونها من يسكن غرب ليبيا أيضاً .

مزاتة : وتسكن المنطقة التي يحددها فيما بين قصر العطش بمنطقة (اجدابية — سرت) وتمتد منازلها حتى تورغة .

(١) من صفحة ٣٤٢ إلى صفحة ٣٤٧ .

هوارة : وأول أرض هؤلاء منطقة يسميها ورداسة وتمتد منازلهم حتى مدينة طرابلس .

نفوسة : ويجعلهم من خط طرابلس الجنوبي إلى قريب من القيروان (منطقة الجبل الغربي) .

لمطـــة : ويجعل منازلهم فيما وراء مزاته ونفوسة جنوباً وحتى زويلة ولكنه لا يعتبرهم بربراً وان كانوا أشبه الناس بهم في نظره .

فـــزان : ويعتبرهم جنس يتكون من اخلاط من الناس وأغلب الظن أنـــه يضعهم بوادي الشاطي ووادي الآجال حيث هم الآن .

زناتـــة : وقد حدد منازلها إلى الغرب من طرابلس وجعلها تمتد حتى قابس ، وأسكن معهم أناس من لواته .

أما بطون وأفخاذ هذه القبائل التي عددها فكثيرة وقد عين مضارب كل منها في مكان محدد من الإقليم كما سبق من كلامه الذي قدمناه له .

العناصر التي يتكون منها سكان ليبيا حين الفتح :

ولما دخل العرب إلى الشمال الإفريقي وجدوا بقية من الفينيقيين وجماعة من الوندال لم تنصهر في البربر بعد فميزوهما بأن اطلقوا عليهم اسم الأفارقة نسبة إلى إفريقية كما وجدوا من الروم أيضاً جماعات ميزوها بهذا الاسم عن العنصرين الآخرين (البربر والأفارق) وادخلوا فيها اليونان الذين ببرقة أيضاً ربما لأن لغة الدولة البيزنطية كانت هي اللغة اليونانية (في برقة على الأقل) وهكذا عرف العرب يوم مقدمهم فاتحين هذه العناصر الثلاثة :

١ ــ **البربر :** وهم أهل البلاد الأصليين وجميع من اندمج فيهم من الشعوب التي اختلطت بهم وانصهرت فيهم ممن ذكرنا .

٢ ــ **الأفارق :** وهم البقية الباقية من الفينيقيين ومن الوندال التي ظلت محتفظة بكيانها المستقل ومميزاتها الذاتية التي تفصلهم عن البربر وعن

الروم معاً . أو هم من البربر الذين خالطوا الروم ومازجوهم وصاهروهم وكونوا نسلاً مولداً ليس بالرومي الخالص ولا بالبربري الصريح النسب[١] . وإن كان الرأي الأول أجدر بالثقة لما ورد عن بروكوبيوس من حديث عن المور (البربر) الفينيقيين الذين يسكنون سواحل الشطر الغربي من البلاد وفيما بين لبدة وطرابلس[٢] .

٣ ــ الروم : وهم مجموعة الشعوب الأوربية التي يتكون منها العنصر البيزنطي والتي كانت تمثل عنصر الروم الغربيين والبقية الباقية من اليونان الذين استوطنوا برقة منذ قرون .

ولا تحدثنا المصادر التاريخية الراجعة إلى العهد الاسلامي الأول بأخبارها عن الكيفية التي عامل بها المسلمون الفاتحون هذه العناصر الثلاثة التي احتكوا بها حين الفتح في ليبيا (برقة وطرابلس) . ولكن يبدو من مجمل ما كتب في هذا الموضوع بصفة عامة أن الفاتحين كانوا يميزون بين الوطني الأصيل والحاكم الدخيل في المعاملة[٣] ، ويعتبرون أهل البلاد الأصليين محور سياستهم في الأقاليم التي افتتحوها : فهم في برقة قد صالحوا أهل انطابلس وحرصوا على العهد الذي قطعوه على أنفسهم لأهلها . وهم في مصر صالحوا القبط وحرصوا على أن تكون لهم الشخصية الوطنية البارزة بها في نفس الوقت الذي خيروا الروم بين البقاء أهل ذمة ، لهم ما للقبط وعليهم ما على هؤلاء وبين الخروج من البلاد آمنين حتى يغادروها[٤] . وفعلوا

(١) محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب العربي الأول ص ١٩/ ٢٠ .
(2) Procopio : — Gli. Edifizii Lib. vi Càp. iii.
(٣) راجع في هذا الموضوع ما كتب من اخبار الفتح في الشام والعراق وليبيا والمغرب في كتب التاريخ .
(٤) الطبري ١/ ٥/ ٢٥٨٨ . شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ١٢٦-١٢٧ .

مثل ذلك مع أهل إلياء[1] . ومعى هذا أن الروم البيزنطيين قد عوملوا معاملة الخصوم ولكن في عدل بينما عومل أهل البلاد ذاتها معاملة ابن البلد الجدير بالرعاية والعناية والاهتمام . ومن الطبيعي أن البربر والأفارق يمثلون فئة أهل البلاد الأصليين في نظر الفاتحين دون الروم خصومهم في تلك الحروب .

* * *

المعتقدات الليبية قبل الإسلام (الوثنيات) :

ويسود الاعتقاد بين مؤرخي العصر الحديث أن بربر الشمال الإفريقي قد تحولوا عن الوثنية القديمة إلى المسيحية بتأثير السلطة الرومانية التي حكمت البلاد لعدة قرون بشر فيها المسيح بالإنجيل وانتشرت المسيحية وأصبحت هي الديانة الرسمية للدولة خلالها .غير أن هذا لا يمكن التسليم به دون تحفظ ، فإن انتشار المسيحية بين البربر كان محدوداً بما بلغه النفوذ الروماني من امتداد لهم نحو الجنوب بعد القرن الثالث للميلاد . بل وحتى في داخل المناطق التي خضعت لهم استمرت الوثنية قائمة وطقوسها تمارس على الأقل في مناطق الجنوب . وقد عبد الليبيون عدة معبودات محلية وفينيقية ويونانية ومصرية عشرات القرون ومن ابرز هذه المعبودات تانيت وعشترت وبعل وأشمون في الغرب وأزوريس وحور وأمون في الشرق إلى جانب عشرات الآلهة اليونانية — الرومانية في الشطرين معاً .

ولم يتخل الليبيون عن هذه المعتقدات بانتشار المسيحية فيما يبدو فان بروكوبيوس يحدثنا في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد (قبل مائة سنة فقط من فتح برقة) عن قيام حكومة جستنيان بتنصير سكان واحتي أوجلة[2] وكانوا قبل ذلك يعبدون عدة معبودات وثنية منها أمون والاسكندر

(١) الطبري ١/٥/٢٤٠٥ . شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية ص ٦٢ .
(٢) يقول بروكوبيوس انها واحتان تسمى كلتا منهما باسم أوجلة . ولعلها جالو وأوجله التي يتحدث عنها بعض جغرافي العرب القدماء من أمثال اليعقوبي في البلدان .

(ابنه) وكانت واحتهم تعج بخدام المعابد من الكهان ، وفعل مثل ذلك بالمور (البربر) الذين يسكنون حول خليج سرت وتنتشر منازلهم إلى قرب طرابلس وبني عدة كنائس لأم المسيح (مريم العذراء)[١] .

وأغلب الظن أن الليبيين من البربر قد لجأوا إلى الجنوب بمعتقداتهم الوثنية في عهد جستنيان تاركين المناطق الشمالية من بلادهم والمعرضة لعسف النفوذ الروماني المباشر ، ولسيطرة الكنيسة الرومانية المتعصبة آنذاك في إسراف[٢] .

ونعتقد نحن أن الوثنية البربرية كانت مزيجاً غريباً من المعتقدات الليبية القديمة والمصرية واليونانية والفينيقية وربما الفارسية كذلك انصهرت جميعها في بوتقة الزمن ، واتخذت اشكالاً واوضاعاً وطقوساً محلية فيها من كل تلك المعتقدات بعض ملامح ولكنها مع ذلك متميزة عن جميعها . واذا كنا لا نعلم من أمر هذه الطقوس وتلك المعبودات الشيء الكثير في عصرنا الحاضر فلأن العلماء لم يعنوا بعد بدراسة المعتقدات الوثنية للبربر في الشمال الإفريقي دراسة عميقة حتى الآن .

اليهــــودية :

ومن أحداث تاريخ البلاد في العصور التاريخية السابقة للفتح الإسلامي أنه كان للديانة اليهودية امتداد إلى بلدان الشمال الأفريقي ، حيث كانت لليهود معابد في ليبيا ظل بعضها قائماً وعامراً حتى زمن جستنيان على الأقل اذ يذكر بروكوبيوس في كتابه عن أعمال جستنيان العمرانية المعروف بالعمائر ، تلك الكنيسة القديمة التي لليهود بمنطقة بوريون والتي تعيدها الأسطورة في زمنه إلى زمن نبي الله سليمان ، وهو يذكر هذا اثناء تعرضه لموضوع فرض جستنيان النصرانية على اليهود هنا أيضاً وكما فعل مع الوثنيين .

(١) كتاب العمائر السادس الفصل الثاني فالثالث منه .
(٢) ولعل هذا يفسر لنا اتجاه الفتح الإسلامي في البداية نحو الجنوب حيث البربر بوثنياتهم وجموعهم على ما سيأتي .

ولعل في ثورة اليهود ببرقة سنة ١١٥ للميلاد ، تلك الثورة العنيفة المدمرة التي قوضت عمران البلاد ، وجاوز عدد ضحاياها المائتي ألف نسمة من السكان دليلاً آخر على انتشار اليهودية وكثرة اليهود بليبيا خلال العصر الروماني .

ومع أن الرومان قد طاردوا العنصر اليهودي في سائر الأقاليم لعدم ولاء هؤلاء للدولة الرومانية المسيحية المتعصبة ، وتآمرهم عليها باستمرار وتعاونهم مع أعدائها من الفرس والوندال وسواهم وبالرغم من أن الكنيسة المسيحية قد طاردتهم باستمرار ، وحاولت ارغامهم على اعتناق المسيحية بشتى الضغوط في جميع الأقاليم فإن اليهود – فيما يظن – لم يتخلوا عن اليهودية عقيدة ، وليس من المستبعد أنهم قد لجأوا في ليبيا إلى معاشرة الوثنيين جنوب البلاد حيث لا تنال منهم السلطة الرومانية ولا الكنيسة المسيحية . ويقول الاستاذ مبارك بن محمد الهلالي الميلي في « تاريخ الجزائر القديم والحديث » عن اليهود والمسيحية : « ... تحت هذا الاستبداد الكنسي دخل بعض الموسويين (نسبة إلى موسى عليه السلام) في المسيحية لمجرد منافع مادية .... ولكن مدة ارتدادهم لم تطل حيث أن السلطة الرومية أدركها الضعف قريباً . فعادوا إلى دينهم الذي دخل فيه بعض القبائل البربرية أيضاً .... »[1] ونعتقد نحن أن دخول البربر في اليهودية إن حدث ففي فترة فرار اليهود إلى المناطق البربرية التي لا يصل إليها النفوذ الروماني ، كما أننا لا نعتقد أن الديانة اليهودية قد انتشرت بين البربر انتشاراً واسعاً في أي وقت من الأوقات .

المسيحية وانتشارها في ليبيا :

وأما المسيحية في ليبيا فقد وجدت منذ البداية في برقة ويظهر أن أخبارها قد وصلت قورينة منذ عهد المسيح وكان سمعان القوريني[2] الذي

---

(١) الجزء الأول ص ٢٧٥ و ٢٧٦ .

(٢) هكذا في الترجمات الايطالية والانجليزية للتوراة ، أما في الترجمة العربية له فهو سمعان القيرواني وهذا خطأ إذ أن القيروان لم تؤسس إلا بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ ، وهو خطأ وقعت فيه بعض كتب التاريخ العربية كذلك على ما سيأتي في المكان المناسب من التاريخ .

حمل الصليب عن المسيح أحد ابناء برقة اليهود [١]، وفي أعمال الرسل ذكر لعدد من القورينيين الآخرين [٢] وحتى مرقس نفسه صاحب الإنجيل فإنه ينسب إلى برقة [٣]، ويقال بأنه أقام بالبلاد فيما بين سنتي ٤٠ و ٦١ للميلاد يبشر بالدين الجديد، وأنه الذي أسس أول كنيسة ببرقة قبل أن ينشىء كنيسة الإسكندرية [٤] ويقول آخرون أن أول أسقف لبرقة كان لوقيوس القوريني الذي ورد ذكره بأعمال الرسل [٥] بينما يرى آخرون أنه سمعان الكنعاني [٦]. وهناك عدة أخبار أخرى تؤكد صلة برقة بالمسيحية منذ بداية إنتشارها أما في الغرب (طرابلس) فقد تأخر ورود روايات تاريخية تشير إلى انتشار المسيحية بها، حتى أواخر القرن الثاني للميلاد [٧]، ويكاد مؤرخو الكنيسة يجمعون على أن المسيحية قد تسربت إلى طرابلس وافريقية من الشرق. وكان أريوس صاحب المذهب الأرياني الذي اعتنقه الوندال ابن طلميثة احدى مدنها الخمس، وكنائس المسيحيين في سائر انحاء ليبيا هي ابرز ما كشفت عنه الحفريات في العصر الحديث.

ارتباط طرابلس بروما وبرقة بالاسكندرية:

ومع أننا لا نؤرخ هنا للمسيحية إلا أننا لا نجد مفراً من الإشارة إلى أن المسيحية في برقة قد اتخذت منذ البداية وحتى آخر العهد الروماني وجهة غير الوجهة التي اتخذتها المسيحية في طرابلس فقد ارتبطت منذ البداية بكنيسة الإسكندرية وعاشت خضم الصراع العقائدي الذي دار في الشرق المسيحي

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد: انجيل متى ٣٢/٢٧، انجيل لوقا ٢٦/٢٣، انجيل مرقس ٢١/١٥، أما انجيل يوحنا ١٩ فلم يشر إلى سمعان هذا.

(٢) أعمال الرسل: ١٠/٢، ١/١٣، ٩/٦.

(3) P. Fraan. Rovere : — La Missione Francescana in Cirenaica. p. 15.

(4) P. Fr. Rovere : — OP. CIT. p. 15-16.

(٥) أعمال الرسل: ١/١٣.

(6) P. Fr. Rovere : — OP. CIT. p. 15.

(7) Merighi An. : — La Tripolitania Antica Vol. ii p. 242-43.

بينما ارتبطت المسيحية في طرابلس بكنيسة روما وعاشت خضم الصراع العقائدي الذي ساد تاريخ المسيحية في الغرب المسيحي . ولعل المرة الوحيدة التي ارتبطت فيها طرابلس ببرقة هي تلك الفترة التي خضعت فيها طرابلس للبيزنطيين بعد القضاء على الوندال .

الإنجيل لم يترجم إلى البربرية :

ولم يعرف تاريخ الكنيسة ترجمة فينيقية أو بربرية للكتاب المقدس كما حدث في المشرق حيث ترجم إلى القبطية وإلى السريانية وإلى الأرمنية وإنما ظل باستمرار يتلى في طرابلس وافريقية في ترجمته اللاتينية كما كان في برقة يتلى في لغته اليونانية ، ولهذا فقد اعتبرت المسيحية طوال العهد الروماني — الوندالي — البيزنطي ديانة لاتينية لا تتعدى دائرة نفوذ الثقافة اللاتينية في طرابلس ، ولهذا يعيد مؤرخو الكنيسة سرعة اندثار المسيحية في هذا الإقليم وفي سائر الشمال الإفريقي بعد انتشار الإسلام[1] . ولكن في برقة حيث تتزاحم الثقافة الهلينية بالقبطية فإن المسيحية لم تنته بنفس السرعة اذ يحدثنا البكري في القرن الحادي عشر عن أهل بلدة اجدابية أن بينهم أقباط — (مسيحيون)[2] . ولا نريد أن نناقش هذا الأمر الآن لأننا سنفعل ذلك في فصل آخر من هذا الكتاب ، ولذلك نكتفي بالقول أن هذا غير الحقيقة إذ أن بربر طرابلس كبربر برقة لم يعتنقوا المسيحية ، واعتبروها أبداً ديانة الحاكم الذي يخاصمونه ويناصبونه العداء ، ولذلك لم يترجم الكتاب المقدس ولم يعتنق البربر المسيحية إلا في نطاق ضيق جداً وإن تعرضوا لمطاردة الأساقفة المتعصبين في كل من برقة وطرابلس حيثما امتد النفوذ السياسي العسكري للرومان باعتبارهم وثنيين ملاحدة . وعبارة البكري هي الأخرى يمكن تفسيرها على أن هؤلاء الأقباط كانوا جالية مصرية وليسوا من أهل البلاد

---

(1) L. Duchesne : — Storia Della Chiesa Antica vol. I p. 215-16.

(٢) البكري : المسالك والممالك . ص ٥ وعبارته « واهلها ذوو يسار أكثرهم أقباط » .

وتفسر عبارته التالية ذلك فهو يقول فيها « وبها عدد من صرحاء لواته » . فما معنى هذا اذا لم يكن القبط من غير لواتة أهل برقة آنذاك ؟

وقد عاشت ليبيا الصراع الديني بين المسيحيين المعتنقين لشتى المذاهب ، واكتوت بفتن السياسة الدينية التي سادت العالم الروماني طوال القرون الثلاثة التي سبقت انتشار الإسلام . واعتنق بعض البربر الدين المسيحي وتمذهبوا بشتى مذاهبه وتحزبوا لفرقه المختلفة وعاشت بينهم النسطورية واليعقوبية (القبطية) والدوناتية والاريانية والمانية وغيرها من مذاهب المسيحية الأولى ، وظلت بعض الاسر الليبية تعتنق الدين المسيحي حتى بعد الفتح[1] ، وان أسلم معظم البربر بعد أن خضعت بلادهم للاسلام . وسترد الإشارة إلى الأماكن التي ظلت المسيحية منتشرة بها لفترة من الزمان اثناء سردنا لتاريخ العهد العربي الإسلامي في ليبيا .

* * *

اللغات السائدة في ليبيا قبل الفتح الإسلامي :

وقد كانت هناك لسكان ليبيا من البربر لغة يتخاطبون بها فيما بينهم حتى قبل أن تنتشر لغات أخرى ولا شك ، وقد استمرت هذه اللغة بالتأكيد حتى مجيء العرب المسلمين إلى هذه البلاد ، ومعنى هذا أنه كانت في ليبيا أكثر من لغة واحدة يتخاطب بها السكان :

اولاً : **اللغة اليونانية** ، وهي المسيطرة على مجتمعات المدن والقرى التي استمرت فيها سيطرة الحضارة والثقافة اليونانية التي لم تقض عليها السيطرة الرومانية أبداً ثم أعادتها إلى الحياة سيطرة البيزنطيين على برقة أولاً ثم على سائر ليبيا بعد طرد الوندال .

(١) من المعروف أن برقة قد صولحت ، ومعنى هذا أن بعض الأسر قد احتفظت فيها بالدين المسيحي ولا نعلم الى متى ظلت على ذلك المعتقد تحت راية الاسلام كأهل ذمة .

ثانياً : **اللغة الفينيقية** ، وهي المسيطرة على مجتمعات المدن والقرى التي خضعت طويلاً لنفوذ قرطاجنة ، وقد تحولت هذه اللغة إلى « الفينيقية الحديثة Newpunic » واستمرت حية متدلوالة إلى جانب الرومانية اللاتينية في عهد خضوع البلاد لسيطرة الرومان الغربيين في إقليم طرابلس دون برقة .

ثالثاً : **اللغة اللاتينية** ، وهذه قد اقتصرت على طبقة السادة من الرومان وكانت لغة الحكم والدواوين على ما يبدو ولم ينتشر استخدامها بين عامة السكان ، الذين ظلوا يتخاطبون باليونانية في برقة وبالفينيقية في طرابلس .

رابعاً : **لغة أو لغات أهل البلاد نفسها** ، وقد استمرت هذه إلى جانب الثلاث الأخرى طوال التاريخ ليس داخل المدن والقرى حيث الفينيقيون واليونان والرومان فحسب ، بل وفي بقية اجزاء البلاد : ريفه وجباله ووهاده وصحراؤه وواحاته حيث لم يمتد النفوذ الثقافي الحضاري لتلك الشعوب .

صمت المصادر العربية عن الإشارة إليها :

وعلى الرغم من هذا فإن كتب التاريخ العربية لا تساعدنا في هذا الأمر كثيراً ، فقول البكري ، على سبيل المثال ، عن أهل سرت بالذات أن : « لهم كلام يتراطنون به ، ليس بعربي ، ولا بعجمي، ولا بربري ، ولا قبطي ولا يعرفه غيرهم »(١) حديث مبهم في حد ذاته لا يخل من غموض اذ ما عساه أن يكون هذا الحديث ، وما هي خصائص هذا الكلام الذي يراطنون به ، وما الذي يمكن أن تقدمه لنا هذه الرواية فوق أن لأهل سرت لغة خاصة بهم ليست بواحدة مما عدده البكري(٢) ؟ لا شيء أكثر من هذا،

(١) البكري : المسالك والممالك ص ٦ .

(٢) وقد حاول الزاوي في تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٢٦ أن يجد لذلك تفسيراً فقال : « وقد=

وهو لا يساعدنا في هذا الذي نبحث فيه .

عدم صراحة المؤرخين من الإفرنج حول موضوع اللغة :

وكتب التاريخ الافرنجية القديمة هي الأخرى لا تقدم لنا كثيراً ، فهي تقتصر في الحديث على لغة الوافدين من يونان وفينيق ورومان[1] ؛ والحديثة منها تجنح إلى التعميم وكأن أهل البلاد الأصليين قد كانوا بلا لغة حتى جاءهم اليونان والفينيقيون ، ثم صارت لغة الحاكم لبلادهم لغة لهم . ويستشف من هذا تلك الدراسات اللغوية المحضة التي عني بها بعض الباحثين من أمثال بجوينوت Beguinot الإيطالي وشابوت Chabot الفرنسي ، والمتعلقة باللغة البربرية في الشمال الإفريقي .

صمت الآثار الكلاسيكية :

وحتى الآثار التي كشف عنها في ليبيا لم تمد لنا يد المعونة في هذا الميدان ، إذ لم يهتد الباحثون حتى الآن إلى نصوص مدونة بغير الفينيقية والرومانية في طرابلس وبغير اليونانية والرومانية في برقة .

لغات البربر الحية :

ولما تقدم فليس أمامنا غير الوضع في زماننا هذا نستقرئه علنا نصل منه إلى وميض من ضوء نكشف به عن بعض ما نبحث فيه .

ونجد في ليبيا الآن إلى جانب العربية التي يتكلمها جميع الشعب ثلاث لغات مستقلة عن بعضها وعن العربية إلى حد ما هي :

اللغة البربرية : أو ما اصطلح على تسميتها بهذا الاسم ، وهي لغة العامة في

= تكون هذه اللهجة سودانية سرت إليهم من السودان لكثرة الإتصال بهم بسبب التجارة . » وهو تعليل نستبعده .

(١) من ذلك على سبيل المثال ما قاله المؤرخ هيرودوت حول كلمة باتوس حينما كان يقدم اسطورة النزوح اليوناني من أنها كلمة ليبية تعني « ملك » .

واحتي سيوة وأوجلة في الشرق ، وفي زواره وأكثر الجبل الغربي (نفوسة) في الغرب من ليبيا .

لغة التوارق : أو الطوارق ولا يتحدث بها سواهم ، وهم يقطنون الجانب الجنوبي الغربي من فزان . وتعرف لغتهم باسم لغة « التيفينـــاغ Tifinagh » ولهذه اللغة أحرف كتابة قديمة العهد يطلق على القديم من نصوصها اسم « الكتابة الليبية القديمة » .

لغة التبو : ويتحدث بها سكان منطقة تيبستي الذين يسكنون المناطق الجتوبية الشرقية من ليبيا وكانت لهم واحات تازربو والكفرة وربيانة وبزيمة وغيرهما مما يعرف بمجموعة واحات الكفرة . وأغلب الظن أن هذه الثلاث هي التي كانت سائدة بين البربر الذين اتصل بهم جند الفاتحين في عهد عمر بن الخطاب ، وهذا الظن إنما أقيمه على بضعة ملاحظات شخصية لي أقدمها فيما يلي باختصار :

مقارنة بين البربرية واللهجات الشعبية :

حاولت حصر الأصوات التي تتكون منها لغة أوجلة (ولم يتيسر لي في سواها غير القايل) ، فتبين لي أن هذه اللغة تشتمل على ستة وعشرين صوتاً عدا حركات الرفع والنصب والكسر هي ما يقابل الأحرف التالية في اللغة العربية وفي اللغات الأوربية الحديثة : أ ، ب ، ت ، ج ، ح ، خ ، د ، ر ، ز ، س ، ش ، ط ، غ ، ف ، ق ، ك ، ل ، م ، ن ، هـ ، و ، ى . ثم V ، P ، GH ، Z̲ . وهذا الأخير لصوت ليس في العربية ولا في الإفرنجية الحديثة ما يقابله ؛ وهو نفس حرف « الظاء » في نطق القاهري حين يقسم : « والله العظيم » وحرف « الضاد » في نطق ابن مصراته باسم «رمضان» . أي أنه صوت مفخم للزاي ولكنه خلافه .

وقد لاحظت أيضاً أن أهل هذه الواحة (أوجلة) لا ينطقون حروف الثاء والذال ، والضاد . أما حرفي العين والصاد فلا وجود لهما إلا في تلك الكلمات

المشتقة من أصل عربي . وهم حينما يتحدثون باللغة العربية أو باللهجة الدارجة العربية ويضطرون إلى نطق كلمات تتخللها هذه الأحرف يقلبون الثاء تاء والذال دالا مهملة ، أما الضاد فينطقونه ظاء بصعوبة أو يقبلونهما معاً دالا مهملة .

ولعله مما تجدر ملاحظته أن هناك صلة لغوية قديمة بين أهل مصراته وابناء القاهرة (المصريين) وأهل هذه الواحة يمكننا تلمسها في الآتي من الأمور :

القاهري يقلب الثاء طاء أو سيناً كما في ثور وفي ثانية ينطقهما طور وسانية ، أما ابن مصراته ومعظم سكان طرابلس فلا ينطقونها الا تاء اللهم إلا إذا كانوا يقرأون أو يتحدثون بالعربية الفصحى ولذلك فهما عنده تور وتانية .

القاهري يقلب الذال المعجمة دالا مهملة فالذئب ينطقه ديب وقد يقلبها زاياً كما في ذنب وينطقها زنب وأما ابن مصراته وعامة أهل طرابلس فينقطها دنب لأنه لا يقلب الذال زاياً في لهجته الدارجة .

وأما في الضاد وفي الظاء فنطقهما بين القاهري وبين ابن مصراته معكوس تماماً ، فالظاء المعجمة عند القاهري هي ذلك الحرف الغريب الذي قلنا بأنه زاي مفخمة كما في نطقه عظيم وظالم وما شابههما ، أما ابن مصراته فهو ينطق الضاد وكأنه ذلك الحرف الغريب الذي قلنا بأنه زاي مفخمة وذلك في رمضان وضوء وما شابههما .

أما حرف الـGH فإن أهل برقة وطرابلس معاً يجعلونه بدلاً من القاف ويجعله القاهري بدلاً من الجيم فكلمة « فقر » مثلاً ينطقها الليبي كما ينطق القاهري كلمة « فجر » أما القاف فإن القاهري ينطقها همزة فيقول في قمر مثلاً أمرْ .

وأما حرف (V) وحرف (P) فلا نعثر عليهما في أي من اللهجات المحلية لأهل مصر أو أهل ليبيا ، وربما ذلك لأنهما أعجميان بينما جميع هذه

اللهجات عربية الأصل . هذا من ناحية ومن أخرى فإن حرف الـ (V) تغني عنه الفاء العربية وحرف الـ (P) تغني عنه الباء العربية .

والنتيجـــة :

وهذه الملاحظات جميعها إنما تقودنا إلى الاستنتاج التالي ، وهو أن بربر البلاد الليبية حينما أخذوا باللغة العربية نطقوها في حدود ما يمكنهم لسانهم من نطقها ، وادى هذا إلى عمليات القلب في الأحرف العربية لما يقرب منها صوتاً وهجروا الحرفين الأعجميين لعدم الحاجة إليهما . كما تعني أن الذي يتكلم البربرية التي بأوجلة وسيوة وزوارة والجبل الغربي الذي عرف بجبل نفوسة إنما هم أهل الشمال بينما يتكلم جنوب غرب ليبيا لغة « التيفناغ » أو « التارقية » ويتكلم جنوب شرق ليبيا لغة التبو أي « التباويّة » .

الكتابة الليبية القديمـــة :

وقد عثر الباحثون على عدة نصوص كتبت في لغة قديمة وبحروف خاصة في سائر الشمال الإفريقي عدا مصر لم تفك رموزها بعد على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلت في هذا السبيل . وقد قدم مجموعة كبرى منها تجاوزت الألف نص باحث فرنسي في نشرة صدرت عن حكومة ولاية الجزائر في سنة ١٩٤٠ و ١٩٤١ م . ويعد هذا أشمل بحث في هذا الموضوع [١]

وجدير بالملاحظة أن غالبية هذه الأحرف الليبية القديمة نعثر عليها في شكل علامة الملكية الخاصة لقبائل برقة ومنطقة سرت على الأقل وتعرف محلياً « بالسيمة » للقبيلة و « بالعزيلة » للبطن أو الفخذ منها . ولا نعرف لهذا تعليلاً إلا أن تكون علامة ملكية القبيلة جزءاً من اسم قديم لها كانت تتسمى به ثم تغير الاسم أو تطور وبقيت العلامة متوارثة بين الأحفاد عن الأجداد ، غير أن

(1) J. B. Chabot : — Recueil des inscriptions Libyques. Paris, Impr. Nation. 1940-41.

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) [illegible]

(٦) [illegible]

(٧) [illegible]

(٨) [illegible]

(٩) [illegible]

(١٠) [illegible]

(١١) [illegible]

— نص دقة الثامن في مجموعة شابو الكاملة —

هذا يحتاج إلى بحث ليس هذا مكانه ولسنا نحن من رجاله على أية حال .

ويحتمل بعض الباحثين في لغة التوارق خاصة والبربرية عامة أن هذه الكتابة قد استمرت يدون بها حتى القرون الأولى للميلاد وربما حتى زمن الفتح غير أن هذا الاحتمال الأخير مستبعد لعدم إشارة أي مؤرخ عربي قديم إلى أن للبربر كتابة خاصة بهم ، ولعدم العثور على نص واحد منها تصاحبه كتابة عربية ، في الوقت الذي عثر على بضعة نصوص منها صاحبتها كتابة بالفينيقية الحديثة وباللاتينية أيضاً .

ولاعطاء القارىء العربي فكرة عن شكل حروف هذه الكتابة قدمنا في الصفحة السابقة أحد نصوصها .

خلاصة الحديث في الفصلين :

ومما تقدم جميعه يمكننا أن نتصور الوضع الإجتماعي الديني الذي كانت عليه ليبيا قبل الإسلام : بربر هم في الواقع خليط عجيب من شعوب وحضارات تنتشر بينهم عدة لغات وليست بينهم وحدة عقائدية شاملة وانما هناك معبودات وثنية ويهودية ومسيحية متعددة المذاهب تتنافر وتتصارع فيما بينها ويكفر أحدها الآخر ، وإلى جانب هذا دولة مستبدة غاشمة سيئة الإدارة والتدبير وقبائل ثائرة أبداً على حاكميها في إطار من الإقتصاد منهار وعمران مندثر لم يبق من معالمه غير الأطلال وبقايا مدن لا تجتذب من حولها من السكان . كان الوضع في ليبيا باختصار يبحث عن منقذ وكان عمرو بن العاص وجيشه والدعوة الجديدة التي يحملونها ويبشرون بها هي المنقذ فتقبلها الناس ، ولم يقاوموها كما قاوموا الدعوات السابقة وذلك للأسباب السابقة جميعها ولميزات تكمن فيها وتكون تعاليمها المميزة لها عن سائر الدعوات .

القسم الأول

عهد عمر بن الخطاب

(السنتان ٢٢ و٢٣هـ)

الفصل الثالث

فتح الإسلام لبرقة

الحاجة إلى معتقد جديد ينقذ البشرية :

تميزت القرون الثلاثة التي سبقت بزوغ فجر الاسلام ، وهي القرن الرابع ، والقرن الخامس ، والقرن السادس للميلاد ، في التاريخ الروماني عما سبقها وتلاها من زمان ، بأنها كانت عهد انحلال خلقي وتدهور سياسي لما سادها من اضطراب وفوضى وقسوة وعنف وحشي كان المصدر الأول والأخير لكل هذا ذلك التعصب الديني الأعمى للمعتقد المذهبي بين الطوائف المسيحية العديدة التي تحولت بتدخل الأباطرة فيها بنفوذهم السياسي واستغلالهم للدين كأقوى المؤثرات السياسية في المجتمع إلى أتون مشتعل تؤججه الكنائس المختلفة فيما بينها ووقوده الناس من كل الطوائف المسيحية ومن الوثنيين ومن اليهود ومن المجوس . مما جعل عامة الشعوب تعيش جواً دائماً من الفتن والصراع الدموي وتحيا في إطار من القلق النفسي متطلعة إلى حركة إصلاح منقذة تبدل خوفها أمناً وقلقها راحة وسلاماً ، وكانت هذه هي الإسلام ، وكان محمد صلوات الله وسلامه عليه رحمة للعالمين : « وما ارسلناك

إلا رحمة للعالمين[1] » ، « وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[2]

وانبثقت الدعوة المحمدية من غار حراء بأم القرى في نفس السنة التي قام فيها هرقل بمغامرته الكبرى من بنتابوليس للوصول إلى العرش الامبراطوري فكان وصول هرقل إلى العرش إيذاناً ببداية النهاية للامبراطورية الشرقية التي اخضعت العالم لسلطانها فترة من الزمن . وكان انبلاج فجر الدعوة الإسلامية بداية لعهد جديد تحررت فيه أقاليم الشام والعراق ومصر وسائر الشمال الإفريقي من الاضطهاد السياسي الديني لدولة الرومان ،

وما أن عم نور الإسلام الجزيرة العربية والعراق والشام وفلسطين حتى امتد إلى مصر لينطلق منها إلى برقة وطرابلس وبقية الشمال الإفريقي مع مطلع العام الثاني والعشرين للهجرة المحمدية حسب أوثق الروايات على ما سيأتي بإذن الله .

وقد قدم المؤرخون عدة تعليلات لتبرير زحف الجيش الإسلامي على تلك الأقاليم التي افتتحت ، ومن بينها برقة وطرابلس . ولا يهمنا هنا مناقشة تلك التعليلات التاريخية المتعلقة بالأقاليم الأخرى التي لا نؤرخ لها ولذلك سنقتصر على مناقشة ما قيل من تعليلات وتبرير لمسير عمرو بن العاص إلى برقة فإلى طرابلس وغيرها من سائر الأقاليم التي افتتحت حتى لا نخرج بالحديث عما التزمناه من قصر التأليف على تاريخ ليبيا وحدها من بين أقاليم العالم العربي.

عمرو بن العاص لم يقم بفتح برقة دون استشارة الخلافة في ذلك :

وحول مبررات مواصلة عمرو بن العاص لعملية الفتح إلى الغرب من مصر افتراضات وتفسيرات من قبل المؤرخين قديماً وحديثاً ذهبت مذاهب شتى في

---

(١) سورة الانبياء/ الآية ١٠٧ .
(٢) سورة النحل/ الآية ٦٤ .

البحث عن الدافع الذي دفع عمرو بن العاص الى ذلك ، فمن قائل أن عمرو ابن العاص كان بطبيعته ميالاً إلى مواصلة الفتح والغزو ، لا يكاد يفرغ من إقليم حتى يسرع في إعداد العدة لفتح ما يليه(١) ومثل هذا القول لا يليق بعمرو ابن العاص ولا يمكن أن ينطبق عليه بصفته قائداً من ابرز قواد الإسلام الذين نشروا رايته الخفاقة إذ نجعل منه مجرد مغامر جريء مقدام لا غاية له ولا هدف كلما انتهى من حرب سوى الانغماس في حرب جديدة .

والغريب أن يذهب صاحب هذا القول إلى ابعد من ذلك فيزعم أن جند عمرو يميلون (هم أيضاً) هذا الميل اذ كان الفراغ من فتح مصر معناه وقوف حركة الغزو وانقطاع الغنم بعد معاهدة الإسكندرية ، فلم يجد هؤلاء الجند منفرجاً لنشاطهم الذي اتصل من جزيرة العرب حتى الإسكندرية ، الا في القيام بغارات قصيرة يصيبون فيها من أهل الواحات وسكان الصحراء ما يقدرون عليه ، ثم يعودون إلى مصر(٢) .

إن تعليل اندفاع المسلمين نحو الفتح في حماس بالرغبة في المغانم فقط ، أو حباً في المغامرة لذاتها ، لا يمكن أن تمليه روح حيادية ، وينقص قائله حتى مجرد الإلمام بما في عقيدة المسلم من رغبة في اعلاء كلمة الدين ، واقدام شجاع على اقتحام المخاطر ، وخوض المعارك أملاً في الإستشهاد في سبيل الله . بل ويبدو أن قائله كان لا يرى في جيش المسلمين الفاتحين ما يفترض وجوده في أبسط الجيوش تنظيماً من تصرف وفق الأوامر والتعليمات التي تصدر من أعلى القيادات إلى أدناها . وما كان له أن يقول بهذا لو أنه انتبه إلى أن القائد بدوره لا يصدر في تصرفه عن ارادة ذاتية مباشرة مستقلاً عن الخليفة والخلافة .

---

(١) محمد فرج : عمرو بن العاص ص ٢٦٠ .
بتلر : فتح العرب لمصر ص٣١٣ .
(٢) محمد فرج : عمرو بن العاص ص ٢٦٠ . ويبدو انه كان في الذي قدم ينقل عن غيره ولكنه لم يعين المصدر بهامش للحديث .

وإلى قائل بأن عمرو بن العاص لما فرغ من فتح الإسكندرية أراد أن يؤكد السلامة لمصر من جميع جهاتها ، وأن يمنع الروم من مهاجمتها من ناحية برقة ، فعجل بالمسير اليها[1] ، وهذا الرأي أقرب احتمالاً من سابقه وألصق بتكوين رجل عسكري التفكير ، غير أنه مع هذا غير كاف لذاته وفي حد ذاته لتعليل إقدام عمرو بن العاص على فتح برقة وطرابلس ذلك أنه يعني استمرار التوغل في الفتح إلى نهاية القارة على الأقل ، فكل إقليم يفتتح يقتضي تأمين حدوده بالتوسع إلى الإقليم الذي يليه والرغبة في التوسع لغرض التوسع وحسب لم تكن غاية للإسلام ولا هدفاً للدولة الإسلامية آنذاك . ولو صح هذا لأصبح العرب الفاتحون مجرد مستعمرين لما فتحوه ، مثلهم في هذا مثل الرومان وغيرهم من الدول الاستعمارية قديماً وحديثاً ، ولذلك فإننا لا يمكننا القبول به هو الآخر تعليلاً لحركات الفتح الأولى في تاريخ الإسلام ، فميل عمرو إلى مواصلة الفتح ورغبة جنده في المغانم وفكرة تأمين حدود مصر ليس أيها بالدافع الحقيقي لفتح المسلمين لبرقة وطرابلس آنذاك .

دوافع فتح برقة :

واذن فما هو ذلك الدافع الحقيقي لمواصلة عمرو بن العاص لعملية الفتح إلى ما غرب الإقليم المصري ؟... والجواب لا يمكننا أن نجده في عامل واحد وحسب وإنما في مجموعة دوافع يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع على الأقل : دافع ديني ، ودافع عسكري استراتيجي ، ودافع جغرافي ، ودافع الطاعة للأوامر العليا التي تصدر إليه كقائد لجند المسلمين . وفيما يلي رأينا في كل منها على حدة وبايجاز :

الدافع الديني : ١ ــ كان الهدف الأول من جميع حروب الفتح هو نشر لواء الإسلام في ربوع جديدة ، وليس هذا الهدف بخاف في التاريخ الإسلامي ، ولا يمكن أن يفهم على أنه رغبة في بسط النفوذ

(١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في فتح افريقية والمغرب جزء ١ ص ٢ .

السياسي وسعي لاخضاع الشعوب إلا مع سوء النية والقصد ، والا مع التغافل عن طبيعة الفتح الذي يضع الغالب في مستوى مساو تماماً للمغلوب بمجرد اعتناق هذا الأخير للاسلام « لكم ما لنا وعليكم ما علينا » .

٢ ــ وكان الحماس الذي يندفع به القادة والجند في الإسلام يعود إلى الرغبة في الفوز بالشهادة في سبيل الله ، وليس مصدره الطمع في مغنم زائل من نعيم الدنيا ولا الجشع في المال والثروة .

وهذا الدافع بشقيه قد يوجد اليوم من يقول بأنها مثالية الدعوة في الدين الإسلامي ، ولكنها ليست من طباع عامة الناس ، وقد يجد الدليل على هذا في بعض أحداث التاريخ ، وهذا صحيح بالنسبة إلى الأفراد ولكنه غير صحيح بالنسبة إلى المجموع في ذلك العصر بالذات . فمبادىء الإسلام والتحمس لها والحرص على نشرها هي الدافع الأول وراء كل الحروب التي عرفت بحروب الفتح ، ولم يأت في التاريخ ما يدل على عكس هذا أبداً بالنسبة إلى عصر الخلفاء الراشدين على الأقل ، والحرص على الشهادة في سبيل الله هو صاحب الفضل الأول في انتصار العرب الفاتحين في جل المعارك التي اشتهرت في التاريخ كالقادسية واليرموك وغيرهما مهما قل عدد المسلمين وكثر عدد اعدائهم فيها .

الدافع العسكري : ١ ــ كانت برقة تابعة سياسياً للامبراطورية البيزنطية وشبه خالية من القوات العسكرية التي لهم فيها آنذاك ومبادرة عمرو بن العاص بالإستيلاء عليها قد تفهم على أنها محاولة منه لمنع العدو من اتخاذها قاعدة هجومية ضد جيش المسلمين . وهذا يعد من قبيل العبقرية في القيادة والحذق في التصرف الحكيم إذ غايته تفويت الفرصة السانحة على العدو .

٢ ــ أن العدو في انسحابه من مصر قد لجأت بعض قواته

المتقهقرة إلى برقة ولا شك . ومتابعة فلول العدو ومطاردتها وتشتيتها قبل أن تتجمع فلولها وتعيد تنظيم صفوفها من جديد يعد ضرورة استراتيجية محضة يحتمها الحرص على الاحتفاظ بالتفوق العسكري على العدو .

وهذا الدافع العسكري الاستراتيجي المحض يؤكد فائدته التاريخ العسكري قديمه وحديثه على السواء ويثبته الواقع التاريخي لفترة الفتح وحركات الجيوش آنذاك ، ومن غير المعقول أن يتخلى عمرو عن برقة للروم وهي التي خرج منها هرقل ليعتلي عرش الأباطرة البيزنطيين ، وهي التي سيرت جيشها للقضاء على قوة فوكاس بمصر قبل ذلك بثلاثين سنة فقط .

الدافع الجغرافي : ليس من فاصل طبيعي بين الإقليمين غير المنطقة شبه الصحراوية ، وهي ليست بالحاجز في نظر العربي ، وبرقة كانت تعد من مصر في كثير من فترات التاريخ ، وقد اعتبرها عمرو نفسه والخلافة كذلك جزءاً من مصر والحقوها بها لفترة من الزمن غير قصيرة . وقد يعتبر مسيره إليها من قبيل اتمام فتح مصر ليس الا .

وبرقة ومصر يعتمدان على بعضهما في المنتجات الغذائية واللحوم والملابس ومبادرة عمرو بالاستيلاء عليها قد تعني الرغبة في تأمين الجانب الاقتصادي الحياتي لما أصبح في حوزة المسلمين من أقاليم .

أمر الخلافة بفتح برقة وضرورته :

والدافع الاخير : لم يكن عمرو بن العاص وجنده ، مثلهم في هذا مثل سائر قادة وجند المسلمين يتصرفون بوحي من رغباتهم الذاتية في شئون الفتح ، وانما هم يصدرون في تصرفاتهم العسكرية عن أوامر يتلقونها عن الخلافة ومن الخليفة ، ولا يخالفونها . وهذا يعني أن عمراً لم يزحف على برقة ومن بعدها على طرابلس

إلا بناء على أوامر من الخليفة صدرت إليه ؛ وهذا يعني أن الدوافع السابقة جميعها كانت الحافز للخلافة على اتخاذ القرار بافتتاح برقة ومن بعدها طرابلس ، وهذا لا ينفي بالطبع أن يكون عمرو بن العاص قد أوضحها للخليفة عمر بن الخطاب في رسائله إليه وطلب منه فيها الاذن له بالسير نحوها لمواصلة الفتـــح .

ومما تقدم يتضح لنا أن فتح برقة لم يقم به عمرو بن العاص ورفاقه رغبة في مواصلة الفتح وحباً في الغزو لذاته ولا ميلاً إلى مغامرة جديدة ، وليس من الضروري أن يصدر عمرو بن العاص عن رغبات ذاتية فيه ليكون قائداً فذاً من قواد الفتح الإسلامي ومن جهة أخرى فسترد اشارات تؤكد استمرار الصلة بين عمرو والخليفة في شئون الفتح والتوسع فيه سواء فيما يتعلق بفتح برقة أو طرابلس أو إفريقية .

الاختلاف حول سنة فتح برقة :

وحول السنة التي تم فيها فتح إقليم انطابلس (برقة) يختلف مؤرخو العرب القدماء في تعيين السنة التي قام فيها القائد الإسلامي عمرو بن العاص بغزو برقة وفتحها فيجعلونها تقع في سنة ٢٠ وسنة ٢١ وسنة ٢٢ للهجرة وحتى سنة ٢٣ منها ، كما يختلفون في أمر تسيير عمرو لعقبة بن نافع الفهري إلى برقة وزويلة قبل أو بعد زحف عمرو بن العاص بجيشه إلى برقة .

وقد حاول كتاب التاريخ في العصر الحديث من العرب ومن غير العرب مناقشة هذين الأمرين والوصول فيهما إلى القول الفصل غير أن الكلمة الأخيرة حولهما لم تقل بعد مما يجعلنا نسهم في النقاش بما نراه حول هذين الموضوعين .

أوجه الخلاف بين المؤرخين في مسألة الفتح :

والنقاط التي يمكن حصر الخلاف حولها بعد الاستقراء للعديد من الروايات

التاريخية هي ما إذا كان عمرو بن العاص أو عقبة بن نافع هو الذي تم على يديه فتح برقة لأول مرة، وما إذا كان الفتح قد تم قبل تمام فتح الإسكندرية أو بعد ذلك ، وما اذا كان الفتح قد مهد له بعملية استطلاع أو لا ، واخيراً حول السنة التي تم فيها الفتح ، فهي اذن نقاط أربع :

الأولى : حول شخصية الفاتح الأول .
الثانية : هل تم فتح برقة قبل فتح الاسكندرية أو بعده .
الثالثة : هل سبقت الفتح عملية استطلاع أم لا .
الرابعة : حول سنة الفتح .

ضرورة التحقيق في أسماء بعض المناطق المذكورة في أخبار الفتح :

وإلى جانب هذه النقاط الأربع أثير نقطة خامسة لم يسبق أن تعرض لها أحد قبل الآن فيما أعلم تلك هي مسألة الخطأ في اسماء المدن والمناطق التي ذكرت : انطابلس (بنتابوليس) ، برقة المدينة وبرقة الإقليم ، زويلة . فقد سلم جميع من تعرض لتاريخ الفتح بأن انطابلس هي برقة ، ولم يبحث أحد في أمر برقة هذه ، هل هي المدينة أم الإقليم ، وسلم الجميع بأمر فتح زويلة ، ولم يبحث أحد في موقعها الجغرافي ، وانزوائها عن الطرق العامة ، ولا احتمل وقوع لبس في الرواية بينها وبين زلة ، الواقعة على مشارف الصحراء ، وعلى الطريق القديمة التي ظلت مطروقة حتى زمن متأخر ، يقرب من عهدنا الحاضر كثيراً . وقد رأيت لذلك ، أن أضيف إلى النقاط الأربع ، التي سبق ذكرها ، نقطة خامسة هي :

الخامسة : مسألة التحديد الجغرافي للأسماء المذكورة في أخبار فتح برقة ، زمن عمرو بن العاص .

روايات المؤرخين في فتح برقة :

وأرى أنه من المجدي لنا ، في هذا البحث ، حصر معظم ما ورد في كتب

التاريخ العربية ، قبل العصر الحديث ، من روايات حول فتح برقة من قبل عمرو بن العاص ، وذلك قبل الشروع في مناقشتها ، للوصول إلى رأي لنـــا حول النقاط الخمس ، التي حددنا الخلاف واللبس فيها :

رواية ابن عبد الحكم :

ابن عبد الحكم في فتوح مصر وافريقية : « ... فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة ، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه على أن يبيعوا من احبوا من أبنائهم في جزيتهم ....

حدثنا عبد الملك بن مسلمة ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن عبد الله الحضرمي ، عن أبي قنان أيوب بن أبي العالية الحضرمي ، عن أبيه قال : سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول : لأهل انطابلس عهد يوفى لهم به .... قال : ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، وانما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها .

ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين (ص ١٧٠ — ١٧١) » .

ومن هذا الذي نقلناه عن ابن عبد الحكم ومن الذي لم ننقله عنه أيضاً نستخلص الآتي :

أولاً : أن عمرو بن العاص يجمع بين برقة ومصر أو هو يجعل من أهل انطابلس بعضها من قبط مصر في قوله « ... وما لأحد من قبط مصر على عهد ولا عقد إلا أهل انطابلس فان لهم عهداً يوفى به » (ص ٨٩) .

ثانياً : أن ما نسب إلى عمرو بن العاص من روايات بسندها قد ذكرت انطابلس ولم تذكر برقة .

ثالثاً : أن توجيه عمرو لعقبة كان بعد فتح برقة ، وأنه بلغ زويلة في حملته تلك .

رابعاً : أن الذي ضم إلى بلاد المسلمين في حملة عقبة هو ما بين برقة وزويلة وليس ما يقع إلى الشرق من برقة حتى مصر .

خامساً : أن ابن عبد الحكم نفسه حينما تحدث عن حملة عقبة في سنة ست وأربعين إلى الجنوب : (مغمداش ، ودان ، جرمة ، قصور فزان ، خوار أو كوار) قال بالحرف الواحد : « ... ثم انصرف راجعاً ، فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم » . (ص ١٩٥) وهذه العبارة تعني صراحة أن زويلة لم تكن موجودة قبل ذلك .

رواية البلاذري :

البلاذري في فتوح البلدان : « ... حدثني محمد بن سعد ، عن الواقدي ، عن شرحبيل بن أبي عون ، عن عبد الله بن هبيرة ، قال : لما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية ، سار في جنده يريد المغرب ، حتى قدم برقة ، وهي مدينة انطابلس ، فصالح أهلها على الجزية ، وهي : ثلاثة عشر ألف دينار ، يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه » .

« حدثني بكر بن الهيثم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن سهيل بن عقيل ، عن عبد الله بن هبيرة ، قال : صالح عمرو بن العاص أهل انطابلس ، ومدينتها برقة ، وهي بين مصر وافريقية ، بعد أن حاصرهم وقاتلهم ، على الجزية ، على أن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا في جزيتهم ؛ وكتب لهم بذلك كتـــاباً .

« حدثني : محمد بن سعد ، عن الواقدي عن مسلمة بن سعيد ، عن اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، قال : كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب ، ولم يدخلها فتنة .»

« وحدثني بكر بن الهيثم ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية

ابن صالح ، قال : كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة ، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر . وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ، ومن أهل الصلح صلحهم » . (ص ٢٦٤)

« حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام ، قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبي حبيب ، أن عمرو بن العاص كتب في شرطه على أهل لواته من البربر من أهل برقة : أن عليكم أن تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية . قال الليث : فلو كانوا عبيداً ما حل ذلك منهم » . (ص ٢٦٥) .

ومن هذا الذي قدمناه نجد عند البلاذري ما نستخلص منه الآتي :

أولاً : أن عمرو بن العاص يجمع عنده أيضاً بين أهل انطابلس وأهل مصر كما عند ابن عبد الحكم وبنفس العبارة .

ثانياً : ان اسم البلاد عنده مرة هي : « برقة وهي مدينة انطابلس » ومرة أخرى هي « انطابلس ومدينتها برقة » .

ثالثاً : أن فتح برقة كان بعد فتح الإسكندرية وليس قبل ذلك .

رابعاً : أن مصالحة أهل برقة حدثت بعد حصار وقتال وهذا ما لا يذكره ابن عبد الحكم .

خامساً : نجد عنده خلاصة لرسالة عمرو بن العاص إلى الخليفة، وفيها يعلمه بما تم لعقبة من فتح زويلة وما دونها وبعد برقة .

سادساً : نجد عنده أن الذين صالحهم عمرو على الجزية هم من لواته من البربر.

سابعاً : في عبارة شرط البيع للابناء نجد عنده زيادة « ونسائكم » وهذه لا نجدها عند ابن عبد الحكم .

ثامناً : أن توجيه عقبة إلى المغرب كان بعد فتح برقة وليس قبل وإن كان هذا يفهم من فحوى الرسالة على ما سيأتي ومن ترتيب الأخبار الخاصة بالفتح وبامرة عقبة ودون أن يرد نص صريح بذلك يفيد هذا المعنى .

رواية الطبري :

الطبري : تاريخه : « ..... (سنة ٢١) قال : وفيها سار عمرو بن العاص إلى انطابلس ، وهي برقة ، فافتتحها وصالح أهل برقة على ثلاثة عشر ألف دينار ، وأن يبيعوا من أبنائهم من أحبوا في جزيتهم » . (١ ة ٢٦٤٥) .

« (سنة ٢١) قال : وفيها بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهري فافتتح زويلة بصلح ، وما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين » . (١ : ٢٦٤٦)

وما يقدمه لنا الطبري هنا لا يخالف فيه كثيراً ما سبق من الروايات والزيادة التي نجدها عنده هي أنه يعيد الفتح وايفاد عقبة إلى سنة ٢١ هـ .

رواية ابن الأثير :

ابن الأثير في « الكامل في التاريخ » : « ... (سنة ٢١) . قيل : وفيها بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع الفهري فافتتح زويلة صلحاً ، وما بين برقة وزويلة سلم للمسلمين . وقيل : سنة عشرين . » (جزء ٣ صفحة ١٥) .

« (سنة ٢٢) . في هذه السنة سار عمرو بن العاص من مصر إلى برقة ، فصالحه أهلها على الجزية ، وأن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا بيعه . فلما فرغ من برقة سار إلى طرابلس ... الخ » (جزء ٣ صفحة ١٩) » « ..... وسار عمرو بن العاص كما ذكرنا فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها

جزية ، وشرطوا أن يبيعوا من ارادوا من أولادهم في جزيتهم » . (جزء ٣ صفحة ١٩) .

وفي رواية ابن الأثير هذه نجد :

أولاً : أنه يقدم قولاً بأن عقبة قد سير إلى زويلة سنة ٢١ وقبل فتح برقة .

ثانياً : أنه يشير إلى قول آخر بأن هذا حدث سنة ٢٠ للهجرة .

ثالثاً : أنه يخالف من قدمنا رواياتهم فيجعل سير عمرو بن العاص إلى برقة سنة ٢٢ وإلى طرابلس في نفس العام .

رابعاً : أنه يشير إلى أن الذي اشترط بيع الأبناء هم أهل برقة وليس عمرو ابن العاص ولا يوجد نص بهذه الصراحة عند من تقدم ذكرهم : بل على العكس نجد من يقول بأن عمراً هو الذي اشترط عليهم ذلك.

رواية ابن سعيد :

ابن سعيد في « المغرب في حلى المغرب » : « ... فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة ، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار ، يؤدونها إليه جزية ، على أن يبيعوا من احبوا من أبنائهم في جزيتهم . وعن أبي العالية الحضرمي قال : سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول لأهل انطابلس عهد يوفى لهم به ، قال : ولم يكن يومئذ يدخل برقة جابي خراج ، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها » .

« ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين . ثم قال : سار عمرو بن العاص حتى نزل اطرابلس في سنة ثلاث وعشرين .... الخ » (ص ٤٤ من الجزء الأول الخاص بمصر) .

وواضح أن هذا ينقل بعض من أوردنا حديثهم فيما تقدم . ولا شيء فيه لم تسبق ملاحظته اللهم إلا نصه على أن طرابلس قد فتحت سنة ٢٣ وليس سنة ٢٢ كما عند ابن الأثير .

رواية ابن عذاري :

ابن عذاري في « البيان المغرب » : « .... ولما فتح عمرو بن العاص مصر ، في سنة ٢٠ وجه عقبة بن نافع الفهري إلى زويلة وبرقة فافتتحهما ثم توجه عمرو بنفسه إلى برقة فصالح أهلها » (جزء أول ص ١) وباقي حديثه لا يختلف عما سبق[١] .

ونلحظ في هذه الرواية ما يلي :

أولاً : أن ايفاد عمرو لعقبة كان بعد فتح مصر مباشرة وقبل فتح الإسكندرية .

ثانياً : أن عقبة قد توجه إلى المغرب سنة ٢٠ وهذا يتفق مع احد أقوال ابن الأثير في الكامل .

ثالثاً : أن في العبارة قلق في التعبير لا يرتاح القارىء له إذ كيف يفتتح عقبة برقة ثم يصالح عمرو أهلها بعد ذلك ؟

رابعاً : اذا احتملنا زيادة كلمة برقة وما اقتضته من تثنية للضمير فاستبعدناها استقام المعنى .

رواية المقريزي :

المقريزي في « المواعظ والاعتبار » : « .... من مدن مصر : مدينة لوبية ومراقية ، وليس بعد لوبية ومراقية إلا أرض انطابلس وهي برية . » (جزء ١ ص ٢٠٧) .

« .... ثم سار (عمرو بن العاص) إلى الإسكندرية سنة عشرين في ربيع الأول منها فحاصرها ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة وهو الفتح الأول ؛ ويقال بل فتحها مستهل سنة إحدى وعشرين ثم سار عنها إلى برقة فافتتحها عنوة

(١) نقلنا هنا عن مصدر حديث رجع إليه ولم ننقل منه مباشرة .

في سنة اثنتين وعشرين وقيل في سنة ثلاث وعشرين » . (جزء ٢ ص ٨٠ – ٨١) .

ونجد في رواية المقريزي ما يأتي :

أولاً : أنه يصف انطابلس بأنها برية .

ثانياً : أنه يجعل فتح برقة سنة ٢٢ أو ٢٣ هـ .

ثالثاً : أنه يشير إلى أن فتحها كان عنوة .

رواية ابن أبي دينار :

ابن أبي دينار في « المؤنس في تاريخ افريقية وتونس » : « ... ولما فتح عمرو ابن العاص مدينة مصر والاسكندرية ، بعث عقبة بن نافع إلى برقة وزويلة وما جاورها من البلاد فصارت تحت ذمة الإسلام ، وسار عمرو بن العاص فغزا مدينة طرابلس وفتحها وافتتح جبال نفوسة ، وكانوا على دين النصرانية كل هذا في زمن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، في سنة ثلاث وعشرين ... » (ص ٢٢) .

ويبدو أن ابن أبي دينار قد نقل رواية ابن عذاري مع التصرف فيها بحذف مصالحة عمرو بن العاص لبرقة ذلك أنها تتفق معه في نسبة فتح برقة إلى عقبة أولاً ولا تخالف احدى روايات ابن الأثير في الكامل كذلك .

رواية ابن الأبار :

أبو عبد الله بن الأبار في « الحلة السيراء » : « ... وقال غير البلاذري : ثم صار (أي عمرو بن العاص) من مصر حتى قدم برقة ، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من أبنائهم في جزيتهم من أحبوا بيعه ، وعلى يديه تم فتح المسلمين لبرقة . ثم غزا في سنة ثلاث وعشرين أطرابلس فحاصرها ..... » (جزء أول ص ١٣) .

وهذه الرواية يبدو أنها تنقل عن البلاذري وغيره من المؤرخين السابقين ، وليس فيها جديد تمكن ملاحظته .

رواية اليعقوبي :

اليعقوبي في « البلدان » : « .... وتسمى برقة أنطابلس ، هذا اسمها القديم ، افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاث وعشرين صلحاً . » (ص ٣٤٦) .

وليس في رواية اليعقوبي جديد أيضاً ، وهو يعيد فتحها إلى سنة ٢٣ للهجرة .

رواية البكري :

البكري في « المسالك والممالك » : « ... برقة : واسمها بالرومية الاغريقية بنطابلس ، تفسيره خمس مدن . وصار[1] اليها عمرو بن العاص حتى صالح أهلها على ثلاثة عشر ألفاً يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم » . (ص ٤ — ٥) .

وليس في هذه الرواية جديد على ما تقدم ذكره سوى كتابة بنطابلس بالباء بدلاً من الألف وهذه أصح من حيث رسمها في اليونانية .

« ... ومن هذه الصحراء إلى زويلة يوم ، وهي نحو في مدينة أجدابية ، وهي مدينة غير مسورة في وسط الصحراء . وهي أول حد بلاد السودان وبها جامع وحمام وأسواق يجتمع بها الرفاق من كل جهة منها ، ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم ، وبها نخيل وبساط للزرع يسقى بالإبل ولما فتح عمرو برقة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين .... » (ص ١٠) .

ورواية البكري جغرافية وهو يصفها في عصره هو ، أي بعد عدة قرون

(١) هكذا في الأصل الذي ننقل عنه وهي خطأ صوابه «سار» بالسين وليس بالصاد إلا إذا أراد انتهى اليها

من أحداث الفتح ، ولكننا أحببنا تقديمه هنا حتى نعطي القارىء صورة لهذه الواحة التي سنناقش أمر فتحها بعد استعراض بقية الروايات . والبكري يجعل فتح زويلة من قبل عقبة يقع بعد فتح برقة وليس قبل ذلك .

رواية الإدريسي :

الإدريسي في « نزهة المشتاق » : « ... زويلة بناها عبد الله بن خطاب الهواري ، وسكنها هو وبنو عمه في سنة ٣٠٦ ، وهي منسوبة إلى هذا الرجل ، وبه اشتهر اسمها . وهي الآن عامرة ، » (ص ٢٤) .

« وشمال هذه الأرض تتصل مدينة زالة . وزالة هذه بها حصن منيع فيه رجل ثائر بنفسه . وبين هذه المدينة ومدينة سرت ٩ أيام بين غرب وشمال إلى ناحية البحر ... » (ص ٢٧ .

« ... وأما مدينة زويلة ابن خطاب فمنها إلى صرت خمس مراحل كبار ، ومنها إلى السويقة المسماة بسويقة ابن منكود ستة عشر مرحلة . ومدينة زويلة ابن خطاب في صحراء ، وهي مدينة صغيرة ، وبها أسواق ، ومنها يدخل إلى جمل من بلاد السودان ، وشرب أهلها من آبار عذبة ، ولها نخل كثير وثمرها حسن ، والمسافرون يأتونها بأمتعة من جهازها وجمل من أمور يحتاج إليها ... » (ص ٩٩ — ١٠٠) .

والادريسي أيضاً جغرافي وهو يصفها في عصره والجديد عنده هو أنه لا يعيدها تاريخياً إلى زمن الفتح وإنما ينسبها إلى بني خطاب في أوائل القرن الرابع للميلاد ، وهذا غريب في حد ذاته وسنناقشه فيه فيما بعد .

رواية الاستبصار :

رواية كتاب الاستبصار لمجهول ؟ : « مدينة زويلة : مدينة كبيرة قديمة ، أزلية ، في الصحراء ، تقرب من بلاد كانم وهي من السودان ، وقد اسلموا بعد الـ ٥٠٠من الهجرة . وهي مجتمع الرفاق ...... ولما فتح عمرو بن العاص

برقة وجبل نفوسة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وافتتحها ؛ وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين ... » (ص ١٤٦) .

وهذه الرواية تجعل من زويلة مدينة قديمة العهد أزلية كما أنها تجعل مسيرة عقبة إلى زويلة بعد فتح برقة بل وبعد فتح جبل نفوسة أي اثناء حصار طرابلس أو حتى بعد فتحها هي الأخرى وهذا خلاف ما تقدم من روايات المؤرخين جميعهم أما عن اسلام أهل كانم والذي يعيده إلى ما بعد سنة ٥٠٠ للهجرة فأمر لا علاقة لنا به الآن ولا نبحث فيه في هذا الفصل .

رواية ياقوت :

ياقوت الحموي في « معجم البلدان » : « ... واجدابية في الاقليم الرابع وعرضها سبع وثلاثون درجة ، وهي من فتوح عمرو بن العاص فتحها مع برقة صلحاً على خمسة آلاف دينار ، واسلم كثير من بربرها . » (جزء ١ ص ١٣١) .

« انطابلس : بعد الألف باء موحدة مضمومة ولام مضمومة أيضاً وسين مهملة ، ومعناه بالرومية خمس مدن . وهي مدينة بين الاسكندرية وبرقة . وقيل : هي مدينة ناحية برقة » (جزء ١ ص ٣٨١) .

« ... وقال أحمد بن محمد الهمداني : من الفسطاط إلى برقة مائتان وعشرون فرسخاً ، وهي مما افتتح صلحاً ، صالحهم عليها عمرو بن العاص ، والزم أهلها من الجزية ثلاثة عشر ألف دينار ، وأن يبيعوا أولادهم في عطاء جزيتهم ، وأسلم أكثر من بها فصولحوا على العشر ونصف العشر في سنة احدى وعشرين للهجرة . وكان في شرطهم أن لا يدخلها صاحب خراج بل يوجهوا بخراجهم في وقته إلى مصر ، إلى أن استولى المسلمون على البلاد التي تجاورها فانتقض ذلك الرسم ... » (جزء ١ ص ٥٧٣) .

« ... ولما فتح عمرو برقة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين » (جزء ٢ ص ٩٦٠) .

ومما في معجم البلدان لياقوت نحصل على ما يلي من المعلومات :

أولاً : ان اجدابية قد فتحت صلحاً مع برقة على خمسة آلاف دينار .

ثانياً : إن انطابلس عنده اسم لمدينة وليس أسماً لإقليم وهو يضعها قريباً من برقة .

ثالثاً : أن بعض أهل برقة قد اسلموا والبعض الآخر صالح على الجزية .

رابعاً : أن فتح برقة كان سنة ٢١ للهجرة .

خامساً : أن فتح زويلة بعد فتح برقة وليس قبل ذلك .

رواية أبي الفدا :

أبو الفدا « تقويم البلدان » : .. وكانت بلاد برقة تسمى في ايام الروم انطابلس فسمتها العرب لما فتحتها في صدر الاسلام برقة لكثرة حجارتها المختلطة بالرمل . قال في المشترك : وبرقاء كل موضع فيه حجارة مختلفة الألوان .. » (ص ١٢٧) .

« ... ومن البلاد الواقعة بين بلاد المغرب والواحات أوجلة .... ومنها إلى مدينة زالّه عشر مراحل غرباً . وزالّة مدينة صغيرة ذات سوق عامر ، وهي حصن منيع . ومن زالّة يدخل إلى بلاد السودان أيضاً . ومن زالة إلى مدينة زويلة عشرة أيام ... » (ص ١٢٨) .

(وزالة بفتح الزاء المعجمة ، واللام المشددة وهاء) .

ولا نجد في هذه الرواية حدثاً تاريخياً غير أننا نجد تفسيراً عربياً لغوياً لاسم برقة وحديثاً عن واحة زالّه (وهي زلة) وهذا سيفيدنا في مناقشة الروايات الأخرى على ما سيأتي :

وليست هذه التي قدمناها هنا هي كل ما قيل في فتح برقة ولكنها أهم وأكثر ما قيل ونعتقد أنه في مجموعه يوفر لنا من المادة التاريخية ما سيمكننا من مناقشة

النقاط الخمس، التي أثيرت حول فتح برقة بالذات والتي حددناها في هذا الفصل .

مناقشة النقطة الأولى : شخصية الفاتح :

وأولى هذه النقاط الخمس حول شخصية الفاتح الأول لبرقة هل هو عمرو ابن العاص أم أنه عقبة بن نافع الفهري . وينفرد ابن عذاري وابن الأثير وابن أبي دينار بين مجموعة المؤرخين بالقول أن عقبة ابن نافع قد وجه من قبل عمرو ابن العاص لبلاد المغرب فافتتح هذا كل من برقة وزويلة وما بينهما من بلاد . وابن عذاري يرجع هذه الحادثة إلى سنة عشرين للهجرة[1] ، أما ابن الأثير فيقدم القول بأنها كانت في سنة احدى وعشرين للهجرة وقولاً آخر بأنها كانت سنة ٢٠ للهجرة[2] ، ثم يجعل مسيرة عمرو بن العاص إلى برقة من بين أحداث السنة الثانية والعشرين للهجرة[3] . وأما ابن أبي دينار فإنه يعيدها إلى ما قبل سنة ثلاث وعشرين بطريق غير مباشر اذ يجعلها تقع قبل مسيرة عمرو إلى طرابلس لفتحها[4] .

وهذه الأقوال إنما تعني أن فتح برقة الأول ينسب إلى عقبة بن نافع الفهري وليس لعمرو بن العاص الذي صالح أهل انطابلس بعد ذلك في روايتي ابن عذاري وابن الأثير .

وهذا الترتيب لحوادث الفتح لا يوافق عليه بقية المؤرخين من العرب ، ومع ذلك نجد مولر Muller يذهب إلى القول بما يشبه هذا حينما يرى أن

---

(١) يناقش الدكتور احسان عباس هذه الرواية ويرى فيها نوعاً من الإيجاز المخل وتنافراً جعلاه يردها رغم استحسانه وقبوله لها . (راجع ص ١٩ من كتابه تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري) .

(٢) الكامل جزء ٣ ص ١٥ .

(٣) الكامل جزء ٣ ص ١٩ .

(٤) يرى الدكتور احسان عباس أن ابن أبي دينار قد نقل عن ابن عذارى مع التصرف باسقاط اسم برقة في فتح عمرو الذي جعله يفتتح طرابلس مباشرة (راجع كتاب تاريخ ليبيا ... الخ ص ١٩) .

أول حملة عربية في شمال إفريقيا وما أدت إليه من فتح برقة لا بد وأن تكون سابقة في التاريخ على فتح الاسكندرية ، وللتغلب على مسألة عدم التقابل عنده في التواريخ احتمل أن يكون عمرو بن العاص قد اتجه بمجرد فتح الإسكندرية الى طرابلس وذلك في سنة ٢٢ للهجرة هذا اذا لم تكن تلك المدينة قد فتحت سنة ثلاث وعشرين . ويناقش المستشرق الايطالي كايتاني في كتابه حوليات الاسلام « Gli Annâli Dell'Islam » (سنة ٢١ هـ فقرة ١٢٠) مولر في رأيه هذا فيرى أنه قد وقع في الخطأ نتيجة لخطأ تفسير نص حنا النقيوس Giovàn. Niqyus والقول بأن فتح الإسكندرية إنما حدث في أواخر سنة ٦٤٣ للميلاد (أواخر سنة ٢٢ للهجرة) بينما يجد كايتاني كتب التاريخ العربية ، وهو قادر على مراجعتها في لغتها الاصلية ، ترجع حادثة فتح الإسكندرية إلى سنة ٢١ للهجرة .

وواضح أن مولر هنا إنما يأخذ بقول الذين يرون أن عقبة ابن نافع قد سبق عمرو بن العاص إلى المغرب وهو ما لا يسلم به بقية المؤرخين والكتاب من العرب : فابن عبدالحكم والبلاذري والطبري وابن سعيد والبكري وياقوت وصاحب كتاب الاستبصار وابن الأبار واليعقوبي جميعهم ينسب فتحها إلى عمرو بن العاص آما صراحة واما بترتيب الحوادث بحيث يجعل توجيه عمرو ابن العاص لعقبة بن نافع إلى بلاد المغرب حتى زويلة واقعاً بعد فتح برقة وليس قبل ذلك في سياق الحديث .

رسالة البلاذري وتحليلها :

وقد أورد البلاذري خبر الرسالة التي قيل أن عمرو بن العاص بعث بها إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه فيها بتولية عقبة بن نافع على المغرب وبما تم لهذا من فتوح .... الخ . وهذه الرسالة لم ترد عند غير البلاذري فيما نعلم ، اذ لم يشر إليها سواه مما يحمل على التساؤل هل كتبت بالفعل رسالة من عمرو إلى عمر ؟ أم أنها وضعت ونسبت له ؟... وبالرغم من صعوبة إبداء الرأي في

هذا الموضوع فإني أميل إلى التسليم بنسبة هذه الرسالة إلى عمرو بن العاص إذ ليس ما قيل في بقية الروايات جميعها غير عبارات يمكن اعادتها بطريق أو بآخر إلى ما ورد بها من جمل ، بل انني أرى أن الخلاف حول تعيين شخصية الفاتح الأول لبرقة لم ينشأ إلا عن غموض التعبير في بعض أجزائها كما سيتضح لنا ذلك من مناقشتها فيما يلي :

أولاً : لم يشر في الرسالة إلى مسألة العهد الذي لأهل انطابلس على عمرو ابن العاص ، ولا إلى فتح برقة عنوة ولا صلحاً . ومرد هذا في نظري إلى أنها كتبت لغير اعلام الخليفة به ، أو في عبارة أدق كتبت بعد حدوثه . واذا نحن سلمنا بحرص قادة المسلمين على الكتابة للخلافة عما يتم لهم من نصر ومن فتوحات أولاً بأول أدركنا استحالة اغفال عمرو في رسالته لقضيتي الفتح والصلح وشروطه مما يحمل على الظن بأن عمراً قد كتب تقريراً بالفتح في رسالة غير هذه سبقتها واعلم الخليفة بتلك الأمور .

ثانياً : أن هذه الرسالة إما أن تكون قد كتبت من عمرو بن العاص الى الخليفة في برقة أو في مصر ، ولا يمكن أن تكون قد كتبت من طرابلس لعدم الإشارة إلى ذلك فيها ولأنها لو كتبت من هناك لكانت عباراتها مختلفة عما هي عليه بعض الشيء . كأن تقول « ... ولى عقبة بن نافع الفهري الجنوب » بدلاً من قولها « ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب » وذلك لوقوع بلدة زويلة هذه في الجنوب الشرقي من طرابلس .

وكأن تقول : « ... وأن من بين زويلة وطرابلس « بدلاً من القول « ... ومن بين زويلة وبرقة » باعتبار أن الكتابة من طرابلس وليست من برقة .

ثالثاً : أننا باستقراء بعض فقرات الرسالة قد نتمكن من تعيين المكان الذي

كتبت منه فقد ورد فيها : « .. قد ولي عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة » وهذه عبارة قد يعبر فيها من يكتب من مصر ومن يكتب من برقة على السواء فزويلة واقعة بالمغرب بالنسبة لكلتيهما معاً ، ولكن العبارة التي تلتها ، والتي قالت « ... وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم » . لا يمكن أن تكون إلا من برقة إذ لو أنها كتبت في مصر لتركت ثغرة من الإقليم هي ما يقع بين برقة ومصر من بلاد وسكان ، ولا يعقل أن يغفل أمر هذه المنطقة في الرسالة من عمرو بن العاص وهو يقرر للخليفة باحداث خطيرة كهذه .

وورد في الرسالة أيضاً بعد الإعلام بالفتح والطاعة في « ... حسنة طاعتهم : قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية » قد جاء بعبارة تحتاج إلى شيء من الإيضاح وهي : « وأنه قد وضع على أهل زويلة ، ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه » فالضمير هنا قد يعود إلى عقبة بن نافع وقد يعود على عمرو بن العاص ولكن العبارات التالية تقطع بعودة الضمير على عمرو بن العاص وليس على عقبة ابن نافع الذي قام بالفتح . واذن فإن عبارة « ومن بينه وبينها » لا تشمل من بين برقة ومصر لاغفالهم في الفقرة السابقة ، وهذا يعني أنه حين كتابتها لم يكن بمصر وانما ببرقة حتى يستقيم المدلول ويتحد في العبارتين « من بين زويلة وبرقة » و « من بينه وبينها » .

وورد في الرسالة أخيراً عبارة : « ... ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه بمصر » وهذه أيضاً إنها تصبح ضرورة حينما تكون الكتابة في موضع غير مصر لتمنع الإلتباس المحتمل لو اكتفى بالضمير وطرح المكان فلم يعين بها .

وهكذا نجد أن عبارات الرسالة تستقيم كلها وتنسجم مع القول بأنها كتبت

من عمرو إلى عمر وهو في برقة وليس وهو في مصر . واذا كان الأمر كذلك فان مسيرة عقبة إلى المغرب إنما حدثت بعد فتح عمرو لبرقة ومصالحته لأهلها وهذا ما يفسر أمران آخران في الرسالة :

الأول : اغفالها الحديث كلية عن فتح برقة وما يقع إلى الشرق منها حتى مصر ، وأمر الصلح الذي تم والشروط التي وضعت له وقبلت من الطرفين .

والثاني : تعيينه للعمال وتكليفهم بجمع الصدقات وجباية الخراج في المناطق الواقعة إلى الغرب من برقة لا يجعل هناك مخالفة أو نقضاً لما نص عليه في العهد من أن « لا يدخل برقة جابي خراج » ذلك لأن تلك الأراضي التي فتحت لا يشملها الصلح ولا تتمتع بهذا الإمتياز .

وهكذا نخلص من جميع ما تقدم إلى القول بأن عقبة ابن نافع لم يسبق عمراً في فتح برقة وبالتالي فلا يمكن أن يكون هو الفاتح الأول لهذا الإقليم .

مناقشة النقطة الثانية — ترتيب مواضع الفتح :

أما النقطة الثانية وهي المتعلقة بما اذا كانت برقة قد فتحت قبل فتح الإسكندرية أو بعدها ، فإنه ما دام عمرو بن العاص هو الذي قام بفتح برقة وليس عقبة بن نافع فلا بد بالتالي من القول بأن عمراً قد ترك الأراضي المصرية إلى الغرب قبل فتح الإسكندرية ، وسار إلى برقة فافتتحها وصالح أهلها ، ثم عاد إلى مصر ليتمم عملية فتح الإسكندرية قبل أن يتجه من جديد إلى المغرب ليهاجم طرابلس ويحاصرها قبل افتتاحها . وهذا احتمال صعب لم يقل به أحد من المؤرخين القدماء أو المحدثين ، وهو بالإضافة إلى هذا أمر لا يمكننا ايجاد ثغرة زمنية تسمح به في أحداث مصر . وعلى الرغم من توفر أحد عشر شهراً من الهدنة بين الروم وجيش المسلمين عند الإسكندرية فإن عمر قد شغل بفتح مصر السفلى طوال تلك المدة .

واذن فلم يعد بد من القول بأن السير إلى برقة كان بعد الفتح للإسكندرية وليس قبل ذلك وهذا هو ما ينسجم مع معظم روايات المؤرخين العرب التي تذكر في صراحة أن عمر بن العاص سار إلى برقة بعد فتح الإسكندرية . أما القول بأن فتح برقة كان بعد مصر (ممفيس) فنجده عند ابن عذارى ، وابن الأثير ، وابن أبي دينار . وقد رأينا عدم استقامة ما قالوا به بعد تحليلنا لفقرات رسالة عمرو إلى عمر عند البلاذري في الصفحات السابقة .

لهذا جميعه فإن احتمال أن تكون برقة قد فتحت قبل الإسكندرية أمر لا يسهل القول به والأجدر بالقبول قولنا بعكس ذلك أي ان برقة لم تفتح إلا بعد الإسكندرية .

مناقشة النقطة الثالثة — الاستطلاع :

وأما النقطة الثالثة وهي المتعلقة بايفاد حملة أو حملات استطلاع إلى برقة قبل التوجه بالخيل لفتحها فعلى الرغم من أن أحداً من المؤرخين القدماء لم يقل به إذا استبعدنا الروايات القائلة بتسيير عقبة إلى الغرب ، وذلك لما تقدم ، إلا أننا لا نستبعد أن يكون عمر وقد أرسل بعض السرايا إلى الغرب لتحسس قوات العدو هنالك ، وإن كان من غير المحتمل أن تجازف هذه السرايا المحدودة العدد بالتوغل في الغرب إلى مسافات بعيدة تجاوز برقة أو حتى تقرب منها . ولكننا لا يمكننا القول مع ذلك بتسيير هذه السرايا الاستطلاعية إلى برقة لعدم الإشارة إليها في كتب التاريخ العربية وغير العربية . وقد قامت الفكرة في أذهان بعض المؤرخين في العصر الحديث كمحاولة منهم لتفسير مسير عقبة إلى المغرب قبل عمرو بن العاص فاعتبروا حملته سرية استطلاع لجيش الفتح . وقد رفضنا نحن التسليم بهذا فحتم علينا هذا الموقف رفض فكرة الطليعة المستكشفة من جند المسلمين ، اللهم الا اذا كانت من ذلك النوع الذي يتقدم مجموعة الجيش بساعات ليؤمن الطريق ويحدد مكامن الخطر التي تعترض الجند ويعلم القيادات بذلك قبل فوات الأوان .

مناقشة النقطة الرابعة ــ تحديد سنة الفتح :

وأما النقطة الرابعة وهي المتعلقة بالخلاف حول تحديد السنة التي تم فيها فتح برقة ، فإننا نبحث في الروايات التاريخية العربية فنجد أن برقة قد فتحت عند ابن عذارى ، وفي قول من ثلاثة لابن الأثير في سنة عشرين للهجرة . بينما نجدها عند الطبري وياقوت وفي رواية ثانية لابن الأثير ، وكذلك عند البكري والخوارزمي فيما يذكره المستشرق كايتاني[1] قد فتحت سنة احدى وعشرين للهجرة . ونجدها عند المقريزي وابن الأثير (في الرواية التي يعتمدها أكثر) قد فتحت سنة اثنتين وعشرين للهجرة . ونجدها أخيراً عند كل من اليعقوبي والكندي قد فتحت سنة ثلاث وعشرين من الهجرة . أما ابن سعيد ، وابن الأبار ، وابن أبي دينار ، والبلاذري ، وابن أبي عبد الحكم فهم لا يعينون لفتح برقة سنة بذاتها ولكنهم يجعلونها بعد فتح الإسكندرية وقبل فتح طرابلس الذي يجعله ابن عبد الحكم والبلاذري في سنة ٢٢ للهجرة ويجعله الثلاثة الآخرون واقعاً في سنة ثلاث وعشرين هجرية .

ومن مناقشتنا للنقطتين الأولى والثانية انتهينا إلى أن برقة لم تفتح إلا بعد أن فتحت مدينة الإسكندرية . وهذه قد تم فتحها حسب تحقيق بتلر في شهر سبتمبر من سنة ٦٤٢ للميلاد (شوال ٢١ هـ)[2] وبالتالي فهو يعيد فتح برقة إلى شتاء سنة ٦٤٢ ــ ٦٤٣ م . (أواخر سنة ٢١ وأوائل سنة ٢٢ للهجرة)[3] بينما يعيدها معظم مؤرخي العرب إلى سنة عشرين للهجرة . وهذا الخلاف منشؤه هو أن العرب يعتبرون فتح الاسكندرية ابتداء من بدء الهدنة التي تمت بين عمرو وقائد الروم وانتهت باستسلام الإسكندرية دون مقاومة . بينما يعتبر بتلر سقوط المدينة عند نهاية فترة الهدنة التي امتدت لأحد عشر شهراً . ويرى كايتاني في حوليات الإسلام أن نظرة العرب هي الأجدر بأن يؤخذ بها

1) Caetani L. : — Ann. Dell'islam 21 H - 120.

(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٦٩ ، و الملحق الرابع به .

(٣) بتلر : نفس المصدر السابق ص ٣١٤ وهامش ١ منها .

لأن المدينة قد استسلمت في نهايتها دون قتال . ولذلك فهو يرجع فتح المدينة إلى سنة ٦٤١ (اكتوبر) ، وبالتالي فهو يعيد فتح برقة إلى صيف سنة ٦٤٢ (اواسط سنة ٢١ للهجرة) .

ومما تقدم جميعه يمكننا أن نطرح الروايات القائلة بأن فتح برقة قد حدث في سنة ٢٠ هـ . ما دمنا قد انتهينا إلى عدم التسليم باسبقية عقبة بن نافع على عمرو ابن العاص في دخول المغرب وفتح برقة؛ والى استبعاد أن يكون عمرو بن العاص قد غادر إقليم مصر إلى برقة قبل تمام فتح الإسكندرية وهذه لم تبدأ مهاجمتهم لها إلا في أواخر سنة عشرين للهجرة .

وكذلك فإننا نستطيع أن نستبعد تلك الروايات التي تؤخر فتح برقة إلى سنة ثلاث وعشرين للهجرة ، أولاً : لأن مدينة طرابلس قد فتحت في عهد خلافة عمر بن الخطاب ، وآخر عهد هذا الخليفة هو نهاية هذا العام . ولا يعقل أن تكون برقة قد فتحت هي الأخرى في نفس العام لما سيأتي . وثانياً : أن عمر بن العاص لم يبادر بالتوجه إلى طرابلس بمجرد فتحه لبرقة فيما يبدو من تحليلنا لرسالته التي وردت عند البلاذري ، فهي تفصح لنا عن تلك الأعمال التي قام بها عمرو بن العاص في هذا الإقليم وفي تلك المناطق التي قام عقبة بن نافع بفتحها إلى الغرب منه وحتى الموضع الذي حدد بها وقيل بأنه زويلة . وهذا يستغرق زمناً كما أن توطيد فتح المسلمين لبرقة ذاتها قد استغرق وقتاً آخر ولا شك . وثالثاً : أن فتح عمرو بن العاص لمدينة طرابلس قد حدث زمن القيظ أي زمن الصيف وليس في آخر العام كما سيأتي في فصل آخر من هذا الكتاب .

واذا نحن أخذنا بعين الإعتبار تلك المدة التي يستغرقها حامل البريد من طرابلس إلى مكة والعودة منها إلى عمرو في طرابلس وهي مدة لا تقل بحال عن الخمسة أشهر[1] . وتلك الفترة التي قضاها عمرو في برقة حتى كتب رسالته

(١) من الثابت أن عمراً قد استشار عمر بن الخطاب في فتح إفريقية وأن الخليفة قد منعه من ذلك ، وهذا إنما تم بالتراسل وهو المقصود هنا .

عن أعمال عقبة وتنظيماته هو بها والتي لا نقدرها بأقل من أربعة أشهر أخرى ، وتلك الفترة التي قضاها عمرو بن العاص في الزحف من برقة إلى طرابلس والتي لا تقل بحال عن الشهر ، وفترة حصار طرابلس نفسها والتي يحددها بعض المؤرخين بشهر ويقول البعض الآخر أنها استغرقت بضعة أشهر ، فإننا نجد أن برقة لا بد وأن تكون قد فتحت قبل وفاة عمر بن الخطاب بسنة على الأقل ، وهذا يعود بنا إلى سنة ٢٢ للهجرة .

واذا نحن افترضنا في طبع عمرو الحيطة والحذر ، وقلنا بأنه كقائد مسئول لا يمكنه أن يجازف بالتخلي عن الإقليم المصري إلى برقة قبل أن تدخل قواته الإسكندرية وتسيطر عليها لما يكتنف ذلك من خطر لا يقدم عليه سوى مغامر لا يقيم لمسئولياته القيادية وزناً وهذا ليس من طبع عمرو الذي اشتهر فوق قيادته العبقرية بأنه أحد كبار دهاة العرب . إذا سلمنا بهذا وعرفنا أن الإسكندرية لم يدخلها العرب إلا في شوال من سنة احدى وعشرين للهجرة ، فان أقرب الأقوال بعد هذا إلى الاحتمال هو القول بأن عمراً لم يغادر الإسكندرية إلا في أواخر هذه السنة ، وبعد أن اطمأن على سلامة ما تم له فتحه هناك . وهذا يعني أن جند عمرو بن العاص إما أن يكونوا قد غادروا مصر في أواخر عام ٢١ للهجزة أو أنهم فعلوا ذلك في بداية العام التالي . ومن المستحيل بما تحت أيدينا من مصادر أن نذهب إلى أبعد من هذا التحديد ، ونجزم بأن برقة قد فتحت في سنة ٢١ أو ٢٢ بالذات ، إذ كل الذي نستطيعه هو القول بأنها قد فتحت خلال المدة ما بين أواخر عام ٢١ وأوائل عام ٢٢ للهجرة . مع الميل أكثر إلى القول بأنها فتحت سنة ٢٢ للهجرة لأن في هذا فسحة أكثر من الوقت يقتضيها أمر الزحف والاحتلال لما بين برقة والإسكندرية من بلاد ، وقد لا تكفي الفترة الباقية من عام ٢١ لذلك .

مناقشة النقطة الخامسة ـ المدلولات الجغرافية :

وأخيراً نأتي إلى النقطة الخامسة والأخيرة وهي التي أثرناها نحن والمتعلقة

بالمدلول الجغرافي التاريخي للتسميات الواردة في أخبار فتح برقة وهي ثلاث انطابلس ، برقة ، زويلة . ومع ذلك فان المؤرخين العرب القدماء قد احتاروا فيها أهي مدينة انطابلس واقليم برقة أم هي إقليم انطابلس ومدينة برقة أم هي انطابلس التي هي برقة المدينة أم الإقليم مما يحار الباحث معها في المفهوم العربي الصحيح بين الاسمين — ولا حيرة في المفهوم الجغرافي التاريخي السابق لعهد العرب حول التسميتين للباحث من المؤرخين في العصر الحديث ، ولكننا نريد المفهوم العربي آنذاك لنفهم به ومن ورائه النص التاريخي العربي في وضوح ، وهذا الأمر غير ذلك .

أما زويلة فلم ترد بغير هذا الاسم ولا اختلفت في الرسم . وهناك بالفعل واحة بنفس الاسم والرسم ولكنها واقعة في الجنوب الشرقي من فزان ، وهي لا تقع على الطريق المؤدية من برقة إلى المغرب ، وانما هي على الطريق الموصلة إلى أواسط القارة . ولم استطع التخلص من الحاح فكرة احتمال وجود خطأ ما في التسمية منذ البداية منع من الاهتداء اليه وجود واحة في فزان بهذا الاسم بالذات .

وبالرجوع إلى كتب التاريخ العربية نجد الأخبار المروية بسند عن عمرو ابن العاص لا تتحدث عن برقة وإنما عن انطابلس فقط ، ومعنى هذا أن أول الفاتحين عرفوها باسم بنتابوليس ولم تعرف باسم برقة الا بعد الفتح بفترة .

وبنتابوليس أي انطابلس التي تحدث عنها العرب ابان الفتح اصطلاح جغرافي متداول حتى آخر العهد البيزنطي استخدم للدلالة على سائر إقليم برقة ، وليس على مدينة برقة . فهل كان عمرو بن العاص يجهل هذه الدلالة وهو يتحدث عن العهد الذي بينه وبين أهل انطابلس ؟... هذا مستبعد كلية لوفرة من يستطيع إرشاده إليه من أهل مصر بل ومن أهل البلاد ذاتها بعد الفتح إن لم يكن قبل الفتح. واذن فمن هم الذين صالحهم عمرو بن العاص على الجزية ؟... أهم البربر ؟... وأين تم ذلك ؟... أفي برقة المدينة ؟ أم هم الروم ؟... وأين وقع التفاهم ؟... أفي عاصمة الإقليم بطلميوسة ؟...

اذا نحن أخذنا برواية المؤرخ جبون التي تقول بأن الفرس قد محوا مدينتي قورينة وبرقة إلى الأبد فإننا نستطيع القول بأن عمراً لم يفتح مدينة برقة وانما افتتح عاصمة الإقليم وهي مدينة بطلميوسة الواقعة على شاطىء البحر .

واذا نحن التزمنا بمنطق الاحداث "التاريخي" أيضاً قلنا بأن عمراً قد افتتح بطلميوسة عاصمة الإقليم لأن الروم البيزنطيين كانت لهم السيادة الاسمية والفعلية على الإقليم حتى عهد الفتح وكانت العاصمة خلال هذا العهد هي بطلميوسة وقد غلبت عليها التسمية باسم الإقليم بنتابوليس وفي المصادر القديمة خلط بينها وبين مدينة برقة فعدت هذه تلك كإحدى المدن الخمس. ومصالحة عمرو بن العاص للبربر مع ترك الروم يحكمون في بطلميوسة أمر لا يستقيم مع الفهم السليم ، ولا معنى لمصالحة عمرو بن العاص البربر قبل القضاء على الروم وانتزاعه السلطة من أيديهم ..

ولهذين السببين نميل إلى الاعتقاد بأن عمراً بن العاص قد احتل بطلميوسة وأبعد عنها الروم ثم صالح أهل انطابلس على الجزية ، ولم يفتح مدينة باسم برقة لانها لم تكن موجودة آنذاك سوى أطلال .

وكما نقل عمرو بن العاص عاصمة الإقليم المصري من مدينة الإسكندرية إلى مدينة الفسطاط ليجعل مقر الحكم بمنجاة من غارات الروم البحرية فإنه من الجائز أن يكون قد نقل هو ، أو نقل عمال المسلمين عليها من بعده مقر الحكم في برقة أيضاً من بطلميوسة الواقعة على الساحل إلى موضع مدينة برقة ولنفس السبب .

ولكن مؤرخي العرب الذين أرخوا لأحداث الفتح في برقة ، قد تأخروا عن ذلك زمناً يربو على القرنين من الزمان نقلت العاصمة خلالهما من بطلميوسة إلى مدينة برقة فوقعوا لذلك وبالمدلول الجغرافي العام للتسمية ، والذي اتضح من بعض المصادر التاريخية والأدبية التي ترجمت آنذاك ولا شك في حيرة مدلول كلمة انطابلس ، ولذلك قالوا بها بأنها مدينة برقة باعتبار أن عمراً فتح

مدينة المفروض أنها عاصمة الإقليم بمصالحة أهلها على الجزية ، وما دامت برقة المدينة هي عاصمة الإقليم في عصرهم فلماذا لا تكون هي انطابلس ؟ أو لماذا لا يكون انطابلس هو الاسم القديم لمدينة برقة ما دام الإقليم في عصرهم يحمل اسم برقة استمداداً له من اسم عاصمته برقة ؟

ليس من السهل إقناع المؤرخين بهذا الذي قدمت ولكنني شخصياً مقتنع به ولا أجد تفسيراً سواه أفضل منه وهو فوق ذلك يفسر لنا ذلك الاضطراب في بعض روايات المؤرخين حول فتح إقليم برقة عنوة وصلحاً في نفس الوقت على ما سيأتي .

وتجمع كافة الروايات التاريخية القديمة على أن عقبة بن نافع الفهري قد افتتح زويلة حينما وجهه عمرو بن العاص إلى المغرب ، ولم يتشكك المؤرخون في العصر الحديث في صحة رسم هذه الكلمة ، وذلك لوجود واحة في الجنوب الشرقي من إقليم فزان بهذا الاسم ذاته . ولكن عبارة ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٧٩ للهجرة تقول : « ... ثم انصرف راجعاً فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم » حينما كان يتحدث عن حملة عقبة بن نافع الفهري سنة ٤٦ للهجرة إلى الجنوب جعلتني اتدبر هذه العبارة وأبحث لها عن تفسير فلا أجد سوى أن زويلة لم تكن موجودة حتى السنة المذكورة ، وهذه متأخرة زمناً عن حملته الأولى بحوالي أربع وعشرين سنة فكيف أعلل هذا ؟ ... وبأي الروايتين نأخذ ؟... وأيهما نرفض ؟... ان ابن عبد الحكم دقيق في رواية الخبر التاريخي ، ولا يمكن أن يكون قد أخطأ في ايراد العبارة على هذا الشكل ، ثم إن ابن عبد الحكم نفسه قد أورد الروايتين معاً ، فهل يمكن التوفيق بينهما بالقول إنه كان يعلم بوجود مدينتين تحملان نفس الاسم في عصره ، وإنه افترض العلم بها فلم يشر إلى ذلك ؟... إن احتمال أن تكون زويلة التي بلغها عقبة بن نافع الفهري بلدة أخرى غير زويلة التي نزل عقبة نفسه بموضعها بعد ذلك بأربع وعشرين سنة أمر يمكن التسليم به افتراضاً ، ولكنه يحتاج بعد ذلك إلى الدليل الذي يجعله مقبولاً بمنطق الاحتمال على الأقل ، وهذا يمكن تقديمه اذا احتملنا

حدوث تطور في اسم إحدى المناطق أو البلدان الواقعة إلى الغرب من برقة .

ونجد كلاً من الادريسي وأبي الفدا يتحدثان عن واحة زالة (وهي واحة زلة في عصرنا الحاضر) ، وهذه الواحة واقعة إلى الغرب من برقة ، وهي فوق ذلك على الطريق الجنوبية المطروقة من المسافرين إلى المغرب والقادمين منه حتى عصر قريب . ثم إن زويلة ليس سوى تصغير للاسم زالة ، فهل حدث تحول في اسمها على هذا الشكل ؟... من الجائز أن يحدث ذلك ، وخاصة بعد نشأة واحة أخرى أصغر منها ، في البداية بالضرورة ، وباسم زويلة أيضاً ، فلعل الناس قد أحدثوا في الأولى وقد كانت الكبرى تكبيراً في الاسم فأصبحت زالة ثم تحولت إلى زلّة بحذف الألف[1] .

واحتمال أن تكون واحة زلة وليس زويلة هي التي بلغها عقبة في حملته الأولى يجعل خط سير هذا القائد أكثر استقامة وأقرب إلى المعقول مما لو كانت هي زويلة ، لوقوع هذه الأخيرة في الجنوب ضاربة في الصحراء ، وعلى غير الطريق المؤدي إلى الغرب ، بينما تقع زلة إلى الجنوب الغربي من اجدابية ، ولا تبعد عنها بأكثر من مسيرة بضعة أيام عبر طريق ممكنة للخيل ، وإلى حد ما ميسورة .

ونخلص من هذا إلى القول باحتمال أن يكون عقبة بن نافع الفهري قد بلغ في حملته الأولى زلة وليس زويلة التي جاوز موضعها جنوباً في حملته الأخرى سنة ست وأربعين للهجرة .

وتبقى حول واحة زويلة مسألة الرواية التي جاء بها الإدريسي ، وزعم فيها أن الذي أنشأ زويلة هو عبد الله بن خطاب الهواري سنة ٣٠٦ للهجرة ، وكنا سنقبل بها لو لم تكن عبارة ابن عبد الحكم حولها نافية لهذا الزعم ، ولو لم يصفها اليعقوبي في البلدان وهو الذي توفي سنة ٢٨٤ للهجرة . ولذلك فإننا

(١) ونجد فكرة التكبير والتصغير هذه شائعة حتى في عصرنا الحاضر بالنسبة للواحات فهناك : البومة والبويمة ، والطلاب والطليليب ، والمعبوص والمعيبص وغير ذلك .

يحتمل أن يكون عبد الله بن خطاب قد شيد بلدة بالقرب من الواحة الأولى أو أنه اتخذ منها عاصمة للإقليم فنسبت في الرواية له أو ما شابه هذا من تعليلات لتفسير الرواية بما لا يتعارض مع الواقع التاريخي المعلوم .

فتح عمرو بن العاص لإقليم برقة :

والآن وبعد أن ناقشنا النقاط الخمس الدائرة حول مسألة الفتح الإسلامي لبرقة وأبدينا آراءنا فيها بكامل الصراحة وبما يتطلبه البحث والتحليل من جرأة الإفصاح نتناول بالحديث رواية الفتح ذاتها ، ولكن في ضوء ما توصلنا في مناقشتنا إليه فنقول أن معظم روايات التاريخ تجمع على أن عمر بن العاص قد توجه بعد أن تم له فتح الإسكندرية في سبتمبر من سنة ٦٤٢ (شوال ٢١ هـ) إلى فتح برقة .

ولما كان من غير المحتمل أن يتوجه إلى فتح بلاد جديدة من غير أن يأتيه الإذن بذلك من الخليفة فان أكبر الظن أن عمراً قد كاتب عمر بن الخطاب يستأذنه في فتحها إما حين التقرير بفتح الإسكندرية وإما بعد ذلك وفي انتظار الإذن من الخليفة بذلك انصرف إلى تنظيم أمر ذلك الثغر ، ولعله لم يغادر مصر غرباً إلا في أواخر سنة ٢١ أو أوائل سنة ٢٢ للهجرة على ما تقدم .

وتقدم عمرو بن العاص نحو إقليم برقة فاتحاً فلم يصحبه غير الخيل (١) ويصعب تقدير عدد فرسان هذه الحملة وإن كان بعض المؤرخين في العصر الحديث يرى أن هذه القوة لم تزد على بضعة آلاف غير أنهم لا يستندون في ذلك على أية حجة أو نص تاريخي وكان من بين قادته في هذه الحملة عقبة ابن نافع الفهري وبر بن أبي أرطاة وغيرهما من مشاهير القواد في التاريخ .

ولا يذكر بعض مؤرخي العرب القدماء ما صادفه عمرو بن العاص وجنده في تلك الحملة من مقاومة ولا يتعرضون لما دار في برقة من قتال ، ربما لأنهم

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وافريقية ص ١٧٠ ، ابن سعيد : المغرب ص ٤٤، والسيوطي في حسن المحاضرة وآخرون .

كانوا يجملون القول في أمر هذا الفتح ولا يفصلون ، بل يكتفون بذكر نتيجته وهي أن عمراً صالح أهل انطابلس على الجزية بشروط عينوها بثلاث نقاط . ولكن البعض الآخر من مؤرخي العرب القدماء أيضاً قال بأن عمراً قد لاقى في حملته هذه مقاومة ، فقد ذكر البلاذري في حديث عن بكر بن الهيثم بسنده إلى عبد الله بن هبيرة أن عمراً صالح أهل انطابلس بعد أن حاصرهم وقاتلهم على الجزية »[1] . وقال غيره إن فتحها كان عنوة وإن الصلح كان عقب ذلك . وهذا القول ينسجم مع المنطق السليم إذ ليس من المعقول أن يتخلى الروم بها عن مقاومة جند الفتح ومحاولة ايقاف زحفه ، كما أنه مما لا يسهل تبريره القول بأن الروم من سكان مركز الإقليم وحاميتها قد تخلوا عن فكرة القتال وآثروا الاستسلام لعمرو بن العاص ، وقد سكتت المصادر التاريخية عنهم وعن دورهم في إقليم بنتابوليس . وليس كذلك من المعقول أن يسلم أهل انطابلس ويرضخوا لشروط الجزية وهي لا تخلو من إذلال دون أن يكونوا قد غلبوا على أمرهم في القتال وفي رد الغزاة اللهم إلا اذا كانت هناك أسباب أقوى حملتهم على القبول بهذه المصالحة والرضا بشروطها المعروفة في التاريخ . وأما ما يقوله بعض مؤرخي العصر الحديث من تعليل في ذلك بأن شهرة جيش الفتح الإسلامي قد سبقته ، وأن فتح مصر واستسلام الإسكندرية قد مهدا لهذا الأمر فقول غريب لا ينسجم مع ما عرف من أمر سكان هذا الإقليم الذين قاوموا الرومان ولمئات السنين دون أن يستسلموا لهم أبداً .

وجد عمرو بن العاص إذن مقاومة في برقة كما وجدها في كل بلاد افتتحها وحاصر المدينة العاصمة في برقة أو إنطابلس وقد سبق القول بأن هذه المدينة لا يمكن أن تكون هي برقة لأنها قد خربت من الفرس قبل ذلك بعدة سنوات بل لا بد وأنها هي بطلميوسة (طلميثة) التي ظلت العاصمة لأكثر من ثلاثة قرون .

وجاء عند الزاوي أن العرب « خربوا أسوار مدن برقة لاغراض

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٦٤ .

حربية »، ثم ذهب يجهد نفسه في تبرير هذا العمل الذي قام جند الفتح به دفاعاً عنهم[1] ونحن لا ندري من أين جاء الزاوي بهذه الأخبار ما دام التاريخ العربي في مجموع نصوصه القديمة لا ينسب إلى عمرو وصحبه أنهم قاموا بشيء من ذلك في برقة ولسبب بسيط هو أنه لم تكن آنذاك بالبلاد أسوار قائمة لمدن عامرة وإنما هناك أطلال منهارة ومدن خربة مهجورة. والمدينة الوحيدة التي يمكن أن يكون عمرو قد حاصرها وقاتل أهلها هي بطلميوسة كما ذكرنا، ومع ذلك فلم يورد أحد المؤرخين بأن عمراً قد هدم أسوارها بل وأبعد من ذلك فلم يذكرها احد بالاسم وإنما انتهينا بأن الحصار كان لها استقراء لاحداث التاريخ السابقة من جهة ولكون الحصار لا يمكن القيام به إلا لمدينة محصنة.

مصالحة عمرو لأهل انطابلس وشروط الصلح ومناقشتها :

ومع أن التاريخ لا يحدثنا في هذا الأمر بالكثير إلا أن المظنون هو أن عمراً قد حاصر بها الروم، وأنهم الذين قاتلهم وأنها التي افتتح عنوة غير أن حنا النقيوسي يذكر أن أغنياء الإقليم لجأوا مع الحاكم (أيوليانوس) وجنوده إلى مدينة حصينة يسميها (دوشيرة)[2] ويعلق بتلر على هذا فيقول: ولكن الظاهر أن حنا يقصد أن يقول إن العرب عجزوا عن فتح (دوشيرة)[3] ودوشيرة هذه هي توكيرة أو «تيوكيرة» ولم تذكر في الفتوح من أي مؤرخ عربي، فاذا كان أغنياء الاقليم قد لجأوا إليها مع الحاكم والجند فإن هذا يعني. أن المدينة التي تخلوا عنها هي مدينة بطلميوسة (طلميثة) التي ظلت طوال العصر البيزنطي عاصمة للإقليم كما سبق القول، ويبدو أن الرومان قد استسلموا بعد ذلك أو أنهم فروا بحراً إذ أننا لا نجد بعد هذا أي ذكر لها في الأخبار التاريخية التالية.

(١) الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٢٢ و ٢٣.
(٢) ص ٥٧٨ نقلا عن بتلر في فتح العرب لمصر ص ٣١٥ هامش ١.
(٣) بتلر فتح العرب لمصر ص ٣١٥ هامش ١.

قــاوم الروم عمر بن العاص إذن فافتتح مدينتهم عنوة . ولكــن لواته أي البربر من سكان الإقليم صالحوه على الجزية في أراضيهم بشروط سنعود إلى مناقشتها ، وهــذا ما نفهمه من قول المؤرخين « صالــح أهل انطابلس » وكونه صالح البربر وقاتل الروم انما يعني أن البربر لم يساندوا البيزنطيين ، وهذا طبيعي لأنهم كانوا معهم على خلاف في معظم الحالات وكون عمرو قد فعل هذا إنما يعني أنه استطاع أن يصل بدهائه – وهو مشهور بالدهاء – إلى معرفة الأسلوب الذي يدخل به البلاد ويستميل به البربر إليه ، وهذا كامن في شروط الصلح مع أهل انطابلس ، ومن الممكن التوصل إليه .

وهناك رأي لم نأخذ به عند عدد من المؤرخين المحدثين (١) استقوه عن رواية مضطربة لابن الأثير في الكامل تذكر مصالحة عمرو بن العاص لأهل برقة في بدايتها قبل فتح طرابلس ثم تعود فتذكر ذلك مرة أخرى بعد عودته من طرابلس مع قصرها على لواته، ولما كان مشهور كل الروايات أنه عقد الصلح مع بربر برقة قبل التوجه لفتح طرابلس وليس بعد فقد استبعدنا أن تكون مصالحة عمرو بن العاص لأهل برقة قد تمت اثناء عودته من طرابلس إلى مصر .

أما شروط الصلح التي يجمع المؤرخون العرب عليها فهي ثلاثة شروط :

الشرط الأول : أن يدفع أهل انطابلس للمسلمين جزية سنوية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار .

والشرط الثاني : أن يسمح لأهل انطابلس ببيع من ارادوا من أبنائهم في دفع تلك الجزية .

والشرط الثالث : أن لا يدخل البلاد جاب وان يتعهدوا هم بحملها إلى بيت المال في مصر .

وهذه شروط لا يمكن أن يكون ممليها جميعاً قائد جيش الفتح ، ولا بد

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣١٥ ، وآخرون

أن يكون التفاوض قد جرى بشأنها قبل ذلك بين الطرفين ، بل إن الشرطين الثاني والثالث منها بالذات لا يمكن أن يصدرا عن عمرو بن العاص فالثاني أمر لم يتكرر حدوثه في أي بلد من البلدان التي افتتحتها سائر جيوش المسلمين ، وهذا يعني أن عمراً لا يمكن أن يقترحه ولا يعقل أن يفرضه ، بل إن الذي يطالب به هو الذي يفيد منه ، وكون هذا الشرط على ما فيه من قسوة ظاهرة قد استمر بعد الفتح دون أن يثور البربر عليه إنما يعني أنهم واضعوه والمتشبثون به ، والغاية منه على ما يبدو لي هو احتفاظهم بحق حرية الاختيار في شخص الذي يباع في سداد الجزية من الأبناء ، وليس هو البيع في حد ذاته وهذا واضح في عبارات بعض المؤرخين دون البعض الآخر الذي ساقه في عبارات تفيد الإلزام بالبيع ربما لأنه رأى فيه شرطاً مفروضاً على البربر من قبل عمرو ابن العاص ولم يكن قادراً على الاحاطة بميزة حق الحرية في الاختيار الواردة به .

واذا كان البربر وليس عمرو هم الذين اشترطوه وتمسكوا بضرورته فلا بد وأن يكون هناك دافع قوي يدفعهم إليه ، وهذا الدافع لا يمكن أن يكون وليد الساعة التي تم فيها التفاوض بين الفريقين بل لا بد وأن يكون سابقاً لذلك ، ولا بد أن يكون له في مجتمع البربر أصل بعيد ، وهذا يعود بنا إلى زمن سيطرة البيزنطيين على البلاد ، وإلى التساؤل عن الكيفية التي كانت تجمع بها الإتاوات المفروضة على أهل إنطابلس من البربر بالذات قبل ذلك حتى يحترز هؤلاء من جيش المسلمين الفاتح بوضع هذا الشرط الذي لا يمكن أن تمليه غير قسوة المسيطرين سابقاً على بلادهم وهم الرومان .

وليست لدينا معلومات عن الكيفية التي يحصل بها البيزنطيون على الإتاوات المفروضة على السكان الذين يخضعون لهم في هذه البلاد بالذات ولكننا نعلم من ديهل أن الموظفين « كانوا يجمعون الضرائب بدقة فيها كثير من القسوة لكي يقوموا بالمطالب المالية الثقيلة التي كانت تنهال عليهم حتى أن دافع الضرائب في كورسيكا كان يضطر إلى بيع أبنائه كعبيد[1] » . وعلى هذا

(1) Diehl : — L'Afrique Byzantine p. 505.

فيمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول بان محصلي الاتاوات من الرومان كانوا يقبضون على ابناء البربر ويسوقونهم رقيقاً في مقابل المستحق على ذويهم من الإتاوات المفروضة .

ولما نعلمه من فساد الإدارة ، وسوء الحكم في هذه البلاد يمكننا تصور أن محصلي الضرائب من موظفي الرومان كانوا يغالطون في المقاضاة ويفقد الأب بسبب هذا كل أو جل أبنائه مقابل إتاوة قد يغني فيها فقد الابن الواحد ولذلك قرن البربر شرطهم الثاني بالشرط الثالث القاضي بأن لا يدخل البلاد جابي خراج حتى لا يتعرضوا من هؤلاء أيضاً لنفس المظالم .

واذا كان الأمر كذلك ، فإن عمراً بن العاص وهو يدرك مخاوف البربر ويقدرها لا بد وأن يكون قد حاول إفهامهم بعدم لزوم مثل هذا الشرط فلما فشل في إقناعهم بعدم الحاجة إليه ، لأن المسلمين لا يلجأون لهذه الأساليب في تقاضي الجزية المفروضة على أهل الذمة ، عاد فأقر لهم به ولمجرد استرضائهم ولاقناعهم بأن الاسلام والمسلمين ليسوا كالروم في معاملة الرعايا من أهل الذمة .

ولم يشر المؤرخون مطلقاً إلى ما يفيد أو يوهم بأن هذا الشرط قد وضع موضع التنفيذ في أية سنة إذ لم يذكر مؤرخ واحد أن أهل انطابلس قد باعوا واحداً فقط من أبنائهم لدفع الجزية المستحقة عن أية سنة من السنوات مما يؤكد هذا الذي ذهبنا إليه من اعتباره شرطاً وضع من البربر ولم يفرضه المسلمون .

والشرط الثالث أيضاً لا يمكن أن يتقدم به عمرو بن العاص لما فيه من تقييد لحرية التصرف بالنسبة إلى حكومته وعملائه ولا بد أن يكون قبوله به على الرغم من هذا استرضاء للبربر ، ودليلاً على حسن نواياه نحوهم ووثوقه فيهم واطمئنانه لهم ؛ ولا بد أن يكون البربر قد اشترطوه على أنفسهم ليأمنوا مما كانوا في السابق يتعرضون له من سلب أموالهم ومحاصيلهم وفقد أبنائهم

بمضاعفة ما كان يستحق من الدفع من الإتاوات والضرائب .

والشرط الوحيد الذي يمكننا نسبته إلى عمرو بن العاص هو الأول والمتعلق بتعيين القيمة بثلاثة عشر ألف دينار وبمعدل دينار على كل حالم فيما يذكره ابن عذارى[1] .

وهذا اذا صح دل على أن عدد البالغين كان فقط ثلاثة عشر ألفاً ، وهو عدد قليل يكفي بالكاد لتعمير مدينة وليس من المعقول أن لا يتجاوز تعداد سكان الإقليم هذا العدد بكثير مما يحملنا على القول بأن الصلح والجزية إنما اقتصرا على من تمسك بدينه ولم يدخل الإسلام ، وعبارة عمرو « ما لاحد من قبط مصر عليّ عهد ولا عقد الا أهل انطابلس » قد تفيد هذا المعنى بما فيها من الاستثناء . وليس هذا فقط بل إن ياقوتا قد نقل لنا رواية عن أحمد ابن محمد الهمداني تقول أن أكثر من بالبلاد قد أسلم فصولحوا على العشر ونصف العشر ، وهذا معناه أن دافعي الجزية كانوا قلة ، وكانوا من المسيحيين .

نقل مركز الإقليم إلى مدينة برقة :

وقد سبق في مناقشتنا للنقطة الخامسة القول بأن عمراً لم يجد مدينة باسم برقة — وهذا اسم المدينة القديم منذ عصر هيرودوت — ولو أنه افتتحها لذكرت بهذا الاسم بالذات وقد سبق في الفصل الأول القول بتدمير الفرس لها ولقورينة ولغيرهما من مدن وقرى هذا الإقليم فمتى عادت هذه المدينة للحياة ؟ .. أغلب الظن أن عمراً او عقبة في عهد ولايته قد نقل إليها مقر حكم الإقليم بعد اعادة بنائها من جديد حتى يبتعد بمركز الحكم فيه عن الساحل حيث كانت تقع بطلميوسة المركز البيزنطي للحاكم الروماني وذلك لسببين : الأول استراتيجي وهو الابتعاد عن البحر حيث لا سيادة بحرية لقوات المسلمين عليه آنذاك ، وحتى لا تداهم المسلمين قوات رومية جديدة

(١) ابن عذارى الأول ص ١ .

من الجائز عودتها لاسترجاع نفوذها على الإقليم . والثاني اجتماعي فبرقة ظلت طوال التاريخ القديم هي المركز الوطني لليبيين ، واعادتها للحياة واتخاذها عاصمة للإقليم إنما يعني تغلب العناصر الوطنية على أمر البلاد .

أما اذا لم يكن عمرو بن العاص أو لم يكن عقبة قد أعاد أحدهما الحياة إلى برقة ، ولم يكن هو الذي نقل إليها مقر الحكم المحلي ، فلا بد أن يكون أهل البلاد انفسهم هم الذين فعلوا ذلك بعد الفتح بمدة وجيزة وللسبب الثاني وحده . وتدهورت قيمة مدينة بطلميوسة بعد ذلك التاريخ وان ظلت ترد في كتابات بعض الجغرافيين والمورخين العرب حتى العصر الحديث .

أعمال عمرو بعد فتح انطابلس :

هكذا تم الفتح والصلح بشروطه بين عمرو بن العاص وأهل انطابلس الذين لم يدخلوا الإسلام . فهل غادر عمرو برقة متجهاً إلى طرابلس من توه ؟ .. أم أنه أقام بها لبعض الوقت ؟ .. من الرسالة التي أوردها البلاذري ، ومن مناقشتنا لها في هذا الفصل توصلنا إلى احتمال أن تكون إقامة عمرو ببرقة قد طالت وامتدت لبضعة أشهر على الأقل أتم فيها عقبة بن نافع فتح بقية البلاد البرقية حتى زويلة التي قلنا في مناقشتنا للنقطة الخامسة بهذا الفصل أنها زلة الواقعة فيما بين مرادة وودان بجنوب منطقة سرت .

وخلال هذه الفترة انصرف عمرو بن العاص ولا شك — كما هي عادته — إلى تنظيم شئون هذه البلاد واحصاء أهل الذمة فيها وتعيين عماله عليها وما إلى ذلك ، وما من شك في أنه أوفد رسوله إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بالفتح والصلح وشروطه ويستأذنه في فتح طرابلس بعد عودة جنده الذي توجه إلى شتى المناطق لاتمام عملية الفتح للإقليم . ونفهم أن عمراً قد كتب بهذه الرسالة إلى الخليفة من عدم إشارته في رسالته المتعلقة بتسيير عقبة لفتح زلة أو زليلة إلى الخليفة لموضوع فتح برقة على الإطلاق وهو أمر لا يمكن تفسيره بغير هذا الاحتمال إذ لا يعقل أن يعلم عمرو الخليفة بأمر إيفاد عقبة

إلى المغرب لاستكمال عملية الفتح ثم يهمل عن قصد أو يغفل ذكر فتح الإقليم ذاته وما تم للمسلمين فيه وما قاموا به من عمل وما تعهدوا به لسكانه من شروط وما فرضوه عليهم من جزية .

استكمال عقبة لعملية الفتح في برقة :

تم لعمرو بن العاص ضم المنطقة الواقعة إلى الغرب من الإسكندرية إلى حظيرة الإسلام وأدخل في رايته ما بينها وبرقة (بطلميوسة) غير أن ما يعرف بانطابلس قديماً لا يزال ممتداً إلى الغرب ولانهاء عملية فتح الإقليم عقد لعقبة على أمرة بعض القوات وسيره غرباً لفتح ما تبقى منه فسار حتى أجدابية فافتتحها صلحاً على خمسة آلاف دينار[1] .

ويبدو أن مدينتي تيوكيرة (توكرة) وبرنيق (بنغازي) كانتا أطلالاً مهجورة أو على الأقل ، تدهورت حالتهما بحيث لم يستحقا أن يذكرا في أخبار الفتح ، وقد كانتا قبل ذلك مدينتين هامتين في الإقليم .

وسار عقبة غرباً مع ميل إلى الجنوب حتى بلغ زويلة التى أصبحت زلّة فيما احتملناه ، فافتتحها هي الأخرى وكانت فيما يبدو من كلام اليعقوبي في كتاب البلدان آخر حد لواته على ما قدمناه أو هي الحد الجنوبي الغربي لبرقة الإقليم ، وبهذا أنهى عقبة بن نافع فتح بقية الإقليم فعاد إلى عمرو بن العاص الذي كان ينتظره في برقة أو في بطلميوسة أيهما كان مركز الإقليم .

ويحدثنا عمرو بن العاص في رسالته عن أخبار هذه الحملة بأن « مَن بين برقة وزويلة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم » كما يخبرنا فيها بأنه أي عمرو قد وضع على هؤلاء ما رأى أنهم يطيقونه ، وعين لهم العمال وحدد لهم

---

(١) يذكر هذا ياقوت في معجم البلدان تحت صوت « أجدابية » ولكنه لا ينسب الفتح لأحد ، ولوقوعها في طريق عقبة الى زلة أو زويلة نسبنا الفتح إليه اجتهاداً .

الأعمال ، كما اخبرنا كذلك بأن عدداً من أهل هذه المناطق قد دخل في الاسلام وأقر مبدأ اداء الصدقة (الزكاة) وأن منهم من آثر دينه فاعترف بالجزية وأداها بالمقدار الذي فرض عليه . وبهذا يمكن القول بأن سائر إقليم برقة قد انضوى تحت لواء الاسلام .

الفصل الرابع

فتح المسلمين لطرابلس

قضية اذن الخليفة بفتح طرابلس وضرورته :

أتم عمرو بن العاص بحملة عقبة بن نافع الفهري الى زويلة (أي زلة)، وبخضوع ما بين هذه وبرقة لحكم الاسلام، فتح جميع الإقليم الذي عرف آنذاك بانطابلس وحتى آخر حدوده التاريخية الاجتماعية (آخر ارض لواته) ولم يبق عليه إلا أن يواصل عملية الفتح فيتجه غرباً نحو طرابلس وافريقية وبقية الشمال الإفريقي، أو أن يكتفي بما تحقق له من فتوح ويرجع إلى مصر. فأي القرارين اتخذ؟ وفي أي الاتجاهين سار؟ وهل رجع إلى الخليفة في ذلك أو صدر فيه عن نفسه ودون الرجوع إلى الخلافة فيه؟

يسكت المؤرخون هنا أيضاً — كما حدث في فتح برقة — عن دور الخليفة في هذا الأمر الخطير فلا يشير أحد منهم إلى أن عمراً بن العاص قد استأذن الخليفة عمر بن الخطاب في فتح طرابلس، ويسوقون الحديث كما لو أن عمراً ابن العاص قد تصرف في شئون الفتح تصرف القائد المستقل الذي لا سلطان للخليفة عليه. ولكننا لا نستطيع أن نأخذ بهذا الرأي في فتح إقليم طرابلس

كما سبق لنا رفضه في فتح إقليم برقة ، ونرى على الرغم من صمت التاريخ أن التراسل بين عمرو وعمر بن الخطاب في العديد من الأمور ، وفي مقدمتها أمر الشروع في فتح الأقاليم كان مستمراً ومتصلاً ولا شك ، لما نعلمه من حرص عمر بن الخطاب على تسيير أمر الدولة الإسلامية الناشئة في إحكام حريص يجعله لا يغفر لعمرو تجاهله له وتصرفه قبل الرجوع إليه في الخطير من أمور الدولة كشئون الفتح على الأقل ، ولما نعلمه من ذكاء ونباهة عمرو ابن العاص ودهائه المانع له من التصرف في خطير الأمور بارادة ذاتية تغفل الخليفة أو تتهاون في استشارته في أهم الأمور .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإنه اذا صح اعتبار إقليم برقة جزءاً من أرض مصر ، وفتحها ليس الا من قبيل فتح مصر (وقدسبق لنا القول فيه أيضاً بأن عمراً لا بد وأن يكون قد استشار الخليفة فيه) فان القول بأن طرابلس أيضاً كانت كذلك زعم باطل لا يستقيم وحقيقة التاريخ ذلك أن طرابلس ظلت قبل الاسلام ثم بعد فتح افريقية متصلة بهذه سياسياً واداريآ اللهم إلا في تلك الفترات التي لا يجتمع أمرهما معاً لسلطان واحد مما يتحتم معه الفصل بينهما .

واذا لم يمكن اعتبار إقليم طرابلس بقية لأراض مصر ، فهو خارج عنها ، والتقدم إليه لفتحه دون استشارة الخليفة أمر يضعب احتمال حدوثه ولا شك . ومن جهة ثالثة فإن بعض الشواهد التاريخية في اخبار فتح ليبيا بالذات ، تسوقنا إلى تأكيد القول بصدور الاذن من الخليفة إلى عمرو بفتح طرابلس قبل اقدام هذا عليه : فقد رأينا عمراً يكتب إلى عمر بتولية عقبة بن نافع الفهري أمر المغرب ويعلمه بما حقق هذا من انتصارات ، وسنراه يكتب للخليفة مستأذناً في أمر فتح إفريقية ، وهي إقليم آخر غير طرابلس ، ويصدع للأمر فيرجع عنه رغم رغبته فيه . فلماذا لا نحتمل أنه استأذنه في فتح طرابلس قبل ذلك وأنه حصل على الإذن منه بالتوجه إليه ؟ ليس ما يمنع من ذلك سوى صمت المؤرخين للفتح عن القول به وهذا في حد ذاته ليس بالمانع الكبير ،

فقد أغفل المؤرخون في جميع عصور التاريخ العديد من تفاصيل الأحداث إما للجهل بها واما اكتفاء بذكر نتائج الأحداث واما افتراضاً لعلم القارئ بها باعتبارها من البديهيات ، ولو أنهم أو بعضهم صرح باقدام عمرو على الفتح دون استشارة الخليفة لصعب الاحتمال .

مغادرة عمرو بن العاص برقة الى طرابلس :

واذا كان فتح برقة قد تم في أوائل سنة اثنتين وعشرين للهجرة (نوفمبر — ديسمبر ٦٤٢ للميلاد) وهذا هو أقوى الاحتمالات كما سبق في الفصل الثالث إيضاحه ، فمتى غادر عمرو بن العاص هذا الإقليم قاصداً طرابلس ؟ لقد رأينا فيما تقدم بالفصل السابق أنه لا بد وأن يكون قد أقام في برقة فترة من الزمن أتم خلالها فتح الإقليم ، وقام اثناءها عقبة بن نافع بفتح الغرب مما يلي برقة إلى زويلة (أي زلة) ولكننا نجهل طول هذه الفترة بالذات ، فهل يمكن تعيينها بالاستقراء ؟ .. إننا نعلم من قصة المدلجي التي سترد أن فتح طرابلس قد حدث زمن الصيف ، أو بعبارة أدق في أيام يشتد فيها القيظ ؛ واذا كانت الأحوال الجوية آنذاك لا تختلف عما نألفه الآن ، وهذا هو الرأي السائد بين العلماء ، فإن فتحها لا بد وأن يكون قد تم في فترة ما تقع بين نهاية إبريل وأواخر سبتمبر ، فهذه هي الفترة التي ترتفع فيها حرارة الجو ، ومعنى هذا أن عمراً بن العاص قد تخلف في برقة ما بين ديسمبر سنة ٦٤٢ وابريل سنة ٦٤٣ م . هذا اذا تم فتح طرابلس سنة ٢٢ للهجرة ، أما اذا تم فتحها سنة ٢٣ هـ . فإن إقامة عمرو بن العاص تكون قد امتدت إلى إبريل من سنة ٦٤٤ للميلاد ، وسيتضح لنا بعد مناقشة المؤرخين في رواياتهم لسنة الفتح أي التاريخين أدعى للأخذ به دون الآخر .

ولما غادر عمرو برقة قاصداً طرابلس ، لا نعرف أي طريق سلك ، فإن التاريخ لا يقدم لنا ما يرشدنا إلى هذا أو يعيننا على التوصل إليه ، فمؤرخو العرب يكتفون بعبارة « سار من برقة إلى طرابلس » ولا يذكرون شيئاً من

المدن أو القرى أو حتى المواضع التي مر بها جند الفتح في طريقه إلى طرابلس . ولو أن بعضهم أشار إلى شيء من ذلك لأمكن ترسم الطريق التي سلكها عمرو ابن العاص في زحفه على طرابلس ، ولتوصلنا إلى معرفة البلاد التي فتحها خلال الزحف . أما والأمر على ما ذكرنا فإننا لا نستطيع أن نصل إلى شيء من ذلك ولو بالاستقراء والتحليل . ولا نلتقي بجند عمرو منذ أن غادر برقة إلا وهو مستقر على الشرفة (وهي المرتفع من الأرض) الواقعة إلى الشرق من طرابلس الحصينة الأسوار .

الاختلاف حول سنة فتح طرابلس :

وكما اختلف المؤرخون العرب حول سنة فتح برقة فانهم لم يتفقوا على السنة التي قام فيها عمرو بن العاص بحملته على طرابلس ، وإن كان مدى اختلافهم هنا أضيق نطاقاً من حيث الزمن من المدى الذي بينهم حول فتح برقة فهم لا يرجعونها إلى ما قبل سنة اثنتين وعشرين للهجرة ولا إلى ما بعد سنة ثلاث وعشرين ، ولعل مرد ذلك إلى الإجماع على أنها فتحت في عهد عمر بن الخطاب ووفاة الخليفة الثاني كانت في نهاية عام ثلاثة وعشرين للهجرة باجماع المؤرخين .

أقوال المؤرخين في سنة الفتح :

ويمكننا تصنيف مؤرخي العرب القدماء إلى ثلاث فئات واحدة تقول بفتحها سنة اثنتين وعشرين للهجرة ، وثانية تقول بفتحها سنة ثلاث وعشرين للهجرة وثالثة تقول بهذا وذاك معاً . فمن الذين قالوا بفتحها سنة اثنتين وعشرين البلاذري في « فتوح البلدان » راوياً عن بكر بن الهيثم عن عبد الله ابن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة (ص ٢٦٦) . وابن الأثير الجزري في « الكامل في التاريخ » أحداث السنة الثانية والعشرين (الجزء الثالث ، ص ١٩) . وممن قال بفتحها سنة ثلاث وعشرين للهجرة : اليعقوبي في « البلدان » (ص ٣٤٦) ، والبكري في « المسالك والممالك » ناقلاً عن

الليث بن سعيد وهو راوية ابن عبد الحكم ولعله مصدره في هذه الرواية (ص ٨ و ٩)، ثم ياقوت الحموي في « معجم البلدان » في « طرابلس »، وابن سعيد في « المغرب في حلى المغرب » (ص ٤٤) وكذلك ابن أبي دينار، والكندي، وابو الفدا، وابو المحاسن، وابن خلدون. أما الذي جمع بين الروايتين فابن عبد الحكم والذهبي وسنعود لمعظم هذه الروايات حين الحديث عن عملية الفتح ذاتها.

مناقشة يوثيقيوس في روايته :

أما يوثيقيوس فإنه يقدم لنا تاريخاً لفتحها سنة اثنتين وعشرين التي تقابل عنده السنة الثانية والعشرين من حكم هرقل والسنة العاشرة من عهد عمر بن الخطاب ويقول بتلر إن يوثيقيوس Eutychius يخطىء كثيراً في ذكر سنة حكم هرقل ولا يمكن الأخذ بها لذلك، وبالفعل فقد رأينا كيف أن هرقل قد غادر بنتابوليس في سنة ٦٠٩ وقد توج امبراطوراً سنة ٦١٠ للميلاد، وهذا يعني أن السنة الثانية والعشرين من عهده هي سنة ٦٣٢ للميلاد بينما السنة الثانية والعشرين للهجرة تقع فيما بين ٣٠ نوفمبر من سنة ٦٤٢ و ١٨ نوفمبر من سنة ٦٤٣، فهناك إذن خطأ مقداره عشر سنوات كاملة في التاريخ الأول الذي قارن به. أما السنة العاشرة من عهد عمر بن الخطاب فلا تبتعد عن سنة ٢٢ للهجرة ذلك أنها تشترك مع سنة ٢٣ فيها، فقد تولى الخلافة في ٨ جمادى الآخرة من سنة ١٣ للهجرة، وعلى هذا فان السنة العاشرة من عهده هي ما يقع بين ٨ جمادى الآخرة من سنة ٢٢ و ٧ جمادى الآخرة من سنة ٢٣ للهجرة. وعلى هذا الأساس فيمكن ضم يوثيقيوس إلى الفئة التي تقول بحدوث الفتح سنة ٢٢ للهجرة.

تحديد سنة الفتح لطرابلس :

والآن وبعد أن استعرضنا مجمل ما قيل في سنة الفتح نناقش هذه الروايات لننتهي فيها إلى رأي خاص بنا على الرغم مما سبق أن انتهى إليه عدد من كتاب

ومؤرخي الغرب في العصر الحديث من الأخذ بقول يوثيقيوس هذا من أن فتح طرابلس قد وقع سنة اثنتين وعشرين للهجرة . وعلى الرغم من مجاراة المؤرخين العرب في العصر الحديث لهم في الأخذ بهذه السنة ذاتها ، حتى نطمئن إلى ما نأخذ به أو ما نرجحه .

وفي نقاشنا لهذا الأمر نبدأ بالنقطة التي أثرناها من قبل ، وقلنا بأن الفتح قد حدث في فترة ما بين شهري مايو وآخر سبتمبر إما من سنة ٦٤٣ وإما من سنة ٦٤٤ م . لنقارن بين هذه الفترة وما قال به يوثيقيوس من أن فتح طرابلس كان خلال السنة العاشرة من عهد عمر بن الخطاب التي قلنا بأنها تبدأ باليوم الثامن من جمادى الآخرة سنة ٢٢ للهجرة وتنتهي باليوم السابع من نفس الشهر من السنة التالية . فنجد أن شهر جمادى الآخرة من سنة ٢٢ هـ يبتدىء بيوم ٢٧ أبريل سنة ٦٤٣ م . وهذا يعني احتمال أن يكون فتح مدينة طرابلس قد حدث بعد ذلك بشهر أو أكثر ، وفي سنة ٢٢ للهجرة .

ونعود إلى مناقشة روايات المؤرخين العرب فنجد أن معظمها يقول بسنة ثلاث وعشرين واذا نحن أخذنا بهذه الروايات القائلة بالفتح سنة ٢٣ وراعينا قول يوثيقيوس من أن الفتح كان خلال السنة العاشرة من عهد عمر بن الخطاب وهذه تنتهي يوم ١٥ أو ١٦ أبريل من سنة ٦٤٤م . وجدنا أننا لا نصل الى زمن القيظ ذلك أن عمراً قد حاصر طرابلس شهراً كاملاً قبل أن يهتدي المدلجي ورفاقه إلى انحسار البحر عن سور المدينة ، وهذا يعني أننا سنجد أنفسنا في أواسط مارس من سنة ٦٤٣ وهي فترة لا تشتد فيها حرارة الجو كثيراً إلى الحد الذي نفهمه من قصة المدلجي ، فإما أن نرد رواية يوثيقيوس ونقول بأن الفتح لم يقع خلال السنة العاشرة من حكم عمر بن الخطاب وإنما بعده وإما أن نأخذ بهذه الرواية ونرد أقوال المؤرخين بأنها فتحت سنة ثلاث وعشرين للهجرة .

وكنا قد انتهينا إلى أن عمراً بن العاص قد فتح انطابلس في أوائل سنة ٢٢

للهجرة . فاذا قلنا بأن التوجه إلى طرابلس وحصارها كانا في سنة ٢٣ للهجرة فمعنى هذا أن فترة إقامته ببرقة قد امتدت إلى أكثر من خمسة عشر شهراً . وهذه فترة طويلة جداً ولا يوجد ما يبررها طالما أن البربر صالحوه على الجزية وهم أهل البلاد الأصليين .

سنة ٢٢ هـ . هي سنة فتح طرابلس :

مما تقدم إذن نجد أن ما قيل من فتح عمرو بن العاص لطرابلس في سنة ٢٢ للهجرة هي أقرب إلى الاحتمال من القول بفتحه لها سنة ٢٣ للهجرة . ذلك أنها تجعل الفتح ممكناً وقوعه في فترة اشتداد الحرارة بين مايو واكتوبر من العام وحادثاً في السنة العاشرة من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولا تطول به فترة بقاء عمرو بن العاص في برقة لأكثر من مدة معقولة وهي تتراوح بين خمسة وثمانية أشهر فقط .

تحديد موضع معسكر جند الفتح :

والآن وبعد أن انتهينا إلى تحديد سنة الفتح بما نستطيعه نواصل الحديث عن عملية الفتح ذاتها مبتدئين بتلك الشرفة والقبة الواقعة إلى الشرق من مدينة طرابلس ،وهي الموضع الذي عسكر به جند الفتح . وقد وردت الإشارة إلى « القبة التي على الشرف من شرقيها » عن ابن الحكم في روايته عن يحيى ابن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد ، وعن عثمان بن صالح . وناقش الطاهر الزاوي هذه الإشارة فقال[1] : « ولا شك أن ابن عبد الحكم يقصد قبة الشيخ عبد الله الشعاب المعروفة الآن ، لأن الشيخ الشعاب توفي سنة ٢٤٣ هـ . وابن عبد الحكم ألف كتابه في النصف الأول من القرن الثالث ، وتوفي سنة ٢٥٧ بعد وفاة الشيخ الشعاب بأربع عشرة سنة ، فمن المعقول أنه روى عمن أخبره بوجود القبة في مكان مرتفع كما هو الواقع فنقل هذه الرواية الصحيحة

(١) الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٣٧ .

كما هو مشهور عنه في دقة النقل » . ونحن لا ننكر الذكاء الذي عولجت به هذه النقطة ، غير أننا نعترض على ما أورد بأن الرواية ليست لابن عبد الحكم وإنما هو يرويها باسنادها إلى الليث بن سعد والى عثمان بن صالح معاً وهذا يذهب بما انتهى الزاوي إليه من فهم القبة بأنها للشعاب وبان عبد الحكم علم بذلك فصحح الرواية ومن غير اشارة إلى ذلك مما لا يستقيم مع عبارة الزاوي التي تصفه بدقة النقل .

ويناقش ايتوري روسي هو الآخر هذه النقطة ، وهو يتحدث عن فتح عمرو بن العاص لمدينة طرابلس في كتابه «تاريخ طرابلس من الفتح حتى سنة ١٩١١ »(١) فيقول : « ولا نعلم ماهية ذلك البناء الذي سمي بالقبة وهل هو مبنى روماني — بيزنطي أم أنه بناء تال لفترة الفتح ووجدت في عهد المؤرخ فحدد بها ، ويحتمل أن يكون هذا الشرف أو المرتفع (الربوة) هي منطقة الظهرة الواقعة إلى الشرق قليلاً من المدينة ، ولكن أغلب الظن أنها تلك الأخرى الأبعد الى الشرق على ساحل البحر حيث بنيت اضرحة الشعاب واسرة القرمانلي ... الخ » .

ويذكر البكري في المسالك(٢) ، بئراً عذبة باسم بئر القبة فيقول : « ... وأعذب آبارها بئر القبة . وذكر الليث بن سعد قال غزا عمرو بن العاص مدينة أطرابلس سنة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة التي على الشرف من شرقيها » . وحديثه عن البئر ثم انتقاله بسرعة إلى موضوع القبة قد يوحي بأن موقعه عند ذلك الموضع بالذات . وقد انتبه روسي إلى هذه الصلة فواصل حديثه عن موضع القبة فأشار إلى مد القرمانليين والإيطاليين للمدينة بالمياه من هذه المنطقة (منطقة الشعاب — الحميدية) .

ومما تقدم جميعه نستطيع أن نحدد المكان الذي عسكر به عمرو بن العاص

(1) Ettore Rossi : — Storia di Tripoli e della Tripolitania dalla conquista araba al 1911 p. 24, nota 4.

(٢) البكري : المسالك والممالك ص ٨ .

بجنده بأنه واقع عند سيدي الشعاب حيث كان برج الحميدية في العهد العثماني الثاني ، وحيث أضرحة القرمانليين الواقعة إلى الشرق قليلاً من فندق المهاري .

سور طرابلس حين الفتح :

وتذكر عدة روايات للمؤرخين العرب أن عمر بن العاص قد هاجم طرابلس ، ولكنه لم يستطع اقتحام أسوارها فحاصرها شهراً دون أن يقدر عليها . ومدينة طرابلس — فيما يبدو — هي وحدها المدينة المحصنة تحصيناً منيعاً ، ذلك أن رواية محاصرته لإنطابلس لم ترد الا عند بعض المؤرخين دون الأكثرية التي قالت بالصلح دون أن تشير إلى أمر الحصار مما يمكن أن يفهم أن محاصرة حاضرة الإقليم لم تطل ولذلك لم يشتهر حصارها في التاريخ شهرة حصار طرابلس .

ويجدر بنا قبل أن نتناول بالحديث نتائج ذلك الحصار وما تم خلاله أن نتكلم قليلاً عن سور طرابلس في تلك الفترة التي وقعت فيها محاصرته من خلال مختلف روايات المؤرخين العرب وغير العرب مبتدئين بعصر الوندال الذين قيل بأنهم هدموا أسوار جميع المدن في طرابلس عدا حاضرة الإقليم « أويات — طرابلس » التي يرى مؤرخو العصر الحديث أنهم ابقوا على سورها لأهمية مينائها الاقتصادية التجارية (١) . أما مؤرخ جستنيان بروكوبيوس فلا يشير إلى سور مدينة طرابلس وهو يتحدث عن أعمال إمبراطوره العمرانية في هذا الاقليم . ويرى بعض المؤرخين في تعليل صمته عنها بأن سورها كان في حالة جيدة وليس في حاجة إلى ترميم ، ولذلك لم يقم جستنيان بأي عمل فيه مما جعل بروكوبيوس لا يذكر شيئاً عنه .

أما مؤرخو العرب فلم يكتب منهم أحد كتابه قبل مضي فترة غير قصيرة على زمن الفتح ولذلك فكتاباتهم مستمدة من روايات مستقاة عن رواة بسند أو من غير سند ، ومن مجموع ما قدموه في وصف المدينة وسورها

(1) Merighi Antonio : — La Tripolitania Antica vol. 1 .Pag 296.

يمكننا آن نتوصل إلى أن السور كان « سور صخر جليل البينان ، وهو يحيط بها من البر أما من جهة البحر فلا سور لها حتى زمن هرثمة بن أعين، القرن الهجري الثاني . ومن رواية للمقدسي حول السور نعلم أن لها أربعة ابواب : باب البحر ، وباب الشرق ، وباب الجوف (القبلة أو الجنوب) وباب الغرب .

وحول مسألة الاكتفاء بتسوير المدينة من جهة البر دون البحر يرى بعض المؤرخين الأوربيين المعاصرين أن الخطر الذي كان يتهدد المدينة باستمرار لا يأت من البحر وانما من اليابسة حيث البربر اعداء الرومان . وهذا التفسير بدهي فليست ثمة خطورة يمكن أن تأتي من البحر ما دامت السيادة البحرية في هذا الحوض لأساطيل الدولة الرومية ثم البيزنطية ولكن الخطر يحدق بأهل طرابلس الرومان من جهات اليابسة لأن البربر كانوا كثيري التحدي لسلطة الرومان والثورة عليهم وعلى حكمهم السيئ الظالم لاهل البلاد .

ومما تقدم نجد أن سور مدينة طرابلس كان مشيداً من الحجارة حصيناً جداً ، ولكنه لا يحيط بها إلا من جهة البر دون البحر وكانت هذه الفرجة فيه نقطة ضعف استغلها المسلمون بعد أن تهيأت لهم أسباب ذلك على ما سيأتي .

محاصرة مدينة طرابلس :

وحول هذا السور أقام عمرو بن العاص شهراً واحداً يحاصرها في معظم الروايات التاريخية ، وبضعة أشهر في بعضها الآخر ، وما كانت طرابلس لتصمد لهم لو أن المسلمين آنذاك كانت لهم قوة بحرية ضاربة ، ولكنهم كانوا في بداية الأمر لا يعنون بذلك كما هو معروف في التاريخ ، وبسببه كانوا يقومون بمحاصرة المدن المسورة من البر دون البحر مما كان يطيل في مدة الحصار ويمد في فترة المقاومة لمن بداخلها من الروم ولا صحة البتة لما يذهب اليه مؤرخو الافرنج في العصر الحديث من أن جند المسلمين كان لا يمتلك أدوات الحرب اللازمة لاقتحام الأسوار ومهاجمة المدن المسورة

ذلك أنهم قد عرفوا الحرب وخبروها بعد الهجرة وتوالي الفتوح ودخول الكثيرين من أهل الأمصار التي فتحت في الإسلام ، واشتراكهم في الجيوش الفاتحة ومساهمتهم بخبراتهم التي اكتسبوها من الروم والفرس معاً في أساليب حروب العصر .

فتح ما بين طرابلس وواحة ودان :

وخلال فترة الحصار لطرابلس سير عمرو بن العاص عدداً من الفرسان تحت إمرة بسر بن أبي ارطاة لفتح ودان وهي واحة تقع إلى الجنوب الشرقي من طرابلس بعدة مئات من الأميال ، ومعنى هذا أن عمراً لم يكتف بمحاصرة طرابلس وينتظر فتحها قبل أن يتوسع في الفتوح بل إنه كان يقوم خلال فترة الحصار بإخضاع الأماكن الأخرى من الإقليم كذلك. واذا نحن راعينا شدة الاختصار في روايات الفتح الإسلامي لهذه البلاد والى درجة الإخلال أدركنا أن عبارة صغيرة كهذه تعي الكثير إذ لا يعقل أن يذهب بسر بن أبي أرطاة وجماعته لفتح ودان وحدها دون البلاد الواقعة قبلها . ولهذا نميل إلى الأخذ بعبارة ابن أبي دينار في كتابه « المؤنس في تاريخ أفريقية وتونس » التي تقول : « وفي اقامة عمرو بن العاص على طرابلس بعث بسرا بن أبي أرطاة ففتح ودان وجبال نفوسة »[1] . فهي أقرب إلى المنطق والواقع الجغرافي اذا نحن فهمنا بأن المقصود من عبارة جبال نفوسة هو ما يقع منها إلى الجنوب الشرقي من طرابلس وفيما بينها وبين ودان وليس سائر الجبل الذي كان يحمل هذا الاسم آنذاك ، والذي افتتحه عمرو بن العاص نفسه بعد طرابلس فيما نفهمه من رواية ابن أبي دينار وغيره من المؤرخين .

وقوف البربر في طرابلس على الحياد في حرب الفتح :

وهنا لا نملك إلا أن نتساءل : اذا كان عمرو بن العاص يبعث ببعض جنده

(١) ابن أبي دينار : المؤنس ص ٢٢ .

لفتح اجزاء من إقليم طرابلس وهو قائم على حصار المدينة ولم يفتحها بعد ، ألا يعني هذا أن البربر لم يتعرضوا له ؟ أو أنهم صالحوه ؟ أو أي أمر آخر ؟ .
إن رواية فتح طرابلس صريحة في أن عمراً لم يحارب عدا الروم ، وذلك في عبارة « فلم يكن للروم منزع الا سفنهم » وعبارة « فلم يفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم »[1] اما البربر فلم تتعرض الرواية لهم بأي ذكر مما يجعلنا نحتمل أنهم قد تخلوا عن موأزرة الروم ، ولم يشتركوا معهم في الحرب ضد المسلمين ، ولا دافعوا عن مدينة طرابلس ، وذلك على الرغم من القول الذي ينفرد به ابن عذارى من أن أهل طرابلس (الروم ؟) استغاثوا بقبيل من البربر يقال لهم نفوسة إذ كانوا دخلوا معهم في دين النصرانية[1] . فنفوسة هم أهل الجبل الغربي ، وقد سيطروا على بلادهم ومنعوا الروم من الاستقرار بها أو التحكم فيها ، ولو أنهم آزروا الروم لطال أمد الحرب ولما اقتصر الصراع على مدينتي طرابلس وسبرة (صبراتة) وحدهما ولما استطاع بسر ابن أبي ارطاة المجازفة بقوة صغيرة نسبياً إلى ودان وفتحها بينما كان عمرو يحاصر طرابلس ولم يفتح بعد سبرة. لهذا جميعه فإما أن يكون المتنصرون من نفوسة قلة شبه منبوذة من بقية السكان ،ولا شأن لها بينهم بحيث أن مساندتهم لأهل المدينة من الروم كانت محدودة ولا خطورة لها ، وإما أن البربر من نفوسة قد أهملوا استجداء الروم لهم فلم يستجيبوا للصراخ ، وإما أن الرواية في مجموعها لا تستند إلى الواقع أساساً .

أما لماذا يتقاعس البربر عن نصرة الروم فأمر يجيب عليه ويسأل عنه الماضي المتراكم من حكم الرومان لهذه الأقاليم ، والذي قدمنا صورة موجزة له في الفصل الأول، كما يمكن تلمسه في صدى المعاملة الحسنة لأهل مصر من الأقباط وصدى الصلح المعقود مع لواته من أهل برقة[2] كما يمكن تفسيره

---

(١) دكتور احسان عباس : تاريخ ليبيا ص ٢٢ ، ابن عذارى الجزء الاول ص ١ .

(٢) وهذا خلاف لما يراه بتلر من أن مصالحة عمرو بن العاص لبربر برقة من لواته كانت بعد فتح طرابلس واثناء عودته إلى مصر وليست قبل ذلك ، بالنظر لمخالفة بتلر بروايته هذه لمجموع ما اورده مؤرخو العرب من روايات في الموضوع .

بنجاح عمرو بن العاص في ابراز حركته العسكرية بأنها مطاردة للروم وحدهم بقصد إبعادهم عن تلك الأقاليم ، وليست موجهة ضد البربر من أهل البلاد نفسها ، أما القول بميل البربر إلى الإسلام نظراً لما في تعاليمه من مساواة وعدل وفضائل وانسانية ، فعلى الرغم من صحة ذلك إلا أنه قول سابق لأوانه ولا يعقل ان يكون البربر في طرابلس أو في برقة قد خبروه وادركوا مزاياه وحقائقه وهم لم يعتنقوه بعد ولا احتكوا بالمسلمين في أي أمر من أموره كدين وكعقيدة .

فتح طرابلس وقصة المدلجي :

حارب عمرو بن العاص إذن الروم دون البربر في طرابلس وحاصرهم بها شهراً أو أكثر من ذلك على خلاف في الروايات التاريخية قبل أن يتمكن من فتحها عنوة.وتروي الكتب التاريخية العربية قصة فتح مدينة طرابلس على الوجه التالي الذي ننقله عن ابن عبد الحكم بروايته عن يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد وعن عثمان بن صالح (ص ١٧١ من فتوح مصر وافريقية) : « ... فنزل على العقبة التي على الشرف من شرقيها فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء ، فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً في سبعة نفر ، فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر ، ثم رجعوا فأصابهم الحر ، فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقاً بسور المدينة ، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور وكانت سفن الروم شارعة في مرساها الى بيوتهم ، فنظر المدلجي وأصحابه فاذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ، ووجدوا مسلكاً إليها من الموضع الذي غاض منه البحر ، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم ، وأبصر عمرو وأصحابه الثلة في جوف المدينة ، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم ، فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم وغنم عمرو ما كان في المدينة » .

مواطن الضعف في هذه القصة :

وهذه الرواية بورودها على هذا الشكل تحمل على التشكك فيها لكثرة علامات الاستفهام التي يمكن أن تطرح حولها ، فمثلاً :

١ ــ هل من المعقول أن يجهل جيش بري يحاصر مدينة لمدة شهر بأمر هذا القصور في امتداد سور المدينة من جهة البحر ؟

٢ ــ وهل المدينة المحاصرة ليست بها حامية من الجند فوق الأسوار لمراقبة قوات المسلمين التي تحاصرهم ؟

٣ ــ وهل من المعقول أن يجازف المدلجي بدخول المدينة في سبعة نفر مقتحماً على العدو ثم لا يفكر في ابلاغ عمرو وجند المسلمين قبل ذلك ولو بان يوفد أحد رفاقه ليفعل ذلك ؟

٤ ــ وهل من الممكن لمعسكر عمرو وهو على بعد لا يقل عن ٢ إلى ٣ كيلومترات أن يشاهد أو يعلم بما يجري في المدينة ويخف لنجدة المدلجي ويدخل المدينة مخترقاً أسوارها (عامل الزمن) ؟

٥ ــ وهل من المعقول أن يصاب من في المدينة بالهلع ويسارعوا إلى مراكبهم من سبعة نفر دخلوها . وفي وضح النهار (لو كان الأمر ليلاً لاحتمل) ؟

شك قدماء المؤرخين فيها :

هذه الأسئلة وغيرها تجعل المؤرخ يتشكك في أن تكون الأحداث قد جرت على هذا الشكل ، وبالتالي فإن بعض المؤرخين في العصر الحديث يردها من الأساس ويرون فيها وفي أمثالها مجرد أساطير شعبية دخلت التاريخ ، ويبدو لي أن بعض قدماء المؤرخين أيضاً رأوا ما يقرب من هذا وان لم يصرحوا به إلا أن رواية الخبر بطريقة أخرى تشعرنا بعدم تقبلهم له ، ومن هؤلاء البلاذري في « فتوح البلدان » الذي يروي خبر فتح طرابلس على

الوجه التالي : « ... فحدثني بكر بن الهيثم عن عبد الله بن صالح عن معاوية ابن صامح عن علي بن أبي طلحة قال : « سار عمرو بن العاص حتى نزل أطرابلس في سنة اثنتين وعشرين فقوتل ثم افتتحها عنوة . وأصاب بها أحمال بزيون (اقمشة) كثيرة مع تجار من تجارها فباعه ثم قسم ثمنه بين المسلمين » . فهو في هذه الرواية لا يشير إلى كيفية الفتح وانما يستبعدها من الحديث مكتفياً بجملة فقوتل ثم افتتحها عنوة » . ومنهم أيضاً ابن سعيد في « المغرب في حلى المغرب » (ص ٤٤) الذي يروي أحداث الفتح كما يلي : « ... سار عمرو ابن العاص حتى نزل اطرابلس في سنة ثلاث وعشرين. فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء إلى أن وجد فرصة من جهة البحر ، فدخلها عليهم وغنم ما كان في المدينة » . وفي رواية ابن سعيد هذه ما يوحي بوحدة الأصل للروايتين هذه ورواية ابن عبد الحكم حتى قول ابن سعيد « فحاصرها شهراً لا يقدر منهم على شيء » كما أن قوله : « إلى أن وجد فرصة من جهة البحر » ليس غير تلخيص لقصة المدلجي الواردة عند ابن عبد الحكم استبعد منها كل ما كان سبباً في إثارة التساؤلات التي طرحناها حول القصة الأمر الذي يدل في وضوح على أن ابن سعيد أيضاً كان لا يقبل بتلك القصة المروية من ابن عبد الحكم والمنقولة بأمانة عنه من ابن الأثير (١) وياقوت (٢) والبكري (٣) وسواهم .

مصالحة عمرو لأهل طرابلس :

وقد أجمعت كافة الروايات التاريخية العربية على أن مدينة طرابلس لم تفتح صلحاً وإنما افتتحت عنوة وبعد حصار إلا رواية واحدة شذت على هذه ، ووردت عند البلاذري (٤) وفيها : « حدثني عمرو الناقد قال : حدثنا

---

(١) الجزء الثالث من الكامل في التاريخ ص ١٩ .
(٢) الجزء الثالث من معجم البلدان ص ٥٢١ (طرابلس) .
(٣) المسالك والممالك ص ٨ و ٩ .
(٤) فتوح البلدان ص ٢٦٦ .

عبد الله بن وهب عن الليث بن سعد ، قال : حدثني مشايخنا أن أطرابلس فتحت بعهد عمرو بن العاص » والغريب في هذه الرواية أنها وردت عن الليث ابن سعد الذي أرجعت إليه رواية ابن عبد الحكم ، وصدورهما وان بسندين عن مصدر واحد ، لا يمكن أن يؤخذ على أنه تناقض في الرواية بل الأجدر بنا الوقوف عند هذا الأمر حتى نصدر فيه عن روية وتعقل .

من الواضح هنا أيضاً أن الاسم مشترك بين المدينة (الحاضرة) وبين الإقليم ، فكلاهما طرابلس أو اطرابلس كما هي الحال في برقة المدينة وبرقة الإقليم وانطابلس المدينة (طلميثة) وانطابلس الإقليم ، ولا جدال في أن مدينة طرابلس المسورة قد حوصرت شهراً أو أكثر ثم فتحت عنوة ومن غير عهد أي دونما إتفاقية صلح ، ولكن رواية الليث بن سعد الثانية لا تشير إلى مدينة طرابلس وانما إلى إقليم طرابلس وهذا غير تلك ، وكون عمرو قد افتتح اطرابلس (الاقليم) بعهد لا يتعارض مع فتحه لمدينة طرابلس عنوة وباخراج الروم . وهذه الرواية التي يقدمها لنا البلاذري من بين سائر المؤرخين تكشف لنا عن الحقيقة التي سبق أن لمسناها في برقة وتحسسناها في طرابلس دون أن نصل إليها وهي أن عمر بن العاص لم يحارب غير الروم ولكنه صالح البربر في طرابلس كما صالح البربر في برقة وان كانت رواية البلاذري تقتضب فلا تشير إلى شروط الصلح ، مما جعلنا نعجز عن فهم ماهيتها وهل تتفق أو تختلف عن تلك الشروط المعقودة مع بربر برقة .

رأينا في قصة فتح طرابلس :

ونعود بعد هذا إلى مناقشة رواية بن عبد الحكم في فتح طرابلس المدينة لنحدد موقفنا من قصة المدلجي تلك :

ما من شك في أن القصة لعب بها خيال شعبي ، صور قصة الفتح على شكل يبرز بطولة المدلجي وصحبه من جهة ، ويجعل للقدر او للحظ نصيباً ملحوظاً في هذا الأمر . ولكن لا بد وان يكون في عناصر القصة ذاتها ملامح

من حقيقة قامت عليها منذ البداية . ويمكننا البحث عن تلك الملامح في الارتفاع بالفكر القيادي للعرب الفاتحين إلى المستوى الذي يجب أن يكونوا عليه ، وهذا يحملنا على القول بأن المدلجي وصحبه لم يكونوا في رحلة صيد ، وان تسللهم إلى المدينة لم يحدث صدفة ، وإنما كانوا يقومون بعملية فدائية مكلفين من قبل القيادة بها بعد دراسة دقيقة للموقع وتحصيناته وما إلى ذلك ، كما أن اختيار فترة الظهيرة بالذات وهي الفترة التي يشتد فيها الحر إلى درجة لا تطاق لا بد وأنها درست هي الأخرى كأنسب الأوقات للتسلل إلى داخل المدينة نظراً لأن الناس تهرب منها إلى الأماكن المسقوفة وتكاد حركة الناس في المدينة أن تتوقف ، الأمر الذي يسمح للقلة المتسللة من القيام بالمهمة الاساسية الموكولة اليها والتي تقتصر فيما اتصوره شخصياً في محاولة الوصول إلى احد الأبواب وفتحه في الوقت الذي يكون فيه عمرو ابن العاص وجنده قائمون بالهجوم في تلك الجهة بالذات .

والقصة بهذا المعنى تصبح مفهومة ومعقولة وممكنة وقد تكون هذه هي حقيقتها غير أن الرواية لم تحط بما خفي منها فجاءت بها على ما تخيله البعض من الصدف وابراز دور المدلجي وكأنه بطل الفتح أو بعبارة أخرى رويت القصة باسلوب شعبي يغفل دور القيادة في حوادثها ومثل هذا مألوف في روايات سائر القصص الشعبي لاحداث التاريخ .

ويتعرض الطاهر الزاوي لهذه القصة مناقشاً صاحب كتاب فتح العرب للمغرب في تشككه حولها واحتماله للبس فيها محاولا اثبات صحتها بالتدليل على ذلك بوصف لطبيعة الأرض في ارتفاعاتها وفي أبعادها وما إلى ذلك ولكنه مع هذا لم يقدم ما يقنع الباحث المدرك للمواقع التي يشير إليها(١)

ومهما يكن من أمر هذه القصة ومن الطريقة التي تم بها للمسلمين اقتحام الأسوار فإن المدينة قد فتحت مع آخر النهار ولا شك كما تشير إلى ذلك

(١) الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٣٨ و ٣٩ .

أخبار فتح مدينة سبرة في اليوم التالي ، وغادرها من الروم من لحق بالسفن الراسية بالميناء وغنم المسلمون ما في المدينة على عادة واسلوب ذلك العصر في مغانم الحروب .

فتح صبراته :

وما أن تمت لعمرو بن العاص السيطرة على مراكز القوة في المدينة حتى فكر هذا في القضاء على قوة الروم الباقية في غرب الإقليم ، في حركة عسكرية بارعة دلت على مقدرته الفذة في القيادة ، فقد بادر بارسال قوة من جنده ، في نفس الليلة التي تم له فيها فتح مدينة طرابلس إلى مدينة سبرة (صبراته) الواقعة إلى الغرب من طرابلس بقصد مفاجأتها قبل أن يصل الخبر إلى من فيها بالاستيلاء على طرابلس فيتحصنون داخل أسوارها الحصينة . وقد روت الخبر جميع المصادر التاريخية العربية على هذا النحو ، فابن عبد الحكم يذكر أن من بسبرة كانوا متحصنين « فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة أطرابلس ، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً ولا طاقة له بهم أمنوا ، فلما ظفر عمرو بن العاص بمدينة أطرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة سبرة ، وقد غفلوا ، وقد فتحوا ابوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها ، فلم ينج منهم أحد ، واحتوى (جند) عمرو على ما فيها : ورجعوا إلى عمرو »[1] . وابن الأثير يرويها بنفس العبارة تقريباً اذ يقول : « وكان أهل حصن سبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس ، فلما امتنعوا عليه بطرابلس أمنوا واطمأنوا ، فلما فتحت طرابلس جند عمرو عسكراً كثيفاً وسيره إلى سبرة فصبحوها وقد فتح أهلها الباب واخرجوا مواشيهم لتسرح ، لأنهم لم يكن بلغهم خبر طرابلس فوقع المسلمون عليهم ودخلوا البلد مكابرة ، وغنموا ما فيه وعادوا

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وافريقية ص ١٧١ .

إلى عمرو »[1] ولا تختلف روايات المؤرخين العرب حول فتح سبرة إلا من حيث اللفظ كما سبق وأن رأينا بين ابن عبد الحكم وابن الأثير .

اللهم إلا رواية نعثر عليها عند التجاني تزيد على هذه المعلومات أن قائد الحملة على صبرة كان عبد الله بن الزبير ، وأن خيله حين استولت عليها لم ينج من أهلها أحد إلا ناس قلائل توجهوا في مراكب لهم إلى صقلية وأن عمر بن العاص لما رجعوا إليه قد أمرهم بهدمها وإحراقها[2] . ولا نعلم المصدر الأول الذي استقى منه التجاني هذه الزيادات في الرواية .

لبدة لم تذكر في اخبار الفتح الاولى :

وهكذا لم ينقض اليوم الثاني إلا وقد سيطر المسلمون على مدينة سبرة أيضاً ، ولم يبق أمام عمرو بن العاص من الإقليم ما يشكل خطراً على قوة الفتح فيه ذلك أن المدن الهامة به طوال تاريخه القديم كانت ثلاثاً هي « أويا » او « أويات » وهي طرابلس ، و « صبراته » أو « سبره » و « لبتس مانيسا » أو « لبدة » ومنها استمد الإقليم اسمه في العهد الروماني « تريبّا بوليس » ، « تريبوليس » أي المدن الثلاث وبه عرف ويعرف حتى اليوم طرابلس . وقد تم لعمرو بن العاص في جند المسلمين فتح مدينة طرابلس التي كانت حاضرة الإقليم آنذاك ، وفتح مدينة سبرة في اليوم التالي ، أمـــا مدينة « لبتس مانيسا » أو لبدة ، فلم يرد لها ذكر في أخبار الفتح الأولى مما يحمل على الظن بأن ثورة البربر على سرجيوس الروماني[3] قد اتت على العمران فيها بصورة قضت عليها كمدينة ذات شأن في الاقليم .

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جزء ٣ ص ١٩ .

(٢) رحلة التجاني ص ٢١٢ .

(٣) راجع ذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب .

قضية هدم أسوار المدن المفتوحة :

ويشير الزاوي إلى خبر هدم الأسوار بالنسبة إلى كل من مدينتي طرابلس وسبره وهي الرواية التي وردت عن التجاني في الرحلة حول سور طرابلس وقال فيها : « ... واحتوى عمرو على المدينة فهدم سورها ، وارتحل عنها ، ثم جدد بناء سورها من جهة البر على يد عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية في آخر دولة بني أمية سنة اثنتين وثلاثين ومائة ..... »[١] وحول سور ومدينة صبرة ما سبقت الإشارة إليه .

ويحاول الزاوي أن يوجد لهذا العمل مبرراً فيقول : « وقبل أن يغادرها (أي طرابلس) المسلمون هدموا سورها ، لأنهم يخافون من انتقاض الروم عليهم ، وتحصنهم بالسور ، خصوصاً وأن المسلمين كانوا قليلين بالنسبة للروم وانصارهم ، وكان العرب حديثي عهد بالبلاد ، وكانت عاصمة المسلمين التي يأتيهم منها المدد بعيدة ، وهي اذ ذاك المدينة المنورة . وكل هذه مبررات لتخريب الحصون وهدم الأسوار .. »[٢] ثم يقول عن صبراته « ... وقد هدم سورها خوفاً من تحصن الروم به مرة ثانية .... وقد خربوا سورها للاسباب التي ذكرناها آنفاً . » ونحن لا نرى رأيه الذي ذهب إليه هنا في مسألة هدم أسوار المدن التي فتحت من قبل المسلمين . كما أننا لا نثق في رواية التجاني هذه أساساً لأن من سبقه من مؤرخي العرب لم يشر إليها حين الحديث عن الفتح وهي من ذلك النوع الذي لا يغفل عادة ، كما أن التجاني من جانب آخر لم يعين مصدره فيهما معاً .

أما لماذا يهدم المسلمون أسوار المدن التي يفتحونها فلأمر آخر غير الذي يشير اليه الزاوي بالنسبة لهاتين المدينتين وقد أشار إليه وبنفس التعليل مؤرخون آخرون في العصر الحديث من الإفرنج بالنسبة لمدن طرابلس وافريقية التي

(١) التجاني : رحلة التجاني ص ٢٣٩ .
(٢) الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٤٠

هدمت من الوندال . والذي أراه أنا في هذا الأمر هو أن اسوار المدن لم تبن أصلاً إلا للدفاع عمن بداخلها من تلك الهجمات التي يشنها عليهم البربر من خارجها ، وقد استدل على هذا من ترك المدن مفتوحة ومن غير أسوار من جهة البحر كما سبق وأن رأينا هذا في طرابلس بالنص ، وكما نشاهده من آثار عدة مدن أخرى غيرها تقع على الساحل كطلميثه وتوكرة في برقة . وما من سبب يدفع من يسكن حولها إلى مهاجمتها في الحقيقة ، غير قسوة الحاكم وجبروته وفساد الحكم وسوء الادارة ، ولذلك كانت الأسوار بالنسبة لحكام الرومان والبيزنطيين هي الشغل الشاغل ، وكانت محاصرة البربر لهم ومهاجمتهم في تلك المدن هي الطابع الغالب على أحداث العهد الروماني — البيزنطي جميعه .

ولقد كانت سياسة قادة وجند الفتح تختلف اختلافاً كلياً عن سياسة الحكم الروماني — البيزنطي ، فهؤلاء الرومان كانوا غزاة مستعمرين ، يريدون أن تكون لهم السيادة في الأقاليم المحتلة ، وأن يكون أبناء تلك البلاد مجرد رعايا مسخرين لخدمة السادة من الرومان ، ولذلك وجدوا الحاجة ماسة إلى إقامة الأسوار حول المدن لحماية السيد من ثورات المسترَقين من أهل البلاد وصدهم عنها حتى يصل المدد من أقاليم أخرى هادئة فيستذل الثوار ويسترقون من جديد . أما المسلمون فقد كانت لهم سياسة تختلف بل وعلى النقيض من هذه . تفصح عنها شروطهم الثابتة : الاسلام أو الجزية فإن قبل بهما والا فالحرب . وفي الحالين تتلاشى الفروق بين الحاكم والمحكوم ويصبح لأهل البلاد المفتوحة وعليهم ما للمسلمين الفاتحين وما عليهم في الحقوق وفي الواجبات . ولذا فليست بالفاتح حاجة إلى حماية نفسه بالأسوار .

وقد سبق أن أشرنا في هذا الفصل وفي الفصل السابق أيضاً إلى أن عمر ابن العاص قد صالح البربر في الاقليمين برقة وطرابلس على ما يرغبون بعد الاقرار بالجزية ، فلماذا لا يكون هدم اسوار المدن جزءاً من سياسة

الإسلام القائمة على أساس الامتزاج الكامل بين الحاكم والمحكوم ، ورفع كافة الحواجز بينهما بما في ذلك أسوار المدن التي لم تشيد أصلاً إلا لتقي الحاكم من سورة غضب المحكوم .

إن هدم الأسوار بهذا المفهوم الذي لا يقتصر على اهتمام المسلمين بالمحافظة على ما افتتحوه من بلاد ، وانما هو يتسع ليصبح جزءاً من سياسة عامة سارت عليها الدولة الإسلامية في أول عهدها ، لمفهوم يمكن أن يعيننا على إدراك سرعة انتشار الإسلام بين البربر ودخولهم فيه ، وأن يحسب عاملاً مهماً من عوامل تداخل البربر في العرب وامتزاجهم حضارياً واجتماعياً بهم في وقت جد قصير .

رسالة عمرو إلى الخليفة :

ولما فتحت طرابلس وسبرة أرسل عمرو بن العاص رسوله إلى الخليفة عمر بن الخطاب بكتاب يبشره فيه بالفتح ، ويستأذنه في غزو إفريقية ، وقد أورد البلاذري نص هذا الخطاب على النحو التالي : « إنا قد بلغنا أطرابلس ، وبينها وبين إفريقية تسعة أيام ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل »[١] .

وقد وردت هذه الرسالة بنفس النص تقريباً عند ابن سعيد في : « المغرب في حلى المغرب » ولا تختلف عنها إلا في قول عمرو في آخرها ، فهو هنا يقول : « فان رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل »[٢] .

أما ابن عذاري فقد وردت هذه الرسالة عنده بالنص التالي : « وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يخبره بما أفاء الله عليه من الفتح والنصر ، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية ، وملوكها كثير وأهلها في

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٦٦ .
(٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ص ٤٤ .

عدد عظيم ، وأكثر ركوبهم الخيل »[1]

وهذا دليل آخر على صحة ما ذهبنا إليه من أن عمراً كان لا يصدر فيما كان يأتيه من أعمال الفتح عن نفسه وأنه كان يبعث للخليفة بالكتاب إثـر الكتاب يعلمه فيها عن التقدم والفتح الذي تحقق له ويستأذنه في مواصلة الفتح أو هو يستشيره في ذلك ويمكث في انتظار أمره شاغلاً نفسه بإتمام عمليات الفتح كما فعل في برقة حين توجيهه لعقبة إلى المغرب وكما فعل هنا حين توجهه لفتح الجبل الغربي أو جبل نفوسة كما كان يعرف آنذاك .

فتح نفوسة :

ورواية فتح عمرو بن العاص لجبل أو لجبال نفوسة لم ترد عند سائر المؤرخين العرب ، وإنما عند البعض منهم فقط ، ومن بين هؤلاء ابن أبي دينار في « المؤنس » وقد وردت عنه في اقتضاب « فغزى مدينة طرابلس وفتحها ، وافتتح جبال نفوسة ، وكانوا على دين النصرانية ، كل هذا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في سنة ٢٣ »[2] . ومنهم أيضاً البكري في « المسالك والممالك » وقد وردت عنده اثناء حديثه عن مدينـــة شروس فقال : « ... وافتتح عمرو بن العاص رحمه الله ، نفوسة ، وكانوا نصارى ؛ ومن نفوسة رجع عمرو بكتاب عمر رضي الله عنه »[3] ومن هذه الإشارة من البكري إلى عودة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر عمر بن الخطاب الذي رد به على استئذان عمرو في غزوة إفريقية ندرك أن فتح عمرو لجبل نفوسة أو ربما لمدينة شروس باعتبارها أهم مدنه كما يريد الزاوي في « تاريخ

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جزء أول ص ٨ من طبعة بروفنسال وجزء أول ص ٢ من طبعة بيروت مع اختلاف في رواية آخر الرسالة إلى « وملوكها كثيرة ، وأهلها عديدون ، واكثر ركوبهم الخيل » .

(٢) ابن أبي دينار المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، ص ٢٢ .

(٣) البكري : المسالك والممالك ، ص ٩ — ١٠ .

الفتح العربي في ليبيا » (صفحة ٤٤) قد استغرق بعض الزمن وبما يكفي وصول خطاب عمرو إلى الخليفة وعودة الرسول بالرد عليه وهو ما يقدر بثلاثة إلى أربعة أشهر .

رد عمر بن الخطاب على الرسالة :

وكان رد الخليفة عليه فيما قدمه بعض المؤرخين ، هو : « ... فكتب (أي عمر بن الخطاب) إليه ينهاه عنها ويقول : ما هي بافريقية ، ولكنها مفرقة ، غادرة ، مغدور بها »[1] . ثم فسر البلاذري هذا القول بما يلي : « ... وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً ، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم ، وكان خبرهم قد بلغ عمر »[2] . وملك الروم هو الامبراطور البيزنطي وملك الأندلس هو ملك الوندال القادمين من إسبانيا واحداث تاريخ فترة الصراع بين الروم والوندال والبربر قد رويت في الفصل الأول من هذا الكتاب بما فيه الكفاية .

عودة عمرو بن العاص إلى مصر :

ويتشكك كايتاني في حوليات الاسلام في صحة هذه الرواية ويرى أن عمراً قد أذاع ذلك ليعود بصحبه إلى مصر في الوقت الذي كانوا هم فيه يأملون في المزيد من الغنائم والحروب، وهذه فكرة خاطئة لديه بناها على ما سبق لنا مناقشته في أول الفصل الثالث من هذا الكتاب ، وعلى رواية تقول بأن المقوقس (مصر) قد كتب إليه بأن الروم قد يحاولون إستعادة مصر ونقض الصلح ، وذلك لأن بين عمرو وهذا عهداً بألاّ يخفي عليه شيئاً من أمر الروم . وقد نسب هذه الرواية إلى ابن عبد الحكم ، ولكن بتلر يرفض قصة هذه الرسالة ويقول : « والعبارة الأخيرة لا شك في أنها غير صحيحة فقد مات المقوقس

(١/٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٦٦ .

قبل ذلك » ...[1]

والثابت لدى عامة المؤرخين العرب أن جند المسلمين لم يجاوز إقليم طرابلس في تلك الحملة الأولى ، وأن عمر بن العاص رجع إلى مصر بعدها ممتثلاً لأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند من جاء بذكر الرسالتين منهم . وبهذا انتهت الجولة الأولى في حروب فتح الشمال الافريقي .

وكنا قد بحثنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب التاريخ المحتمل لبدء عمرو ابن العاص زحفه من مصر إلى برقة ، وانتهينا فيه إلى احتمال وقوع ذلك في أوائل عام ٢٢ للهجرة ، وفي هذا الفصل الرابع منه انتهينا إلى احتمال أن فتح طرابلس كان في نفس العام . ولكن التوسع بالفتح إلى جبال نفوسة قد امتد ولا شك إلى سنة ٢٣ للهجرة ، ذلك أننا اذا قدرنا الزمن اللازم لوصول رسول عمرو بن العاص المبشر بفتح طرابلس وصبره إلى المدينة المنورة وعودته منها برد الخليفة السلبي على استئذان عمرو بفتح إفريقية ، وقد سلم إلى عمرو وهو لا يزال بعد في بلاد نفوسة حسب رواية البكري ، فإنه يتعذر علينا حشر احداث فتح برقة ، والاعلام به ، وفتح طرابلس ، والتبشير به ، وفتح نفوسة ، في سنة واحدة ، على ما سيأتي ، وإذن فلا بد وأن عمر بن العاص قد عاد من ليبيا إلى مصر في أو بعد سنة ٢٣ للهجرة .

وإذا كانت نصوص التاريخ لا تقدم لنا أية معلومات تمكننا من محاولة احتمال تاريخ محدد لعودته إلى مصر ، فقد حاول بعض المؤرخين في العصر الحديث تحديد هذا الزمن ، ولكنهم لم ينتهوا فيه إلى شيء يمكن قبوله ، فمن قائل بأن عودته كانت سريعة إلى قائل بأنه لم يرجع إلى مصر إلا في سنة خمس وعشرين للهجرة ولا نرى نحن مبرراً لإطالة بقائه في ليبيا بعد فتح نفوسة سنة ٢٣ للهجرة الا بمقدار ما يكفي لاستكمال عملية الفتح وترتيب أمر الدفاع عن البلاد المفتتحة وتنظيم أمورها وتعيين العمال لها ، وهذا لا يحتاج من مثل

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٣١٥ هامش ٤ .

عمرو بن العاص الى كبير زمن ، بالنظر لبساطة التنظيم الإسلامي وعدم تعقده آنذاك ، ولكون عمرو بن العاص كقائد وكوال لا يغرق نفسه في التفاصيل ، وعلى أساس ما استغرقه هذا العمل منه في مصر وفي برقة قبل ذلك .

الفترة التي استغرقها فتح برقة وطرابلس ومناطق الجنوب :

عاد اذن عمرو بن العاص إلى مصر بعد استكماله لعملية فتح ليبيا باقليميها برقة وطرابلس معاً ، فكم هي المدة التي استغرقها هذا الفتح منه ؟ إن الجواب على هذا يتطلب منا القيام بالتقدير النظري وحساب الزمن اللازم لكل حركة ، ما دامت نصوص التاريخ لا تعيننا في هذا الأمر كثيراً . وللوصول إليه نقدم هذا الجدول للتتابع الزمني لتحركات عمرو بن العاص منذ فتح الإسكندرية باعتباره نقطة البداية المحددة التاريخ ، مقدرين لكل حركة قام بها أو احتملنا قيامه بها بالتقريب :

١٧ سبتمبر ٦٤٢م (١٦ شوال ٢١ هـ) :

دخول المسلمين إلى مدينة الإسكندرية بعد انتهاء فترة الهدنة المعقودة مع الروم قبل ذلك بأحد عشر شهراً[١] .

٣ نوفمبر ٦٤٢م (٤ ذو الحجة ٢١ هـ) :

عودة رسول عمرو بن العاص إليه بعد أن بشر بالفتح للإسكندرية ، واستأذن الخليفة في فتح برقة وذلك على أساس أن ما يستغرقه في السفر منها إلى المدينة المنورة هو عشرون يوماً ، واقامة اسبوع واحد يستريح الرسول فيه من عناء السفر ويعد فيه عمر بن الخطاب جوابه الذي كان ولا شك بالإذن لعمرو في ذلك بعد استشارة الخليفة لكبار الصحابة كما هو متبع في مثل هذه الحالات . وهذا يعني أن المدة اللازمة كانت ٤٧ يوماً على الأقل .

(١) راجع بتلر في فتح العرب لمصر (ص ٢٦٩) ، وراجع ايضاً كايتاني في حوليات الاسلام (في الايطالية) احداث سنة ٢٠ هـ ، فقرة ٢١٤ منها .

٣ ديسمبر ٦٤٢ م (٤ محرم ٢٢ هـ) :

بدء عمرو بن العاص بالزحف على برقة بعد تقدير شهر له في الاعداد للحملة ، وفي تدبير أمر مصر وادارتها أثناء فترة غيابه عنها . على أساس أن تنظيم أمور البلاد المصرية قد استغرق منه شهرين ونصف بعد فتح الإسكندرية ، إذ أن فترة الشهر ونصف التي استغرقهـا الرسول لا يمكـن أن تكفي عمراً لذلك .

٢ يناير ٦٤٣ م (١٤ صفر ٢٢ هـ) :

وصول عمرو بن العاص بجيشه إلى عاصمة انطابلس التي احتملنا أنها طليمثة ، باعتبار أن المدة التي استغرقها في الزحف إليها هي أربعون يوماً بزيادة عشرة أيام فقط عما يحتاجه قاطع المسافة في الظروف العادية ، من الإسكندرية إلى تلك المدينة ، ونحتمل أن عمراً قضاها في التغلب على المقاومة التي صادفته في طريقه ولا شك وفي فتح ما مر به من مناطق في طريقه تلك .

٣١ يناير ٦٤٣ م (٤ ربيع الأول ٢٢ هـ) :

اتمام عمرو بن العاص لعملية فتح برقة ومفاوضة البربر في الصلح وشروطه مع البربر ، باعتبار أن هذا جميعه لم يستغرق منه سوى المدة الباقية من الشهر وهي ١٩ يوماً فقط .

١٧ مارس ٦٤٣ م (١٦ ربيع الثاني ٢٢ هـ) :

المدة التي استغرقها عقبة بن نافع الفهري في فتح ما بين برقة وزويلة (التي احتملناها زلة) من بلاد ، وفي تدبير أمورها على الشكل الوارد في رسالة البلاذري وقد حددناها تقديراً بخمسة وأربعين يوماً فقط منها ما يقرب من ٢٠ يوماً يحتاجها في السفر إليها والعودة منها لو قام بذلك في الظروف العادية ، وهذه مدة لا تكفي لو أن التي افتتح هي زويلة بالفعل وليست زلة .

٢ يوليه ٦٤٣ م (٨ شعبان ٢٢ هـ) :

عودة رسول عمرو بن العاص إليه بعد أن بشر بالفتح لبقية برقة حتى زويلة أي زلة ، واستأذن الخليفة في فتح طرابلس ، وقد قدرت على أساس أن ما يحتاجه المسافر في قطع المسافة بين برقة والمدينة هي ٥٠ يوماً ، ومثلها عودة مع إقامة اسبوع واحد يقضيه الرسول في الراحة وعمر بن الخطاب في اعداد الرد بعد استشارة صحبه في التوسع بالفتح إلى طرابلس بعد برقة .

وخلال هذه المدة الممتدة فيما بين أول فبراير وأول يوليه (خمسة أشهر) لا بد وأن عمراً قد أتم عملية الفتح للبلاد ونظم شئونها وأعد عدته لمواصلة الزحف على طرابلس .

٣١ يوليه ٦٤٣ م (٨ رمضان ٢٢ هـ) :

وصول عمرو إلى مدينة طرابلس ، وهذه أقل مدة يمكن للجيش الزاحف أن يقضيها إذ انها لا تزيد عما يستغرقه المسافر في الظروف العادية باكثر من أسبوع المفروض أن جيش المسلمين استغرقه في التغلب على ما بين آخر برقة الذي سبق فتحه ومدينة طرابلس من بلاد .

٣١ أغسطس ٦٤٣ م (٩ شوال ٢٢ هـ) :

مدة الحصار لطرابلس باعتبارها شهراً واحداً فقط ، حسب أقل الروايات التاريخية تقديراً لفترة الحصار .

٢ سبتمبر (٦٤٣ م (١١ شوال ٢٢ هـ) :

فتح مدينة صبراته بعد فتح مدينة طرابلس في اليوم الذي قبلها على ما ورد في جميع الروايات التاريخية من أنها فوجئت في صبيحة اليوم التالي لفتح طرابلس .

٢٨ يناير ٦٤٤ م (١٢ ربيع الأول ٢٣ هـ) :

عودة رسول عمرو بن العاص إليه بعد التبشير بفتح طرابلس ، والاستئذان بفتح إفريقية وقد قدرت المدة على أساس أن ما يحتاجه هذا في قطع المسافة بين طرابلس والمدينة هي ٧٠ يوماً ذهاباً ومثلها عودة مع إقامة أسبوع واحد للراحة واعداد عمر بن الخطاب للرد على الرسالة وقد كان في هذه المرة سلبياً .

وخلال هذه الفترة البالغة خمسة أشهر تقريباً قام عمرو بن العاص بفتح بقية الإقليم من جبال نفوسة أو على الأقل معظمه إذا ما قلنا بوصول الرسالة إليه وهو لا يزال في تلك المناطق يواصل عملية الفتح .

وهكذا نصل بتقديراتنا الزمنية للمدد اللازمة لتحركات عمرو بن العاص في فتح ليبيا إلى أواخر يناير من سنة ٦٤٤ للميلاد ، الموافق لأواسط ربيع الأول من سنة ٢٣ للهجرة . وهذه تترك لنا أكثر من تسعة أشهر في سنة ٢٣ فلو فرضنا أن عمر بن العاص كان يتوقع من الخليفة رداً إيجابياً وأنه لما منع أخذ في تدبير أمر البلاد التي افتتحها من طرابلس وأن هذا العمل قد استغرق منه ثلاثة أشهر أخرى وأنه بعد ذلك عاد إلى مصر واستغرق في عودته إليها ثلاثة أشهر أخرى على الأكثر مع احتساب أنه في عودته يبقى بالأماكن التي يقيم بها عماله بعض الوقت لمراجعتهم والتفاوض معهم في شأن أهل هذه المناطق ممن أسلموا ومن أهل الذمة ، فإننا سنصل بتقديراتنا إلى رمضان أو شوال من سنة ٢٣ للهجرة وإلى أغسطس من عام ٦٤٤ م . وهكذا ننتهي من كل هذا إلى القول بأن عملية فتح عمرو بن العاص لإقليمي انطابلس (برقة) وطرابلس قد استغرقت مدة واحد وعشرين شهراً ، من أوائل ديسمبر ٦٤٢ حتى أواخر يوليه أو أوائل أغسطس من سنة ٦٤٤ م . على أقل الفروض تقديراً حسبما سبق ، ونرى لزاماً علينا التنبيه هنا إلى أننا لا نقول بصحة التواريخ التي عيناها في تقديراتنا لتحركات عمرو بن العاص ، ولا نقول بالتالي أن فتح برقة كان يوم أول فبراير ولا أن حصار طرابلس كان فيما

بين أول وآخر أغسطس فإن مثل هذا القول لم نهدف أصلاً إليه ، ولا يكفي فيه ما قدمناه بل يتطلب من الباحث أدلة تاريخية لا نمتلكها ولم يتقدم بها أحد من كتاب التاريخ في القديم . وإنما ذلك كله مجرد تقديرات قامت على أساس نظري بحت غايتها الأولى والأخيرة تقدير المدة اللازمة لعملية الفتح في مجموعها وليس غير ذلك .

ويدور نقاش بين المؤرخين المعاصرين من العرب ومن الإفرنج حول ما إذا كان المسلمون قد تركوا في البلاد التي افتتحوها حاميات من الجند أو لا ونرى نحن في إثارة هذه القضية هنا ما لا ينسجم واسلوبنا في تقديم أحداث التاريخ ولذلك نرجىء الحديث حولها إلى الفصل التالي باذن الله .

القسم الثاني

عهد عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب

(من ٢٤ إلى ٤٠ هـ)

الفصل الخامس

توطيد الفتح في ليبيا

اختلاف المؤرخين في النظرة إلى عملية الفتح الاولى :

اختلف قدماء المؤرخين من العرب مع مؤرخي العصر الحديث من العرب ومن غير العرب في النظرة إلى حملة عمرو بن العاص هذه ، والتي انتهت بالاسلام إلى فتح برقة وطرابلس حتى مدينة صبرة في الشمال ، وحتى بلاد أو جبال نفوسة وودان وزويلة (أي زلة) في الجنوب فيما بين سنتي ٢٢ و ٢٣ للهجرة : فرأى مؤرخوا العصر الحديث فيها أو على الأصح بعضهم مجرد غزوة أولى لبلاد المغرب غايتها تأمين فتح مصر للمسلمين ؛ وذهب بعضهم إلى حد القول بأن عمراً قد عاد من طرابلس وتركها دون إدارة ومن غير حراسة[1] . ورفض البعض الآخر احتمال أن يكون عمرو قد فعل ذلك ،

(١) ممن قال بهذا صراحة من غير العرب ايتوري روسي في : La Storia di Tripoli e della Tripolitania (ص ٢٦) وممن قال بذلك صراحة أيضاً الدكتور السيد عبد العزيز سالم في : المغرب الكبير (٢ – العصر الاسلامي) ص ١٥٢ و ١٥٣ وذلك بقوله « ويبدو أن سلطان العرب في المغرب انحسر إلى برقة ، فخرجت طرابلس من طاعتهم عقب انصراف عمرو بن العاص إلى مصر » وذلك بعد قوله في فقرة أخرى : « ... فعاد إلى مصر ، بعد أن أقام قائده عقبة بن نافع على هذه البلاد الصحراوية وبرقة . » باغفال طرابلس فيها كلية . وهناك غيرهما كثيرون .

وقالوا بتركه لبعض عسكره هناك ، ولم يزيدوا .

ومرد هذا الاختلاف بين قدماء المؤرخين ومحدثيهم إلى غموض الرواية في تاريخ السنوات التالية للفتح وتداخل أحداثها من ناحية ، والى ميل المؤرخين في العصر الحديث لمناقشة الروايات ونقدها والمقارنة بينها وتحليلها ، وهو ما لم يكن مؤرخ الأمس ينهجه في تأليف التاريخ الذي يراه في تحري الصدق في الروايات التاريخية ليس إلا .

ليبيا لم تترك بدون حارس بعد عودة عمرو :

ونميل نحن إلى الأخذ بالرأي القائل بأنه كان فتحاً كاملاً وبقصد ضم الإقليمين معاً إلى الدولة الإسلامية ، أولاً لأن أحداً من قدماء المؤرخين العرب لم يقل تصريحاً ولا تلميحاً بغير فكرة الفتح الأكيد ، وثانياً لأن احداث سنتي ٢٢ و ٢٣ العسكرية لم تكن في حقيقتها من ذلك النوع الذي يمكننا اعتباره من نوع حركات الغزو السريع الذي لا يترتب عليه استمرار الفتح والاحتفاظ بالنفوذ ، وإنما هو زحف حقيقي غايته الأولى والأخيرة ضم هذه البلاد التي افتتحت إلى دولة الإسلام وبصورة نهائية ؛ فكل الأحداث التي رويناها وناقشناها فيما تقدم تقودنا إلى ذلك وتنتهي بنا إليه : فمحاصرة المدن والمقاتلة من أجل فتحها ، والتوسع في الفتح إلى ما وراء دائرة عرض ٢٩ الشمالية ودخول بعض أهل هذه الأقاليم في الإسلام ، ومصالحة أهل الذمة منهم على الجزية ، جميعها أمور لا يمكن القول بأنها كانت لمجرد الغارة وحسب . واذا كانت طرابلس قد نقضت العهد بعد ذلك أو خضعت لغير المسلمين لفترات محدودة ، واذا كانت برقة هي الأخرى قد تعرضت لغارات الروم في احدى المرات ، فيجب الا يفهم هذا على أن الزحف الأول لم يكن فتحاً لتلك الأقاليم . كما أن سكوت المؤرخين القدماء عن بعض التفاصيل التاريخية من مثل القول بأن عمراً قد ترك بعض الجند في البلاد المفتتحة منه لا يعني أنه لم يفعل ذلك ، إذ ما دام التاريخ لا ينفي تركه لحامية من الجند في طرابلس فان احتمال فعله لذلك أقوى من استبعاده بالتأكيد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طرابلس هي آخر بلاد الاسلام آنذاك :

وقد كون إقليم طرابلس خلال الفترة فيما بين سنة الفتح الأول لها وسنة فتح إفريقية الحد الغربي من الدولة الإسلامية. وبحكم هذا الموقع الخاص لها آنذاك لا بد وأن تصبح طرابلس مركزاً أمامياً لقوات المسلمين يغيرون منها على قوات الروم في افريقية (تونس الحديثة)، ولا بد أن تصبح بالتالي مسرحاً لهجمات الروم المضادة التي يردون بها على غارات المسلمين على مناطق نفوذهم ومحارسهم في تلك البلاد. وعلى هذا الأساس يجب أن نفهم تلك الأخبار المتعلقة بتسيير الحملات من عمرو بن العاص ثم من عبد الله ابن سعد بن أبي سرح حاكم مصر وليبيا من بعده، كما يجب أن نفهم استئذان عبد الله بن سعد للخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه في غزو إفريقية، وطلبه امداده بالجيش اللازم لذلك بنفس المفهوم، وكما يجب أن نحترس مما تذكره المصادر الغربية من وقوف جريجوريوس (جرجير) على الحياد في صراع الروم مع الاسلام في برقة، وفي طرابلس، وننظر إلى مزاعمهم هنا بأنها مجرد موقف دفاعي عن تاريخ الرومان يخفون به الهزائم المتكررة التي لحقت بالروم في ليبيا أيام الفتح الأولى؛ وننظر إلى الاحداث العسكرية التي تلت الفتح على أنها محاولات من روم إفريقية وبيزنطية وروما لاستعادة هذه الأقاليم من ايدي المسلمين، فهذا هو المنطقي.

من خلال هذه النظرة المتفتحة يجب أن ننظر إلى أحداث فترة ما بين فتح إقليم طرابلس، وسيطرة المسلمين على إقليم إفريقية سيطرة تامة، ذلك أننا بنظرتنا هذه سنفهم الاحداث فهماً يقرب بنا من الواقع التاريخي آنذاك.

احداث سنتي ٢٤ و ٢٥ هـ :

وحول بداية هذه الفترة يذهب مؤرخو الإفرنج أو غالبيتهم على الأقل إلى أن عمراً قد عاد بجيشه إلى مصر دون أن يترك في طرابلس أية حامية لهذا الثغر بينما يذهب معظم مؤرخي العرب إلى أن عمراً لا يمكن أن يكون قد

فعل ذلك ، بل لا بد وأنه ترك بعض المحارس في طرابلس ، ولكنهم يقولون بهذا احتمالاً وتصوراً ولا يبحثون في نصوص التاريخ عما يسند هذا القول ويدعمه ، ولو أنهم فعلوا لوجدوا في التاريخ أكثر من شاهد على أن صلة المسلمين ببرقة وبطرابلس لم تنقطع بعد عودة عمرو بن العاص إلى مصر ، فقد ذكر عن عبد الله بن سعد بن أبي سرح أن عمراً كان « يبعثه إلى أطراف إفريقية غازياً ، ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً »[1] وحسب رواية ابن عبد الحكم فإن عبد الله بن سعد «كان يبعث بالمسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون[2] » ويبدو أن تسيير عبد الله بن سعد لهذه الجرائد كان قبل موافقة الخليفة عثمان ابن عفان له على مهاجمة إفريقية ذلك أنه كان يكتب إلى الخليفة « فيخبره بما نال المسلمون من عدوهم وبقربهم من حوزة المسلمين »[3] « ويستأذنه في غزو إفريقية »[4] . واذا كانت الغزوات او الحملات الموجهة من عمرو ابن الغاص ومن عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أطراف إفريقية فأين هي هذه الأطراف ؟ إنها ليست برقة ، ولا هي أيضاً طرابلس فهذا وذاك إقليمان سماهما المؤرخون باسميهما ، وقالوا بأن إفريقية تقع إلى الغرب من الأخيرة منهما ، فإذا كان عمرو بن العاص يبعث بعبد الله بن سعد إلى أطراف افريقية ، واذا كان عبد الله بن سعد يبعث بجرائد الخيل إلى هذه الأطراف هو الآخر ، فمعنى هذا أنهما كانا يُسيّران بالعسكر إلى حدود طرابلس الغربية ، وما كانا ليفعلا ذلك لو أن طرابلس خرجت من يد المسلمين حين ايفاد عمرو لعبد الله بن سعد ، وحين ايفاد عبد الله بن سعد وقد أصبح والياً لمصر لجرائد

---

(١) محمود شيت خطاب : قادة فتح المغرب العربي الجزء الأول ص ٥٢ ، وسنده في هذا ابن الأثير : الثالث/٣٣ والطبري الثالث/٣١٠ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وافريقية ص ٤٢ وكذلك البلاذري في فتوح البلدان ص ٢٦٧ ، والمالكي في رياض النفوس ص ٨ وابن عذارى جزء أول ص ٩ من طبعة بروفنسال .

(٣) المالكي : رياض النفوس صفحة ٨ .

(٤) ابن عبد الحكم في فتوح مصر وافريقية ص ٤٢ .

الخيل . وهنا لا نملك إلا أن نتساءل عن التاريخ الذي كان عمرو بن العاص يبعث فيه بعبد الله إلى تلك الأطراف ، ليس من المعقول أن يكون هذا سابقاً لفتح عمرو بن العاص برقة وطرابلس ، ولم يرد في الأخبار ما يؤكد بأن عبد الله قد صحب عمراً في حملته لفتح هذين الإقليمين ، ولذلك فلا بد وأن يكون ايفاده له قد تم بعد ذلك التاريخ ، وكون عمرو بن العاص هو الذي يوفد لا يعني إلا أن الايفاد قد حدث فيما بين سنتي ٢٣ و ٢٥ للهجرة إذا ما اخذنا بقول من يرى عزل عثمان بن عفان رضي الله عنه لعمرو بن العاص في هذه السنة(١) .

ويذكر لنا ابن عبد الحكم أن بسر بن أبي أرطاة كان قد توجه إلى مغمداش من سرت سنة ٢٦ للهجرة قاصداً فتحها . وهذا تاريخ لا يبعد عن الفترة التي كان عمرو بن العاص قد بعث فيها بعبد الله بن سعد ، ويقع في نطاق الفترة التي كان عبد الله بن سعد يبعث فيها بجنده لغزو أطراف إفريقية ، فأين كان يقيم بسر بن أبي أرطاة آنذاك؟ أغلب الظن أنه كان من بين القادة الذين وكل إليهم عمرو بن العاص بادارة تلك المناطق منذ الفتح ، فهو الذي أسند إليه مهمة فتح ودان سنة ٢٢ للهجرة ، كما كان عقبة بن نافع الفهري مؤسس القيروان فيما بعد مقيماً آنذاك في برقة وهو الذي افتتح جزءاً كبيراً منها كما تقدم . ومحاولة فتح بسر لمغمداش سنة ٢٦ لا يعني أن ما يقع إلى الغرب منها خارج آنذاك عن طاعة المسلمين ، وإنما يعني فقط احتمال تعرضها لغزو من البحر كما حدث في برقة وفي طرابلس بعد ذلك .

وقد يعني أيضاً أن مغمداش قد ظلت على ما كانت عليه قبل الفتح ،

---

(١) ابن عبد الحكم في فتوح مصر وافريقية ص ٢٣٥ ، والبلاذري في فتوح البلدان ص ٢٢٤ ، وأبو المحاسن في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الأول صفحة ٦٦ . أما عند ابن الأثير في الكامل في التاريخ الجزء الثالث صفحة ٣٤ وابن خلدون في العبر الجزء الثاني ص ١٢٨ (ملحق) وأبي الفدا في البداية والنهاية الجزء الأول ص ١٦٧ ، فإن ولاية عبد الله بن سعد كانت في سنة ٢٦ للهجرة .

وكانت تلك هي المرة الأولى أو لعلها احدى المرات التي يحاول فيها المسلمون فتحها ، ولا ينجحون ربما لما تتمتع به من تحصينات قوية على الرغم من عدم اهمية فتحها بعد عزلها عن بقية البلاد الخارجة عن الاسلام مما جعلهم لا ينصرفون إلى حصارها بل تركوها للزمن واثقين من أنها سوف تستسلم في النهاية دون كبير عناء .

ويذكر ابن الأثير أن عقبة بن نافع كان مقيماً في برقة منذ فتح عمرو بن العاص لها[1] كما يذكر أنه لقي عبد الله بن سعد سنة ٢٧ وأنه انضم إليه في غزوة إفريقية فيمن كان معه من المسلمين[2] وقد ادى فهم خاطئ — حسبما أراه — لعبارة « فيمن معه من المسلمين » إلى احتمال ألاّ يكون للمسلمين من وراء برقة نفوذ آنذاك ، علماً بأن العبارة لا تحتمل أكثر من معنى أن حامية برقة قد انضمت إلى جيش عبد الله بن سعد .

هذه الأدلة التي قدمناها هنا فيها ما يكفي للدلالة — حسبما نراه — على أن ليبيا لم تترك دونما حامية بعد عودة عمرو بن العاص منها إلى مصر في سنة ٢٣ للهجرة ، وإنما بقيت في يد المسلمين إلى ما قبيل غزوة عبد الله بن سعد لإفريقية ، وهذا هو ما ذهب إليه الدكتور احسان عباس في « تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري » فهو يرى أن برقة وطرابلس قد ظلتا أيام الفتح وحتى سنة ٣٥ للهجرة هادئتين مستقرتين[3] ، ولكننا لا نذهب معه إلى هذه السنة وأرى أن أحداثاً قبلها قد غيرت من أمر هذا الهدوء وعكرت صفو الاستقرار وهذا ما سنعود اليه .

موقف الروم من فتح ليبيا :

كانت طرابلس إذن هي الخط الأمامي للدولة الاسلامية في جناحها

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ الجزء الثالث ص ٣٨٦ .
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق الجزء الثالث ص ٦٨ .
(٣) احسان عباس : تاريخ ليبيا ص ٢٦ .

الغربي ، وكانت إفريقية هي الجبهة المواجهة لها من ممتلكات الروم في الشمال الإفريقي ، وقد ادى زحف عمرو بن العاص على هذه البلاد وفتحه برقة ثم طرابلس في سرعة مذهلة لم تترك للامبراطورية البيزنطية فرصة تستجمع فيها قواتها المهزومة وتعيد فيها تنظيم صفوف جيشها الذي اضطرب نظامه بتوالي الهزائم عليه ، إلى نوع من التخاذل والانهزام بجيش الامبراطورية في كل مكان ، وإلى إلباس عمرو بن العاص كقائد عسكري هالة أسطورية جعلت قادة الرومان يفرون من لقائه أو يستسلمون له حتى من غير قتال وذلك متى انعدمت الأسوار المنيعة التي تحول بينهم وبينه ، وقد كان من الممكن أن تسقط إفريقية أيضاً في أيدي المسلمين لو أن الخليفة عمر بن الخطاب أذن لعمرو بن العاص في فتحها آنذاك ولكن مخالفة عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص في هذا الرأي ، ومنعه من مواصلة الفتح ، وعودة عمرو على إثر ذلك قد أوقف زحف المسلمين فترة من الزمن تمكن فيها الروم من استعادة قواهم وتنظيم صفوفهم ويبدو من الأعداد الهائلة التي ذكرت كتعداد لجيش جرجير أن الإمبراطور قد أمد جبهة إفريقية بجند آخرين من خارج الشمال الإفريقي ، فإذا لم يفعل وصدقنا ما يذكر من خروج حاكم إفريقية عليه واعلانه استقلاله عنه ونحن نشك في هذا ولا نناقشه لخروجه عن محيط ما نبحث فيه ، فـــان الروم الغربيين والبابوية المسيحية التي كانت تناصره لا شك أنهمـــا فعلتا ذلك .

ويبدو أيضاً أن جريجوريوس أو جرجير كما يسميه مؤرخو العرب قد أفاد من سياسة عمرو التي أشرنا إليها في السابق ففعل مثله وتخلى عن قرطاجنة الواقعة على البحر إلى عاصمة أخرى (هي سبيطلة) تقع في الداخل حيث البربر الذين ينوي استمالتهم بالتقرب منهم حتى يعينوه ، ويحدد بعض المؤرخين لهذه الخطوة سنة ٢٤ للهجرة (٦٤٤ — ٦٤٥ م)(١) .

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير (٢ العصر الاسلامي) ص ١٥٢ .

ويُذكَر أيضاً أنه قام بتحصين بعض المدن الشرقية التي تواجه جبهة المسلمين من مثل قابس وسفاقس وقفصه ، وغيرها ، وهذا طبيعي بالنسبة لحاكم يتوقع الهجوم على بلاده في أية لحظة ، وما كان ليتسى له ذلك لو أن عمراً هاجمه سنة ٢٣ للهجرة(١) . أما وقد توقف الزحف الإسلامي فإن قوات الروم بدأت تناوش مناطق الحدود وتعتدي عليها ، وعادت تهاجم المدن الساحلية كالإسكندرية(٢) ودرنة(٣) وطرابلس وغيرها على ما سيأتي .

ونعتقد أن ما يشير اليه المؤرخون القدماء من أمر تلك الحملات العسكرية التي وجهت إلى أطراف إفريقية في آخر عهد عمرو بن العاص وأول عهد عبد الله بن سعد بن أبي سرح ليس غير هجمات مضادة كان المسلمون يقومون بها بين الفينة والفينة لإبعاد خطر الغارات الرومية عن الأرض الخاضعة للمسلمين ، وقد استمر هذا فيما يبدو من سنة ٢٣ وحتى سنة ٢٦ للهجرة .

استعادة الروم لطرابلس سنة ٢٦ هـ :

وفيما بين سنتي ٢٦ و ٢٧ للهجرة نجد اقليم طرابلس قد خرج فيما يبدو من ايدي المسلمين ولكن التاريخ يصمت فلا يحدثنا عن اعتداء للروم عليها وما يذكره بعض مؤرخي العصر الحديث من أمثال الزاوي(٤) والدكتور

---

(١) لقد كانت نظرة عمرو بن العاص عسكرية محضة ، وكان مصيباً في هذه النظرة أما نظرة عمر بن الخطاب إلى قضية فتح إفريقية فأشمل وأوسع من ذلك تليق برجل الدولة ، وكان هو الآخر محقاً في نظرته ولكن بالنسبة إلى وضع الدولة الإسلامية ذاتها ، وليست بالنسبة إلى جبهة إفريقية وحسب . وبما أننا نبحث في الوضع العسكري في هذه الجبهة وحدها فإننا غلبنا وجهة نظر عمرو بن العاص العسكرية ومن غير أن نعرض لوجهة نظر عمر بن الخطاب بالتحليل .

(٢) هوجمت سنة ٦٤٥ للميلاد فيما يذكره بتلر وسواه .

(٣) هوجمت سنة ٤٣ هـ واحتلت ، واستشهد فيها زهير بن قيس .

(٤) الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ٤٩ ، وعبارته « ولم يطل الأمر بسكان طرابلس حتى نقضوا ما عاهدوا عليه عمراً ، وارتد عن الاسلام من كان اسلم منهم ، وانقطعت صلة العرب بطرابلس نحو خمس سنوات ، وتنوسيت أعمالهم فيها ، وأصبحت وكأن لم يدخلوها فاتحين » .

السيد عبد العزيز سالم[١] والدكتور احسان عباس[٢] وسواهم من انتفاض طرابلس وخروجها على المسلمين إنما مرده فيما نرى إلى أنهم أطلقوا ما وجدوا في آخر هذه الفترة على أولها ، وقالوا بخروجها عقب عودة عمرو ابن العاص لها مباشرة أو بعد ذلك بزمن يسير ، وهذا فيما أراه ومما قدمته خطأ يجب الانتباه إليه ، فوقوع طرابلس في أيدي الرومان بعد فتحها لا بد وأنه حدث في سنة ٢٦ أو بعد ذلك ، وكان السبب الرئيسي في استنجاد عبد الله بن سعد بالخليفة ومناشدته له بتسيير النجدة إليه على ما سيرد ، فعبد الله بن سعد وقد علم باعتداء الروم على طرابلس ، وفيها مسلمون وأهل ذمة ، على المسلمين واجب الدفاع عنهم لا بد وأن يهتم بهذا الأمر الجلل ويسعى للقيام بواجبه كمسئول مباشر فيه .

ومع أننا لا نملك نصاً تاريخياً معيناً فإن احتمال أن يكون الرومان قد استغلوا أحداث مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتولي عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة ، وما نتج عن هذا من تطور في السياسة والأحداث السياسية كعزل عمرو بن العاص وتولية عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر وما يقع إلى الغرب منها وما إلى ذلك من أحداث كثيرة ذكرت في التاريخ الاسلامي فقاموا بمحاولتهم لاستعادة طرابلس من أيدي المسلمين ونجحوا فيها. وبما أن جند الإسلام بهـا ليس سوى حامية صغيرة فقد تمكن الروم من ذلك في أواخر سنة ٢٦ أو أوائل ٢٧ للهجرة وليس قبل هذه الفترة لما سبق وان ذكرناه من أدلة استمرار بقائها طيلة الفترة التالية لعودة عمرو بن العاص منها وحتى سنة ٢٥ للهجرة وهي السنة التي تولى عبد الله بن سعد أمر مصر

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير (٢ – العصر الاسلامي) ص ١٥٢/١٥٣ ، وعبارته « ويبدو أن سلطان العرب في المغرب قد انحسر إلى برقة ، فخرجت طرابلس من طاعتهم ... الخ » .

(٢) الدكتور احسان عباس « تاريخ ليبيا » ص ٢٤ ، وعبارته : « أما طرابلس فقد يفهم من الروايات انها لم تحافظ على عهدها كما فعلت برقة ... »

منفرداً وخلالها أيضاً وإلا كيف نفسر تسييره لجرائد الخيل إلى أطراف افريقية ؟...

ومع أن التاريخ لا يذكر صراحة استيلاء الإفرنج من قوات جريجوريوس أي جرجير على طرابلس ، وعبارة المؤرخين بأن ملكه يمتد من طرابلس إلى المغرب قد تعني دخولها في حوزته وقد لا تعنيه . فإن ما ذكره المالكي في رياض النفوس (ص ٨ و ٩) عن المسور بن مخرمة من وصف لحالة عثمان بن عفان النفسية ، وما ورد في بعض عبارات عثمان نفسه كقوله « ... وقد كتب إلى عبد الله بن سعد ، يخبر بخبره مع المشركين ، وغلبهم ، وقرب حوزهم من المسلمين » . يمكن أن نستشف منها أن أحداثاً خطيرة قد وقعت آنذاك في الشمال الإفريقي وتكاد تلك الأعداد الوفيرة من الجيش الذي أعد وشاركه عدد من الصحابة فيه على ما سيأتي تفصح عن طبيعة تلك الأحداث وعن مدى خطورتها ؛ وأية خطورة يمكن أن تؤدي إلى مثل هذا من فقدان المسلمين لإقليم كامل وتهديد العدو للأقليم الذي يليه ؟ . بل إن عبارة « وغلبهم » وحدها إذا ما وقفنا عندها متدبرين قليلاً فمن الممكن أن نجد فيها ما نبحث عنه من الدليل التاريخي إذ أنها قد تعني التلميح أو حتى التصريح بأن المسلمين قد غلبوا على أمرهم باستيلاء العدو على إقليم طرابلس أو اجزاء منه باعتباره أول بلاد للمسلمين التي تتاخم اقليم إفريقية وهو الذي وجهت إليه الحملة العسكرية الضخمة من قبل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

عثمان بن عفان يجرد حملة لغزو افريقية واستعادة طرابلس :

خرجت طرابلس إذن من أيدي المسلمين في أواخر سنة ٢٦ للهجرة أو أوائل السنة التالية فطير عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالخبر إلى الخليفة عثمان ابن عفان فأهمه وأقلقه ، ويحدثنا المالكي في رياض النفوس في قصة رواها عن الزهري منسوبة إلى المسور بن مخرمة فيقول : « قال المسور : خرجت من منزلي بليل طويل أريد المسجد ، فاذا عثمان رضي الله تعالى عنه في مصلى

النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، فصليت خلفه ، ثم جلس فدعا ليلاً طويلاً ، حتى أذن المؤذنون ، ثم قام منصرفاً إلى بيته ؛ فقمت في وجهه ، فسلمت عليه ، فقال : يابن مخرمة ، واتكأ على يدي ، إني استخرت الله في ليلتي هذه في بعث الجيوش إلى أفريقية ؛ وقد كتب إلي عبد الله بن مسعد ، يخبر بخبره مع المشركين ، وغلبهم ؛ وقرب حوزهم من المسلمين . فقلت : خار الله لأمير المسلمين . قال : فما رأيك يا ابن مخرمة ؟ قلت اغزوهم ! قال : اجمع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستشيرهم ، فما أجمعوا عليه فعلته ، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته ، ولتكن أنت رسولي إليهم ، واحضر معهم(١) » . وهذه القصة إنما تصور لنا كيف استقبل عثمان بن عفان النبأ وتعكس نفسيته فالخليفة لا ينام ليله ، ويلجأ إلى الله يستلهمه الهداية بالاستخارة إلى ما فيه خير وصالح المسلمين ، ويقرر إيفاد القوة إلى منازلة العدو ، ولكنه يخشى مخالفة ما قرر عمر بن الخطاب قبله من عدم غزو إفريقية فيرى النزول عن رأي كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن وافقوه بعث بالجيش والا فليفعل الله ما يريد .

غزوة العبادلة :

ويضيف المالكي بأن عثمان قد اجتمع بوجوه الصحابة واستشارهم في الأمر فاجمعوا على موافقته اللهم إلا الأعور سعيد بن زيد الذي خالف متمسكاً برأي عمر بن الخطاب في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين (٢) فدعا عثمان حينئذ للجهاد فخرج جماعة من الصحابة منهم الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن عباس ومعبد بن العباس، ومروان بن الحكم بن أبي العاص ، والحارث أخوه ، **وعبد الله بن الزبير** ، والمسور بن

---

(١) المالكي : رياض النفوس ص ٨ و ٩ .

(٢) المالكي : نفس المصدر ص ٩ .

مخرمة بن نوفل ، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، **وعبد الله بن عمر بن الخطاب** ، وعاصم بن عمر ، **وعبيد الله بن عمر** ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، **وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمرو بن العاص** ، وبسر بن أبي أرطاة بن عويمر العامري[1] ، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي ، **وعبد الله بن جعفر** ، وعدد آخر يضيفه المالكي في رياض النفوس وقد رافق كل واحد منهم جماعة من قومه حتى بلغ عدد الجيش بعد انضمام **عبد الله بن سعد** بن أبي سرح وعقبة بن نافع اليه من مصر وبرقة عشرين الفاً . ولكثرة عدد من يسمى باسم عبد الله بين قادته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمي باسم « جيش العبادلة »[2] .

وودع عثمان بن عفان رضي الله عنه هذا الجيش الجرار خاطباً فيهم : « لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم حتى تصلوا إلى عبد الله بن سعد ، وقد قدمت عليكم عبد الله بن سعد لما علمت من ثقته ودينه وحسن رأيه وشجاعته ، وأخذت عليه العهد والميثاق أن يحسن لمحسنكم ، ويتجاوز عن مسيئكم ، ولا يحمله غرض الدنيا على هلاك رجل واحد منكم ، وأرجو الله أن يقف عند عهدي وأمري . وأوصيكم واياه أن لا تهولنكم كثرة العدو ، وقد علمتم ما أنزل الله عليكم حيث يقول : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » . أما علمتم أن أول هذه الأمة ما نصروا إلا بكثرة الصبر وقوة اليقين ؟ ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . استودعكم الله وهو خير الحافظين ، سيروا على بركة الله ، وعليه توكلوا وبه فاتقوا[3] » .

---

(١) نجد يسر بن أبي ارطاة في سنة ٢٦ للهجرة في ليبيا يقوم بمحاولة فتح مغمداش قادماً إليها من سرت ، فهل عاد بعد ذلك إلى المدينة ؟ ام أنه عد في الصحابة الذين كونوا قادة الجيش بانضمامه اليهم هذا جائز لأن عقبة بن نافع لم يعد فيهم مع انضمامه إلى الجيش لأنه لا صحبة له فيما يراه معظم المؤرخين .

(٢) البلاذري في فتوح البلدان ص ٢٦٧ وابن عبد الحكم في فتوح مصر وافريقية ص ٤٢ ، والمالكي في رياض النفوس ص ١٠ وغيرهم من قدماء المؤرخين .

(٣) الدكتور السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير (٢ – العصر الاسلامي) . ص ١٥٥ و ١٥٦ .

وقالوا بأن « عثمان بن عفان أعان الجيش بألف بعير من ماله الخاص » .

وهذا الجيش الجرار الذي سير لإفريقية لا يمكن أن يكون تسييره إلا لما سبق وأن قدمناه من استيلاء الروم على طرابلس وتهديدهم لبرقة ومن ورائها مصر ، وان لم تذكر هذه الحادثة في التاريخ فإن ما حدثنا به المؤرخون من أمر طرابلس حين وصلها الجيش الإسلامي وأنها في حوزة الروم ، أو ما يعني هذا ، يشير إليها ويكاد يؤكدها !

انضمام عقبة فيمن معه إلى الجيش :

بدأ جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح زحفه على بلاد المغرب سنة ٢٧ هـ بعد أن استخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ، فلما وصل إلى برقة انضم إليه عقبة بن نافع الفهري فيمن معه من المسلمين المرابطين على الثغر فبلغ بذلك عدد الجيش عشرين ألفاً على ما تقدم ، وقد كانت برقة فيما يبدو من روايات كافة المؤرخين بمنجاة من الروم فلم يلق الجيش أية مقاومة بها ، ولكنه إلى الغرب منها قد غير من أسلوب زحفه إذ تقدمته الطلائع نحو طرابلس وذلك على الرغم من عبارة المالكي في رياض النفوس التي تقول : « فلما فصلنا من مصر » ذلك أن برقة آنذاك كانت ملحقة إدارياً بمصر ومعتبرة منها وعبارته التالية « تقدمت سرية فوصلت طرابلس » قد تفسر لنا ذلك فهي تغفل برقة ولا تذكر اجتياز السرايا لها . أما بقية رواية المالكي وهي : « ... واذا ثم مراكب قد أرست ، فشدوا عليهم ، فأقاموا ساعة ثم استأسروا ، فكتفوا وهم مائة حتى لحقهم ابن أبي سرح فقتلهم وتحصن أهل طرابلس ، ولم يعرضوا لنا ، ولم نهجمهم ، وأخذنا ما في السفن فكانت هذه أول غنيمة أصيبت »[1] فهي لا تشير إلى أن هناك قبل طرابلس (والظاهر أن المقصود في الرواية هي المدينة وليس الإقليم) أي أثر للروم ، فهل معنى هذا أن هؤلاء لم يسترجعوا من سابق مستعمرتهم عدا المدينة ذاتها ؟ .

(١) المالكي رياض النفوس ، الاول ، ص ١٠ .

هذا جائز ، ومع ذلك فإن من بها من الروم فيما يبدو ليسوا بالقوةالكبيرة التي يمكنها التصدي لجيش المسلمين ، وكانت خطة الروم فيما يبدو تعتمد على تعطيل تقدم المسلمين نحو الغرب بشغلهم بمحاصرة المدن والقلاع المحصنة التي في طريقهم ولذلك تحصنت قواتهم بداخلها ، ولم تتعرض لجيش عبد الله ابن سعد . وهذه خطة يمكن تلمسها في بقية أخبار الغزوة ، ويُفصح عنها انتباه المسلمين إليها ، وتركهم لهذه المدن والقرى المحصنة خلفهم ، وعدم التعرض لمن بداخلها من قوات صغيرة لا تستطيع إلحاق الضرر بالموخرة وليس في إمكانها قطع ما بين المسلمين وبلادهم من سبيل .

الصراع مع الروم في طرابلس :

وعبارة المالكي « واذا ثم مراكب قد أرست » قد نفهم منهـا أن جريجوريوس أو جرجير وقد علم بزحف المسلمين على بلاده وكثرة جندهم قد حاول تعزيز حامية طرابلس بحراً لعدم كفاية من بها فأوفد تلك المراكب التي تصادف نزول من بها إلى البر مع مرور إحدى طلائع جيش المسلمين هنالك فلم يتيسر لهم النزول ، وأسر منهم من حاول ذلك ، وكونهم لم يقاوموا السرية إلا ساعة معناه أنهم كانوا لا يزالون في عرض البحر ، وأنهم لما افتقدوا من نزل إلى البر فضلوا الإنسحاب من المعركة ، ربما تخوفاً من أن يكون الجيش الإسلامي نفسه قد وصل وليست طلائعه وحسب .

أما المكان الذي وقع هذا الحادث به فيبدو أنه غير المدينة ذاتها ذلك أن عبارة المالكي : « وتحصن أهل طرابلس ، ولم يعرضوا لنا ولم نهجمهم » تجعل احتمال حدوثها في مينا مدينة طرابلس ذاتها غير معقول لعبارة «وتحصن» بالذات . صحيح أن الدكتور إحسان قد حاول تفسيرها بأنهم « خافوا من أن يأخذهم عبد الله بن سعد بتهمة التواطؤ مع السفن الرومية فلجأوا إلى منازلهم ولم يستقبلوا جيش المسلمين استقبال الحليف »[1] ولكن في هذا

---

(١) النويري : نهاية الأرب ص ٢٢ .

التفسير شيء من التعسف وعدم الانسجام مع رواية النويري للخبر ذاته فهذه أيضاً تقول : « فوالله إنا لبطرابلس وقد أصبنا من بها من الروم ، وقد تحصنوا منا فحاصرناهم ، ثم كره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه ، فأمر الناس بالرحيل[1] » وهذا واضح في أن عملية الحصار إنما هي للمدينة وأن ما جعل قائد الجيش الإسلامي يكره انشغال الجند به عن المقصد الأساسي إنما هو احتمال طول مدته وليس لأنهم انزووا في منازلهم التي لا يمكن أن تصمد للحصار إلى حد كراهة عبد الله له .

ومما تقدم يتضح لنا أن المكان الذي التقت فيه إحدى طلائع الجيش الزاحف لا بد وأن يكون خارج الأسوار وليس بالمدينة ذاتها . أما لماذا تنزل هذه الحامية التي قصد بها تعزيز القوات المدافعة عن المدينة خارج الأسوار فإن ذلك لسبب نجهله الآن ولا تساعدنا الروايات التاريخية على معرفته وان كان من الممكن افتراض أن ذلك حدث قبل وصول جيش المسلمين إلى المدينة ، ولولا تصادف مرور إحدى الطلائع بذلك الموضع لما حدث قتال فيه ، وكونه حدث قبل الحصار وليس بعد بدايته قد يعني فقط تخير الموضع المناسب لرسو المراكب ونزول القوة منها إلى اليابسة وقد يعني غير ذلك من الدوافع إليه .

محاصرة مدينة طرابلس ثم التخلي عن ذلك :

ومن الروايات المختلفة التي ذكرت في هذا يتضح أن المدينة قد تحصنت وأن الجيش الزاحف حاصرها ثم تخلى عن حصارها لما قرر مواصلة الزحف السريع إلى العدو في مركز تجمعه لانزال الضربة القاصمة به . وهذا يعني أن عمر بن العاص لم يهدم اسوار مدينة طرابلس يوم افتتاحها سنة ٢٢ هـ . وأن تشككنا في رواية التجاني حول اسوار مدينتي طرابلس وصبراته (في الفصل الرابع) كان قائماً على أساس اللهم إلا إذا قلنا بأن جريجوريوس قد

(١) النويري : نهاية الارب ص ٢٢ .

اعاد بناء السور حول المدينة من جديد بعد استيلائه عليها ، وهذا أيضاً جائز ، وان كنا لا نرتاح إلى الأخذ به لعدم كفاية المدة التي خضعت فيها له .

وكما ترك الجيش الزاحف مدينة طرابلس خلفه فقد تخلى عن محاصرة مدينة قفصة هي الأخرى ولذات السبب ، وهو : الرغبة في عدم تبديد طاقة جيش المسلمين في عمليات محاصرة المدن والقلاع وتفضيل منازلة جرجير نفسه في العاصمة التي اتخذها مقراً جديداً لحكمه لانزال ضربة قاصمة به وبقواته تنهار على إثرها مقاومة حاميات المدن المحصنة فتستسلم جميعها للمسلمين .

خلاصة لما حققته حملة عبد الله بن سعد على افريقية :

وبما أننا قد أخذنا على أنفسنا الاقتصار على دراسة وتحليل الأحداث الجارية في داخل ليبيا (بحدودها الحالية اليوم) مع عدم التعرض لما تم خارجها من أحداث اللهم إلا ما كان متصلاً منها .بأحداث في الداخل لا يمكن دراستها ومناقشتها إلا بذكره فإننا ولهذا سنقوم بمرافقة جيش المسلمين عند مغادرته للبلاد إلى إفريقيا (تونس) ، ولا نتعرض لذكر ما حصل من أمر غزوة العبادلة هذه في تفصيلاته مكتفين بالإشارة إلى أن هذا الجيش الذي بلغ عدده عشرين ألفاً قد نازل جريجوريوس وجيشه المقدر بما بين مائة ألف ومائة وعشرين ألفاً على اختلاف بين الرواة وأن المسلمين قد تمكنوا من إحراز نصر موزر على جرجير وجنده والحقوا بهم الهزيمة بعد قتله هو في المعركة ، وغنموا مغانم كثيرة قال المؤرخون عنها أن نصيب الفارس منها قد بلغ ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار .

وتفرق جند المسلمين فرقاً عدة قصدت كل فرقة منهم مدينة أو قلعة تحاصرها وتستولي عليها ، ويبدو أن الروم قد تخلوا عن إفريقية إلى الغرب ، ولم يبق غير البربر والأفارقة من أهل البلاد ذاتها ، ومن سياسة الدولة الإسلامية أن لا تتخذ منهم أعداء لها وللمسلمين ، ولذلك صالحتهم على مبلغ من المال بالغ المؤرخون فيه كثيراً على ما يبدو فقد قدروه بثلاثمائة قنطار من الذهب .

واتجاهنا إلى احتمال أن الصلح المعقود مع البربر إنما كان رغبة في استمالة أهل البلاد نفسها ، وبعد اندحار الروم وانهزامهم سبق وأن أوضحناه في الفصلين الثالث والرابع عند حديثنا عن صلح عمرو بن العاص معهم ولا نرى داعياً لتكرار الحديث عن هذه السياسة من جديد في كل مكان يستدعي ذلك خاصة وأننا سنعود إلى هذا الأمر مرات .

فقفل عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر فمر على طرابلس التي كانت آنذاك خاضعة لحكم المسلمين ، ولا ندري كيف ، وإن كان المظنون أن إحدى الفرق التي وجهت لفتح المدن والقلاع قد بلغت طرابلس وافتتحها ولعل هذا حدث في سنة ٢٨ الهجرة ، وإن كانت تنقصنا في هذا الأمر الأخبار .

عودة طرابلس إلى الحكم الاسلامي :

وعودة طرابلس إلى يد المسلمين واقع تاريخي تؤكده رسالة كتب بها عبد الله بن أبي سرح إلى نائبه على مصر عقبة بن عامر الجهني يأمره فيها أن يوجه إلى طرابلس مراكب في البحر لتحمل غنائم المسلمين بينما سار هو إليها بجيشه حيث وافته السفن هناك(١) .

هكذا عادت طرابلس إلى أيدي الإسلام من جديد نتيجة للغزوة التي عرفت « بغزوة العبادلة » ولم يعد غيرها من بلاد إفريقية ، إذ عاد عبد الله ابن سعد دون أن يترك بها أحداً من قادة المسلمين . ومع أن واحداً من المؤرخين لا يذهب مذهبنا هذا فإننا نرى أن الغزوة لم توجه أصلاً إلا لهذا الغرض وأن ما قامت به في إفريقيا ليس مقصوداً لذاته وإنما الهدف منه تأمين حدود الدولة من ناحية الغرب وإنهاء حالة التوتر القائمة أو محاولة ذلك بهذا الدرس القاسي الذي لقنوا به حكومة وأهل افريقية إذ لا يعقل أن يتخلى فاتح عما فتح من بلاد إلا وهذا التخلي يخدم هدفاً أبعد من ذلك ، وهذا الهدف

---

(١) المالكي : رياض النفوس ص ١٠ .

فيما نعتقده هو نفس الهدف الذي حدا بعمر بن الخطاب رحمه الله ورضي عنه إلى منع عمرو بن العاص من فتح نفس البلاد سنة ٢٣ هـ . وأراه أنا كامناً في استمالة البربر كشعب لدين الإسلام عن طريق تحسين العلاقة معهم وعدم دفعهم إلى اتخاذ موقف عدائي من الدعوة الإسلامية وهي الهدف الأساسي والوحيد من عمليات الفتح في سائر البلدان . وهذا يخالف ما يذهب إليه المؤرخون من تعليلات عدة لتفسير أو على الأصح لفهم تخلي عبد الله بن سعد عن إفريقية بعد سيطرته عليها ودحره للرومان بها .

عودة عبد الله بن سعد إلى مصر :

وعاد عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر سنة ٢٩ هـ . ولا نعلم من ترك عاملاً له على طرابلس بعد إعادة فتحها ولا ندري ما هي الترتيبات التي اتخذها لضمان المحافظة عليها واستمرار بقائها في حوزة الإسلام ليس لاهميتها في حد ذاتها كإقليم ، ولكن لكونها ثغراً على آخر حدود بلاد الاسلام ، من الممكن أن يتهدده العدو في أية لحظة .

احداث سنتي ٣٣ و ٣٤ في ليبيا :

بعد هذه السنة يمر تاريخ الإقليم الليبي برقة وطرابلس معاً بمرحلة غامضة قلقة تضطرب فيها روايات المؤرخين ، فمن قائل بأن البلاد قد ركنت إلى الهدوء حتى آخر عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ومن قائل بأنها غزيت من معاوية بن خديج السكوني سنة ٣٤ للهجرة ومن مستبعد لوقوع هذه الغزوة إلى قائل بأن عبد الله بن سعد نفسه قد غزاها واستشهد بها سنة ٣٣ للهجرة ؛ والقائل بهذا الأخير هو ابو المحاسن صاحب كتاب النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة فيما رواه الاستاذ أمين سعيد في كتابه « تاريخ الاسلام السياسي » (الجزء الثاني منه) ، يقول لنا « ... ويقول مؤلف كتاب النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة ، حينما ترجم لعبد الله أنه غزا إفريقية ثانية سنة ٣٣ للهجرة حينما نقض أهلها العهد حتى أقهرهم

على العهد والجزية ، واستشهد معه في هذه المرة بافريقية جماعة منهم معبد ابن العباس بن عبد المطلب وغيره ، ومعنى ذلك أنه أخضعها ثانية لسلطان الدولة العربية الجديدة » ويروي لنا محمود شيت خطاب في قادة فتح المغرب العربي (الجزء الأول ، ص ٦١ و ٦٢) هذا الخبر نقلاً عن ذات المصدر المذكور (النجوم الزاهرة ، الجزء الأول ص ٨٠) وعن ابن الأثير (الكامل في التاريخ الجزء الثالث ص ٥٢) فيقول « وفي سنة ثلاث وثلاثين هجرية ، أعاد عبد الله الكرة على افريقية حين نقض أهلها العهد ، فانتصر عليهم ، وأعاد النظام إلى ربوعهم ، وأقرهم على الاسلام والجزية » واسقط عبارة « واستشهد معه في هذه المرة جماعة منهم معبد بن عباس بن عبد المطلب وغيره » من الرواية السابقة ربما لأن كتب التاريخ ومنها صاحب النجوم الزاهرة نفسه تذكره كقائد لموقعة ذات الصواري البحرية وهي في السنة التالية ثم تجعل وفاته بعسقلان من فلسطين سنة ٣٦ هـ . والواقع أن معظم من أرخ حديثاً لبلاد المغرب العربي أو ليبيا يسقط خبر هذه الحملة فلا يتعرض لها بأي ذكر ولعل ذلك لعدم تواتر خبرها بين قدماء المؤرخين من ناحية ، وتهرباً من التعرض لموضوع وفاة هذا القائد بالمغرب في تلك الغزوة ، ووجود ضريح له يزار بواحة « أوجلة » حتى يومنا هذا[1] ، مع استمرار حياته بعدها حتى سنة ٣٦ واجماع المؤرخين على وفاته بعسقلان من فلسطين من ناحية أخرى ، وهو أمر محير فعلاً ولا يمكن تعليله إلا بواحد من فرضين فإما أن عبد الله بن سعد قد عاد بعد استقراره في عسقلان إلى مصر بطريقة ما بعد أن حيل بينه وبين ذلك لما حاوله[2] دون ان يستقر فيها وانما واصل إلى برقة واستقر في الجنوب منعزلاً بنفسه عن الصراع الدائر هناك حتى انتقل إلى جوار ربه ودفن بها ، وإما أن يكون الضريح لواحد سواه من

---

(١) ولنا في هذا الموضوع بحث مطول نشر بالاعداد ٣ و ٤ و ٥ من مجلة ليبيا التي تصدر في بنغازي سنة ١٩٥١ و ١٩٥٢ فارجع اليه .

(٢) امين سعيد : تاريخ الاسلام السياسي ، الجزء الثاني ترجمة عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

أصحابه اشتهر بضريح صاحب سيدي عبد الله حيناً ثم اغفلت كلمة صاحب مع الزمن وبقيت نسبته إلى عبد الله نفسه[١] .

أما غزوة معاوية بن خديج التي أرجعت إلى سنة ٣٤ هـ . وهي أولى الغزوات الثلاث المنسوبة إليه فيغفل ذكرها كلية بعض المؤرخين المعاصرين كالدكتور السيد عبد العزيز سالم في المغرب الكبير (٢ ــ العصر الاسلامي) فهو يقول بالحرف الواحد « ... ولم يعاود العرب الإغارة على إفريقية ، ولم يبدوا اهتماماً بشئون المغرب على الاطلاق منذ سنة ٢٨ هـ . التي عقد فيها الصلح بين العرب والأفارقة حتى سنة ٣٨ هـ . وهي السنة التي تولى فيها عمرو ابن العاص ولاية مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان . ذلك أنهم شغلوا بفتنة الأمصار ... »[٢] . ويرى الدكتور احسان عباس أن دور ابن خديج في افريقية من أشد الأدوار غموضاً ، ولذلك فإن التوفيق بين الروايات حولها أمر عسير . أما الطاهر الزاوي فإنه يورد ما قيل حولهـــا دون أن ينتهي فيها إلى رأي صريح[٣] ، وموقف غير هؤلاء لا يخرج عن ذلك كثيراً .

والذي أراه أنا حول هذه الغزوة هي أنها جزءٌ من غزوة عبد الله بن سعد بن أبي سرح الثانية فقد كانت هذه سنة ٣٣ وكانت تلك سنة ٣٤ فاذا قلنا بأن معاوية بن خديج كان قائداً في جند عبد الله بن سعد ، وأن هذا عاد إلى مصر تاركاً معاوية بن خديج يقود الغزوة التي امتدت من سنة ٣٣ إلى سنة ٣٤ هـ . أصبح الأمر معقولاً من حيث أن غزو إفريقية يستغرق زمناً ليس بالقصير لاتساع الرقعة وبعد المسافات وقد رأينا أن حملة عمرو بن العاص قد استغرقت من الزمن اكثر من ثمانية عشر شهراً وأن غزوة عبد الله بن سعد الأولى قد استغرقت هي الأخرى خمسة عشر شهراً فاذا قلنا بهذا توافر الزمن الكافي للحملة . ومن حيث نفي الاعتراض القائم بين الروايتين لاقتراب

(١) وسنعود إلى بحث هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الملحق الخاص به في هذا الجزء .
(٢) صفحة ١٧٤ من الكتاب المذكور .
(٣) الدكتور احسان عباس : تاريخ ليبيا منذ الفتح ... الخ ص ٢٧ (هامش ١) .

الزمن بينهما وما قد ينشأ عنه من قول بعدم الحاجة إلى تسيير حملتين ضد افريقية في سنتين متتاليتين أو صعوبة القيام بذلك على عبد الله بن سعد الذي كان يصارع سياسياً آنذاك خصوم حكمه وحكم عثمان بن عفان . بل إن القول بتوحيدهما مع جعل بداية الغزوة بقيادة عبد الله بن سعد ونهايتها بقيادة معاوية بن خديج قد يكون أقرب احتمالاً من الواقع التاريخي الذي يلزم عبد الله بن سعد بالاقدام على عمل حاسم يلفت إليه الأنظار ويرضى عنه بعض الخصوم ويستدعي عدم اطالة تغيبه عن مقر الولاية في نفس الوقت .

ليبيا في عهد علي بن ابي طالب :

وعلى أية حال فإن المؤرخين القدماء يجعلون غزوة معاوية بن خديج الأولى آخر حديثهم عن برقة وعن طرابلس وعن افريقية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وهم لا يتعرضون في تاريخهم بذكر أية أحداث عن عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه كذلك مما دفع مؤرخي العصر الحديث إلى القول بأن هذه البلاد قد لزمت جانب الحياد في الصراع الدائر بين علي ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أو إلى القول بأن المسلمين قد شغلوا عن الشمال الإفريقي بما هم فيه من صراع .

حياد برقة في فتنة عثمان :

والتزام جانب الحياد بالنسبة لأهل برقة بالذات أمر نجد صداه في تلك العبارة التي جاءت على لسان عبد الله بن عمرو بن العاص « لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها »[1] . فهذه العبارة لا تصدر إلا عن نفسية ملت الصراع بين الأطراف وتاقت للعزلة بالابتعاد عن ميدانه واشخاصه وخشي أن تلحق به الأحداث أذى فبحث عن السلامة في مكان

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٦٤ .

لا فتنة فيه ، ولهذا كانت عبارته صدى لما يعتمل في نفسه وتعبيراً عما يحس بداخله فيه وهذا يمكن أن نرجعه إلى فترة ما بين مقتل عثمان بن عفان واستتباب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان . فاذا صح حدسنا هذا فإن هذه العبارة لوحدها يمكن أن تؤخذ دليلاً على أن برقة قد التزمت جانب الحياد التام في هذا الصراع .

وهناك رواية أخرى تقول عن أهل برقة وبلادهم : « ... فكانوا أخصب قوم بالمغرب ، ولم يدخلها فتنة »[1] وهي عبارة صحيحة الدلالة وواضحة اذا أخذت بالمعنى أو المفهوم السابق ذاته ، أي إذا احتملنا أنها إنما تعبر عن فترة حرجة من التاريخ إلى حد أن الاستقرار والهدوء وانعدام الفتن كان من الميزات التي ندرت بين البلدان الواقعة داخل محيط دولة الاسلام

غموض تاريخ طرابلس في هذه الفترة :

ولا يمكننا قول هذا عن طرابلس التي لم نعرف من أمرها هي الأخرى أي شيء من أحداث التاريخ فيما بين مقتل عثمان بن عفان واستتباب الأمر لعمرو بن العاص والياً لمعاوية بن سفيان على مصر ، كما لا يمكننا القول بأن البلاد قد نجت من غزو الروم لها أو لبعضها ولا أنها وقعت في أيديهم من جديد لعدم توافر المعلومات ولهذا نمسك عن هذا وذاك .

وبهذا أيضاً ننهي حديثنا عن تاريخ ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين وهو العهد الذي خصصنا هذا الجزء له واقتصرنا فيه عليه .

هذه هي قصة الفتح العربي الإسلامي لهذه المنطقة من الوطن العربي ، حاولت استقصاء أخبارها في حدود الممكن من روايات المؤرخين ، ودراستها دراسة نقد وتحليل محاولاً الوصول من كل هذا الى استجلاء الغموض والتضارب الذي ينتاب كل هذه الروايات المتعلقة بأمر الفتح .

---

(١) البلاذري : نفس المرجع والصفحة .

وأعترف هنا أنني كنت في بعض الحالات جريئاً في الاستنتاج وبدرجة لا يقرني عليها بعض المؤرخين غير أنني في غياب المزيد من الأدلة ، وأمام غموض العبارة وشدة اقتضابها كنت مضطراً لما أقدمت عليه وجئت بما جئت مقتنعاً بما انتهيت إليه حول شتى النقاط ، فإن جانبت الصواب فلن يضير التاريخ خطأ الباحث فيه ما دام القصد هو محاولة الوصول إلى الحقيقة ذاتها وليس التزييف ولا الدس ولا النيل من الغير فيه ، فإن أصبت فما هذا إلا بتوفيق من الله تعالى فهو وحده الهادي لسواء السبيل .

مَلاحِق

الملحق الأول

ترجمة حياة

عمرو بن العاص

نسبه من أبيه : هو عمرو بن العاص ، بن وائل ، بن هاشم ، بن سُعَيد ، ابن سهم ، بن عمرو ، بن هُصَيص ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب . وهذا النسب يرفعه إلى مصاف سادة قريش في الجاهلية ، وهو يعتز به ويفخر . وللمؤرخين في هذا أحاديث تروى عنه في تفاخره بهذا النسب . أما **نسبه من جهة أمه** فهو ابن سلمى بنت حرملة وتلقب بالنابغة وهي سبية من بني عنزة أصابتها رماح العرب ، وبيعت في سوق عكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ووهبها للعاص بن وائل أبوه فولدت له عمراً . وقيل غير هذا مما يمكن أن يعد طعناً في نسبه هذا من جانب خصومه . والواقع أن عمراً كان يخجل من ذلك وللمؤرخين في هذا أيضاً أحاديث يروى بعضها عنه هو نفسه وتنم عن تضايقه من السؤال عن نسبه من جهة أمه التي قيل أنها كانت مغنية أيضاً .

مولده : أما حول تاريخ ولادته فقد اختلف المؤرخون : فقد ذكر ابن حجر في « الاصابة في تمييز الصحابة (جزء ٥ ص ٣) أن عمرو بن العاص

حين ولادة عمر بن الخطاب كان ابن سبع سنوات وأن وفاته كانت بعد الفاروق بعشرين سنة . وذكر الواقدي أن عمر بن الخطاب توفي وهو في الثالثة والستين من العمر ، فإذا أضفنا إلى هذه ما كان لعمرو قبل ولادة عمر بن الخطاب وهي سبع سنوات وعشرون أخرى عاشها بعده فان ذلك يعطينا ٩٠ سنة هي العمر الذي لعمرو بن العاص بحسب ما ذكره بن حجر . ويتفق ابن خلكان معه في أن لعمرو بن العاص تسعين عاماً حينما قضى رحمة الله عليه . أما ابو المحاسن في النجوم الزاهرة ويوافقه العجلي في ذلك فيرى أن عمراً قد عاش ٩٩ سنة .

أما ابن قتيبة في كتاب المعارف (ص ٩٧) فيقول أن عمراً قد توفي سنة ٤٢ هجرية وعمره ٧٣ سنة ولا يجعل النووي من العمر لعمرو بن العاص إلا سبعين عاماً . ومن هذه الرواية نجد أن عمراً قد حدد له من العمر ٩٩ و ٩٠ و ٧٠ عاماً . وقد أخذ بتلر بقول النووي ورجحه فجعل عمره ٧٠ عاماً لا غير (ص ١٤٧) ولم يستند في هذا إلا على السن المناسبة لعمرو حين غزو مصر وهذا ما سنناقشه فيما بعد .

واذا كنا نجد هذا الخلاف حول تاريخ ولادته فإن وفاته كانت في أول شوال من سنة ٤٣ للهجرة فيما يجمع عليه معظم المؤرخين . وبحساب عمره انطلاقاً من تاريخ وفاته نجد أنه قد ولد سنة :

٥٦٧ للميلاد عند من قال بأن عمره ٩٩ سنة[1] .

و٥٧٦ للميلاد عند من قال بأن عمره ٩٠ سنة .

و٥٩٢ للميلاد عند من قال بأن عمره ٧٣ سنة .

و٥٩٥ للميلاد عند من قال بأن عمره ٧٠ سنة .

---

(١) وذلك على اعتبار أن عمره محسوب بالسنة القمرية وليس بالسنة الشمسية ومن المعلوم أن القمرية تساوي $\frac{٣٢}{٣٣}$ من السنة الشمسية وقد راعينا هذا عند الرجوع بعمر عمرو إلى التاريخ الميلادي فتدبر .

ففي أية سنة يمكننا اعتبار مولد عمرو بن العاص؟ ليس من وسيلة لذلك غير الاستعانة بأحداث يذكرها التاريخ لعمرو في حياته تعيننا على تغليب أحد هذه التواريخ على سواه.

والحادثة الأولى في حياة عمرو هي ايفاده سفيراً لقريش إلى النجاشي ملك الحبشة لاقناعه بعدم السماح لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم باللجوء إلى أرضه في هجرة الحبشة في حدود سنة ٦١٥ للميلاد. واذا نحن أخذنا بعين الإعتبار الأسس التي يقوم عليها مجتمع قريش الجاهلي أدركنا أنه من غير المحتمل ايفاد عمرو بن العاص في مهمة كهذه وهو ابن عشرين سنة أو وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، ولهذا فلا يمكن اعتباره من مواليد سنة ٥٩٥ ولا من مواليد سنة ٥٩٢ للميلاد. ولكن إذا كان من مواليد سنة ٥٧٦ م. فإن عمره في سنة ٦١٥ يصبح حوالي الأربعين سنة، وهي سن معقولة لكي يكل إليه سادة قريش بمثل هذه المهمة الخطيرة بالنسبة إليهم آنذاك ومن الممكن كذلك أن يجد من النجاشي استعداداً لمقابلته والاستماع إليه، أما وهو في العشرين أو في الثالثة والعشرين فإن احتمال ذلك مستبعد إذا ما راعينا قواعد ونظم بلاط الملوك في أي زمان. ومن الطبيعي أن هذا ممكن أيضاً بالنسبة لسنة ٥٦٧ ذلك أن عمره يرتفع الى ٤٨ — ٤٩ سنة لما قام بسفارة قريش إلى الحبشة وهي أيضاً سن مناسبة.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان عبد الله بن عمرو بن العاص قد عد في الصحابة ومعنى هذا أن ابن عمرو قد كانت له صحبة، فاذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ٦٣٢ للميلاد فكم كان عمر عبد الله بن عمرو آنذاك؟ لا يمكننا أن نقدر عمره بأقل من عشرين سنة حتى تكون له صحبة، ويعد في الصحابة وهذا يعني أنه قد ولد لعمرو في حدود سنة ٦١٢ للميلاد، فإذا قلنا بولادة عمرو نفسه كانت سنة ٥٩٥ م. فإنه يعني أن عمر عمرو حينما ولد له عبد الله كان سبعة عشر عاماً فقط. ومع جواز هذا فإننا

نستبعده بالنسبة إلى عمرو ذي الطموح الكبير في الحياة .

وفي سنة ٣٨ للهجرة سار عمرو بن العاص على رأس جيش معاوية بن أبي سفيان إلى مصر ليبعد عنها محمد بن أبي بكر واليها من قبل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فكم كانت سنه آنذاك ؟ إذ قلنا بأنه من مواليد سنة ٥٦٧ للميلاد فإنه يكون في سنة ٣٨ هـ (٦٥٩ م.) قد بلغ من العمر ٩٢ سنة شمسية أو ٩٥ سنة قمرية وهي سن يستحيل فيها حتى على عمرو بن العاص قيادة الجيش ومنازلة الخصم . واذا قلنا بأنه من مواليد سنة ٥٧٦ للميلاد فان عمره يكون في سنة متأخرة هي الأخرى عن القيام بمثل هذا العمل الشاق . ولكن إذا قلنا بأنه كان من مواليد سنة ٥٩٢ فان عمره يصبح سنة ٦٥٩ للميلاد ٦٧ سنة ميلادية أو ٦٩ سنة قمرية وهذه سن يستطيع فيها بعض الرجال قيادة الجند وتحمل مشاقها البدنية .

واذن ففي أي سنة يمكننا أن نعتبر مولد عمرو بن العاص ؟ ليس من السهل الجزم في هذا الأمر برأي قاطع ، فلا بد من القول إما بأن عمر بن العاص حينما قام بسفارة مشركي قريش إلى النجاش كان لا يزال صغير السن لم يجاوز بعد الخامسة والعشرين من العمر وإما بأن عمر بن العاص قد قاد حملته الثانية ضد مصر وهو فوق سن الثمانين من العمر ، ولا مفر من التسليم باحداهما ونحن أميل إلى التسليم بأن ولادته كانت سنة ٥٩٢ للميلاد تمشياً مع قدرة الإنسان الجسدية على الحركة التي يحتاجها قائد جيش من طراز عمرو ابن العاص تعود الحركة طوال حياته الماضية ، وعدم تلاؤم القول بتقدمه في السن إلى عشرة المائة أو عشرة التسعين ، من خاصية ، ولاحتمال بروز شخصيته القوية في مجتمع قريش إلى الحد الذي جعلهم يكلون أمر السفارة اليه وهو لم يزل بعد في تلك السن التي قلنا بها من قبل ، واحتمال أن يكون قد ولد له عبد الله وهو في سن العشرين أو حوالي ذلك ، خلافاً لما ذكرناه أثناء النقاش ، ما دام خلاف هذين الاحتمالين يدفعنا إلى القول بقيادته للجيش وهو في سن التسعين وهذا في حكم المستحيل .

أوصافه : وأما عن أوصافه فقد قيل إنه كان أدعج ، أبلج ، وافر الهامة ، ربعة ، أقرب إلى قصر القامة . كما قيل بأنه كان عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ، له عينان سوداوان ثاقبتان سريعتا التأثر سواء في حال الغضب أم السرور ، يعلوها حاجبان غريزان وفم واسع . يم وجهه عن القوة في غير شدة ، وتلوح عليه لوائح البشر والإنس . وقيل في بعض المصادر إنه كان تمتاماً ولكن هذا العيب في النطق لم يشتهر عنه بل على العكس فقد اشتهر بأنه كان خطيباً فصيحاً . وقد روى ابن حجر أن عمر بن الخطاب سمع مرة رجلاً يتلجلج في الكلام فقال : « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد ! » ومعناه واضح الدلالة في أن المقصود بذلك « أن الله على كل شيء قدير » ولا يصح المعنى الآخر الذي ذهب إليه بعض الكتاب في التفسير بأن عمراً كان يتلجلج في الكلام مثل ذلك لأن في القول بهذا طعناً في إيمان عمر ابن الخطاب بوحدانية الله سبحانه وتعالى وقولا بتعدد الخالقين وهذا محال في حق الفاروق رضي الله عنه .

صفاته : وأما صفاته فقد قيل أن عمر بن العاص رحمه الله كان منذ صغره ميالاً إلى القيادة والزعامة وكان شديد الطموح ليس لغاياته حد ولكنه مع ذلك كان يعرف ما يريد ، ولا غرو فهو أحد دهاة العرب ، قالوا دهاة العرب أربعة : فمعاوية للروية ، وعمرو للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة . وقيل أيضاً في وصفه بأنه كان « مالكاً لزمام شعوره آمناً أن تضله الحماسة أو الحنان ، متبعاً لما يراه عقله دون عاطفته ، وقد عبر عن ذلك في قوله : (أبلغ الناس من كان رأيه راداً لهواه ، وأشجع الناس من رد جهله بحلمه) »(١) .

وكان عمرو بن العاص محباً للمال إلى حد كبير وقيل أن معاوية بن أبي سفيان سأله يوماً وقد شاخا وبطلت لذات الشباب فيهما : « ما بقي منك

(١) المقدم محمد فرح : عمرو بن العاص ، دراسة مستحدثة لحياته وحروبه ص ٣٨ .

يا عمرو ؟ فقال : مال اغرسه فأصيب من ثمرته وغلته » وكان حبه للمال وطموحه الذي لا حد له وميله إلى الزعامة وحبه للقيادة أسباب تعرضه لظنون الخلفاء ومدعاة لتصرفهم في شأنه ببعض ما لا يرضيه .

وقد اشتهر عمرو بن العاص بحدة الذكاء إلى جانب حضور البديهة وهما صفتان متى اجتمعتا منح صاحبهما قوة الابتكار والقدرة على إيجاد الحلول لأشد المعضلات تعقيداً . وقد روي أن عمر بن الخطاب كان يعجب بذكائه ومهارته ، حتى أنه لما قيل له أن قائد الروم في اجنادين وهو أرطبون من أذكى القواد وأمهرهم ابتسم عمر وقال : « لقد رمينا أرطبون الروم بارطبون العرب » وقد صدق حدس عمر في عمرو فقد هزمه ولحق به في مصر وقتله في بلبيس[1] .

حياته قبل الإسلام : ولد عمرو بن العاص في بيئة قريش التجارية فكان لا بد وأن يمارس التجارة على الأسلوب الذي عرفوه آنذاك فسافر إلى اليمن ، وربما إلى الحبشة أيضاً ، وإلى الشام ، وتروى له سفرة إلى مصر في قصة هي أشبه ما تكون بالأساطير الشعبية مع أحد رجال دينها المسيحيين . ويبدو أن علائم النبوغ قد بدت فيه مبكرة حتى أننا نجده يوفد مع آخر سفير سادة مشركي قريش إلى النجاشي في أمر مهاجري الاسلام إليها في حدود سنة ٦١٥ للميلاد على ما تقدم . ولما اشتد الصراع بين الوثنية والاسلام ، وكان عمرو منه فيما يبدو على حياد ففضل مغادرة الحجاز إلى الحبشة ، حيث اكتفى بمراقبة الدعوة المحمدية في نشأتها من هناك ويقال أن عمراً قد روى قصة ابتعاده عن ذلك الصراع فقال : « لما انصرفنا مع الاحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون برأيي ، ويسمعون مني ، فقلت لهم تعلمون أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً مضطرداً ، ولقد رأيت أمراً فيه ، فما ترون ؟ فقالوا : وماذا رأيت ؟ .. قلت رأيت أن نلحق بالنجاشي

---

(١) امين سعيد : تاريخ الاسلام السياسي الجزء الثاني .

فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنه أحب إلينا أن نكون تحت يديه من أن نكون تحت يدي محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خيراً »[١] . ولم تطل الحيرة بعمرو بن العاص فقد قرر العودة والدخول في الدين الجديد .

حياته بعد الإسلام : وقدم عمرو بن العاص إلى المدينة في صفر سنة ثمان للهجرة يعلن إسلامه وبايع النبي صلى الله عليه وسلم فبايعه على أن الاسلام يجب ما كان قبله ، وحسن أسلامه وحتى آخر حياته كان من ابرز قادة المسلمين وله في نشر الإسلام تاريخ حافل طويل في الجزيرة العربية وفي الشام وفي فلسطين وفي مصر[٢] وبرقة وطرابلس إلى أن عزله عثمان بن عفان عن مصر وولى بدله عبد الله بن سعد .

وحول قصة إسلام عمرو بن العاص تروى قصص ، ومما قيل حولها أنه سئل : « ما أبطأ بك عن الاسلام وأنت أنت في عقلك ؟ فأجاب : إنا كنا في قوم تُوَازِن حلومهم الجبال ، ما سلكوا نجداً فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً ، فلما أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم ، انكرنا معهم ، ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم . وتدبرناه فإذا الأمر بيّن ، فوقع في قلبي الاسلام[٣] » وأما عن قيادتهمروخبرته بالحروب فقد روي الكثير في مختلف كتب التاريخ والفتوح عنها ولا سبيل لذكره هنا روماً للايجاز . ووقف عمرو بن العاص إلى جانب معاوية بن أبي سفيان في صراعه مع علي بن أبي طالب قيل في مقابل ولاية مصر أو حكم مضر وللمؤرخين في هذا أحاديث منها أن عمراً قال لمعاوية :

---

(١) نقلا عن أمين سعيدفي الجزء الثاني من كتابه تاريخ الاسلام السياسي .

(٢) ونكتفي هنا بالاشارة إلى هذه الميادين والى دور عمرو بن العاص فيها ، ونحيل القارىء إلى كتب التاريخ والفتوح وذلك لوفرة المادة هناك وسهولة الوقوف عليها لمن أراد .

(٣) رواية ابن عساكر في تاريخه عن الزبير بن بكار فيما يقوله محمد فرح في عمرو بن العاص ، دراسة ... الخ ص ٥٧ .

« والله يا معاوية ما أنت وعلي بحكمي بعير ، مالك هجْرته ، ولا سابقته ، ولا صحبته ، ولا جهاده ، ولا فقهه ، ولا علمه ، والله إن لك حداً وحدوداً ، وحظاً وحظوة ، فماذا تجعل لي إن شايعتك على حربه ؟ فقال له معاوية : « نحكم مصر » . فبايع عمرو معاوية . أما في عهد عثمان بن عفان فقد سكن المدينة ، ونسب إليه أنه كان يحرض الناس على عثمان ، وأنه نفى ذلك عن نفسه في مقابلة له مع عثمان بن عفان ، ويروى أنه لما اشتدت الأمور وتأزم الوضع في المدينة غادرها عمرو بن العاص إلى فلسطين حيث انزوى يرقب الأحداث بعد مقتله فلم يتحزب لعلي ولا وقف ضده إلا بعد وقعة الجمل .

ولعل ابرز أدوار عمرو بن العاص في الصراع الدائر بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان هو ما عرف بخدعة المصاحف في وقعة صفين وما نتج عنها من أحداث ولحق بها حتى انتهت تلك الفتنة سياسياً باستتباب الأمر لمعاوية فبر هذا بشرطه لعمرو ، وولاه مصر .

وفي عهد ولايته الثانية عاود نشاطه في إفريقية ولكن كبر سنه جعله يعتمد في ذلك على قادة آخرين . ومات عمرو بن العاص في يوم عيد الفطر من سنة ٤٣ للهجرة . بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال وكانت سنه على الأقل في الثالثة والسبعين .

وعمرو بن العاص واحد من أهم القادة العسكريين في صدر الإسلام ، ولكنه من أعظم من أنجب العرب من ساسة في التاريخ ، وعلى الرغم من حبه للزعامة ، وتعلقه بالإمارة وبراعته في القيادة إلا أنه كانت تنقصه تلك المقدرة الفذة على العمل كرجل أول في الأحداث ، فهو من ذلك النوع من الرجال الذين يفضلون العمل باسم ومن أجل رجال آخرين ، ولا يجرأون ابداً على مواجهة الجماهير برغباتهم الكبرى التي توجههم وتتحكم فيهم . وهذا الصنف من الرجال نعثر على أمثلة منهم في التاريخ بين الفينة والفينة ولا بد وأن يكون وراء كل منهم موانع ذاتية تصده عن الإقدام على الخطوة

الآخيرة بالإفصاح عن الأمل العظيم الذي يخشون الإفصاح عنه للجماهير . وقد كانت لعمرو آمال ولكنها أعظم في نفسه من أن يصارح بها الآخرين ، ولذلك طواها في ذاته وصحبته إلى القبر سراً طوته الحياة . وقد يتمكن عالم نفساني من الوصول إلى التعرف عليها في خطوط صورتها العامة فيفيد بهذا جماعة المؤرخين .

الملحق الثاني :

ترجمة حياة :

عبدالله بن سعد بن أبي سرح

نسبه من أبيه : هو أبو يحيى عبد الله ، بن سعد ، بن أبي سرح واسمه حسام وقيل عريف بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل ابن عامر بن لؤي القرشي العامري .

نسبه من أمه : وهو ابن أشعرية واسمها مهابة بنت جابر الأشعري ، أرضعت عثمان بن عفان ، فهو أخوه من الرضاعة .

اسلامه : اسلم في مكة قبل الهجرة وهاجر إلى المدينة مع من هاجر وتولى الكتابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عاد إلى مكة معلناً ارتداده عن الإسلام ورجوعه عنه إلى دين الجاهلية ، وطعن في الاسلام فهدر النبي دمه في جملة من هدر يوم الفتح .

وجاء في تفسير الخازن (الجزء الثالث منه) عند الكلام عن الآية الكريمة « ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا

العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين [1] » « ... وقيل أن عبد الله بن سعد كان يكتب للنبي عليه السلام فنطق بذلك (أي بأحسن الخالقين) قبل إملائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا نزلت ، فقال عبد الله (عندئذ) إن كان محمد نبياً فأنا نبي يوحى إليّ ، فارتد ولحق بمكة ثم أسلم يوم الفتح . وقيل هذه الحكاية غير صحيحة لأن ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة مكية . وقيل القائل معاذ أو عمر رضي الله عنهما ... » ويقول محمود شيت خطاب في قادة فتح المغرب العربي (اول–٥٢) : « فنزلت فيه : (ومن قال سانزل مثلما أنزل الله) » [2]

وسواء أكانت هذه الآية وما روي حولها هي سبب ارتداده أو غير ذلك فمن الثابت تاريخياً بالتواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هدر دمه فيمن هدر يوم فتح مكة . وقد استجار عبد الله بن سعد بأخيه من الرضاعة عثمان ابن عفان فغيبه هذا حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة فاستأمن له ، فصمت رسول الله طويلاً ، وقيل أن عثمان كرر ذلك ثلاثاً قبل أن يقول محمد صلوات الله وسلامه عليه « نعم » وقبل منه مبايعته . فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله من أصحابه : « لقد صمت ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » فقال رجل من الأنصار : « فهلا أومأت إلي يا رسول الله ؟ » فرد عليه : « إن النبي لا يقتل بالاشارة » . وقد حسن اسلام عبد الله بن سعد منذ ذلك اليوم ولم يبد منه ما ينكر عليه .

وقد استغل هذا خصومه السياسيون فيما بعد على الرغم من حديث النبي الشريف « الاسلام يجب ما كان قبله » .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٤ .

(٢) سورة الانعام ، الآية ٩٣ ، وقد رجع في ذلك إلى المعارف ص ٣٠٠ ثم أحال على تفسير هذه الفقرة من الآية الكريمة في كل من البغوى (الجزء الثالث ص ٣٦٠) والكشاف (الأول ص ٤٦١) .

جهاده : غزا عبد الله بن سعد مجاهداً في جيش الشام ، ولما سار عمرو بن العاص إلى مصر قاصداً فتحها صحبه عبد الله كقائد ميمنة منذ قيسارية وحتى أنهى عمرو فتح مصر ، واشترك في جميع المعارك التي دارت بين العرب والروم بها .

ولا نعرف ما اذا كان عبد الله بن سعد قد صحب عمراً في حملته هذا إلى أول بلاد المغرب وافتتاحه لبرقة وطرابلس فلم يرد في الأخبار ذكر لاسم عبد الله بن سعد فيمن ذكر من القادة الذين رافقوه . وأغلب الظن أنه قد بقي في مصر فيمن بقي من جيش المسلمين بها لاستكمال فتح جيوبها في الجنوب فقد ذكر في الأخبار أن عمر بن الخطاب قد ولاه الصعيد(١) .

ونبحث عن الفترة التي يمكن ان يكون قد حدث فيها هذا ، ونحن نعلم بتاريخ وفاة الخليفة الثاني فلا نجد من الزمن ما يسمح بذلك إلا في فترة انغماس عمرو في حملة فتح برقة وطرابلس . إذ أن الوقت الباقي من سنة ٢٣ للهجرة بعد عودة عمرو بن العاص إلى مصر من تلك الحملة كان قليلاً لا يتعدى بضعة أشهر . كما نجد في الأخبار أيضاً أن عمر بن العاص قد بعث بعبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أطراف إفريقية فغزاها وغنم مغانم كثيرة ، وقلنا في الفصل الخامس من هذا الكتاب أن ذلك إنما حدث بعد الفتح لطرابلس وعودة عمرو إلى مصر ، وكون عبد الله يذهب بأمر عمرو بن العاص إلى أطراف إفريقية غازياً وهو مكلف من الخليفة بأمر الصعيد ، وبأمر الخراج لا يستقيم مع المنطق كثيراً ولكن إذا قلنا بأن الأمر بتوليته قد صدر من عمرو ابن العاص نفسه في عهد عمر بن الخطاب ، وأن هذا قد أقره ووافق عليه جاز اعتباره كما لو صدر عنه وفي نفس الوقت أباح لعمرو إيفاد عبد الله بن

---

(١) وقد لا يكون عمر بن الخطاب هو الذي ولى عبد الله بن سعد أمر إقليم الصعيد ، وإنما حدث هذا في عهده ، ومن قبل عمرو بن العاص ثم أقر الخليفة ذلك لما أبلغ به كما حدث في تولية عمرو لعقبة بن نافع أمر المغرب فيما بين برقة وزويلة بعد فتح اطرابلس (راجع رسالة البلاذري في الفصل الثالث من هذا الكتاب) .

سعد إلى أطراف إفريقية غازياً في أول عهد عثمان بن عفان .

وفي عهد عثمان بن عفان ، وقد عاد عبد الله من غزوة افريقية إلى سابق عمله على الصعيد وعلى الخراج لا بد أنه وقد حدث تدخل من عثمان في ذلك أو أن عبد الله بن سعد وقد أصبح أخوه من الرضاعة خليفة للملسمين أخذ يتصرف بما لم يرض عمراً من الاستقلال عنه بما يشرف عبد الله عليه من أمور الخراج أو أن عمراً قد تصرف في أمر الخراج بما لم يرض عبد الله بن سعد مما عده تدخلاً في الذي وكل إليه ، وكلا الاحتمالين جائز ويتكرر حدوثه في كل عصر بين المسئولين من مرؤوسين ورؤساء ، اشتكى كلٌ منهما الآخر إلى الخليفة ، فكتب عبد الله إلى عثمان يقول : « إن عمراً قد كسر الخراج » وكتب عمرو إلى الخليفة « ان عبد الله كسر عليّ حيلة الحرب »(1) وطبيعة الشكوى في حد ذاتها إذا صحت الرواية بهذا الشكل تفصح عن وقوع الأمر على ما احتملنا وقوعه فهو لا يخرج عن تداخل في الاختصاصات بين الاثنين ناتج عن نظرة كل منهما فيما يتصرف فيه من سلطات .

وأي كان منشأ الخلاف بين الرجلين فإن أمره قد استفحل فتدخل عثمان ابن عفان بحسم ما بينهما بتولية عبد الله بن سعد أمر مصر كلها وعزل عمرو ابن العاص عنها ، وقد فسر هذا منه بأنه تحيز لعبد الله بن سعد ، ولكننا نرى أن هذا الأمر لم يكن هو السبب المباشر فيه ، فالحكم شيع وأنصار في كل زمان ومكان ، والخليفة كرجل دولة لا بد له من أن يرعى شئون دولته بمن يعتبرهم شيعة له ، حتى ولو أن عثمان بن عفان وعمرو فيما يبدو من روايات التاريخ المختلفة لم يكن من شيعة عثمان ولا هو من أنصاره ، فتنحيته قد تكون لهذا السبب ، ولكن عبد الله بن سعد الذي ولي أمر مصر كان أخوه من الرضاعة ، فبرزت هذه العلاقة وطغت على ما عداها من أسباب سياسية

---

(1) محمد فرج : عمرو بن العاص ، دراسة ... الخ ص ٣٢٩ .

في روايات التاريخ .

أما تاريخ هذا العزل فقد ارتحنا إلى اعتبار سنة ٢٥ للهجرة لتناسقه مع الأحداث التاريخية الأخرى ، فقد سير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد إلى أطراف أفريقية غازياً وسير عبد الله جرائد الخيل إلى تلك الأطراف قبل أن يتوجه على رأس جيش العبادلة إلى جرجير في سنة ٢٧ للهجرة ، كما أن عمر بن العاص كان حاكم مصر في ثورة منويل بها في سنة ٢٥ للهجرة[1] ، ويبدو أن الخلاف قد نشأ بينه وعبد الله خلالها فقد كان على عمرو أن يستميل القبط إليه بالعطاء أو بالتنازلات مما عده عبد الله كسراً في الخراج وقد يكون عبدالله عارض فيه وعد عمرو معارضة عبدالله له إفساداً لحيلة الحرب عليه ، وكانت حيلته فيما يبدو عزل الروم عن أهل البلاد باستمالة هؤلاء القبط دافعي الخراج .

وفي عهد ولاية عبد الله بن سعد خرجت طرابلس من يد المسلمين باعتداء روم إفريقية عليها سنة ٢٦ هـ . فاستنجد هذا بالخليفة فسير له الجيش الذي زحف به على سبيطلة وتمكن من استعادة ما افتقده المسلمون بعد انتصارهم على جيش جريجوريوس أو جرجير وقتلهم إياه ، وفرض اتاوة صلح على أهل تلك البلاد .

وفي سنة ٣٣ للهجرة عاد فغزا إفريقية للمرة الثانية فيما يروى وأصاب مغانم كثيرة وعاد إلى مصر تاركاً محله معاوية بن خديج على ما سبق ذكره في الفصل الخامس من هذا الكتاب يواصل الغزو في سنة ٣٤ هـ . على تلك المناطق ويصيب .

وكان رجوع عبد الله بن سعد إلى مصر فيما يبدو من استقراء أحداث التاريخ الإسلامي آنذاك نشوء الحزب المعارض لسياسة عثمان وتواجد ابن سبأ بمصر ونشاطه في التمهيد للثورة على عثمان بين صفوف المصريين ، في

(١) ولا نرى من المعقول ما يذهب اليه البعض من أن عثمان استعان بعمرو بعد عزله عنها ، لعدة اسباب لا يتسع المقام لذكرها هنا .

نفس الوقت الذي كان فيه هذا الحزب يقوى ويشتد في الشام والعراق أيضاً فشغل عبد الله بن سعد به وبادارة البلاد حتى مقتل عثمان .

والثابت أن عبد الله بن سعد قد اعتزل الفتنة فلم يتحزب لأحد من المتخاصمين وإنما لجأ إلى فلسطين في سنة ٣٦ ؛ ويقال أنه حاول الرجوع إلى مصر فمنع من عامل علي بن أبي طالب عليها من دخولها وأنه استقر بعسقلان وأنه توفي هناك ودفن بمقابر قريش بها .

ولكن المحير فعلاً لنا هو أن نجد له ضريحاً يزار حتى عصرنا الحاضر بواحة أوجلة في جنوب برقة ، فكيف يدفن بعسقلان من فلسطين ويكون له في هذه الواحة ضريح ؟ ... وقد حاولت البحث عن حل لهذه المعضلة التاريخية فلم أجد غير رواية في النجوم الزاهرة تقول بأنه استشهد في غزوة إفريقية التي قام بها سنة ثلاث وثلاثين للهجرة ومعه جماعة منهم معبد بن العباس، ولكن صاحب المصدر ذاته لم يأخذ بها لأنه عاد يذكر دور عبدالله في معركة ذات الصواري وغيرها من الأحداث التي لا يمكن الأخذ بها إلا مع رفض القول باستشهاده سنة ٣٣ . وانتهيت أخيراً إلى احتمال أن يكون عبد الله بن سعد قد عاد فغادر عسقلان متخفياً (بحراً ؟) إلى برقة حيث استقر بواحة أوجلة حتى أدركته المنية ، فعده المؤرخون قد مات بعسقلان لانقطاع أخباره بعد عودته إليها سنة ٣٦ وهذا الاحتمال هو ما أرجحه لأكثر من سبب فهو ممن نقم عليهم الثوار ، ولا مكان له بينهم ، وهو لا يريد أن يقف ضد علي بن أبي طالب وفي صف خصومه ، فقد اشتد ورعه بعد أن قبل رسول الله توبته من ارتداده عن الاسلام قبل يوم الفتح ، وعلي ابن أبي طالب هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يعرف مناطق الشمال الإفريقي ، ويحيط بأوفقها له في عزلته عن الصراع ، وهذه الواحة التي يوجد بها ضريحه اكثرها مناسبة لمن يرغب العزلة والانزواء عما يدور في مصر وفي غيرها من بلاد الإسلام .

وعبد الله بن سعد أخ لعثمان بن عفان من الرضاع ولهما بموجبها صلة مودة في التاريخ ، ولا نستبعد تخوفه من أن يلاحق إذا ما استقام الأمر للثوار ، وعسقلان ليست بالمكان المناسب له ، وقد يكون تخوفه قد دفع به إلى اللجوء إلى برقة وإلى سكنى تلك الواحة النائية المنعزلة متخفياً عن أعين الثوار ، وهذا مسلك معتاد في التاريخ بالنسبة إلى رجال السياسة ، ومنطقي أيضاً . والله بعد هذا اعلم بما حدث فإن معظم أحداث التاريخ يكتنفها الغموض وليس لنا من وسيلة في محاولات الكشف عنها غير افتراض الاحتمالات الممكن حدوثها منطقياً على الأقل .

الملحق الثالث :

فهرس التتابع الزمني

السنة الميلادية	السنة الهجرية	الأحداث
بعد ٤٥٥	—	استيلاء الوندال على إقليم طرابلس وهدمهم أسوار مدينتي لبتس مانيا وصبراتة .
٤٦٠	—	باسيليكوس يحتل طرابلس بأمر الامبراطور ليون ثم يبعد منها مع جيش الرومان بعد أن هزم الاسطول الرومي في معركة بحرية عند قرطاجنة من قبل جنسيريك الوندالي .
بعد ٤٩٦	—	ثار كاباوُن الليبي على الوندال في لبتس مانيا وقضى بالبربر على العمران فيها باحراقها .
بعد ٥٢٧	—	ثارت لواته على الوندال في لبتس مانيا وقضت على العمران فيها باحراقها بعد انتهابها .
٥٣١–٣٢	—	استولى تاتيموث بمؤازرة المتآمر بودينزيوس على إقليم طرابلس بأمر الامبراطور جستنيان وطرد منها الوندال نهائياً .

السنة الميلادية	السنة الهجرية	الأحداث
٥٣٣	—	الليبيون يقاومون تاتيموث ويحاصرونه في طرابلس ، ولكن نجدة بعث بها بلزاريوس أنقذت القائد وجنده من الحصار وأبعدت عنهم الليبيين .
٥٣٥ـ٤٥	—	جستنيان يعنى بأمر المدن والحصون والقلاع فيرممها ويعيد بناءها وينشىء حمامات واسواقاً وكنائس في عدة مناطق من البلاد .
٥٣٥	—	ثورة لواته الكبرى على الرومان في لبتس مانيـا وامتدادها إلى سائر الشمال الإفريقي ، وعودة بلزاريوس لاخمادها بما يصحبه من قوات .
٥٤٣	—	فصل جستنيان لإقليمي برقة وطرابلس عن إفريقية ، وتعيين قيروس وسرجيوس عليهما .
٥٤٤	—	ثورة لواته على سرجيوس في لبتس مانيا بسبب غدره بزعمائهم وقتله لثمانين منهم ، وامتدادها إلى سائر الشمال الافريقي .
٦٠٩	—	اعلان هرقل لثورته على الامبراطور فوكاس في بنتابوليس ، واشراك البربر فيها وتوجهه بهم إلى سالونيك .
٦٠٩	—	نيقتاس شريك هرقـل في الثورة يهاجم مصر من برقة ويستولي على الاسكندرية .
٦١٠	—	هرقل الأب يهاجم قرطاجنة من برقة ، ويستولي عليها ويتخذ منها مقراً لحكمه في عهد ابنه الذي توج إمبراطوراً في نفس السنة .
٦١٥ـ١٨	—	استيلاء الفرس على برقة ، وقضاؤهم على المدن والقرى فيها ومحوهم لمدينتي برقة وقورينة بصورة تامة .

السنة الميلادية	السنة الهجرية	الأحداث
٦٢٨	—	تغلب هرقل على الفرس وانسحاب هؤلاء من برقة ومصر نتيجة لذلك .
٦٢٩	—	استيلاء الرومان على مصر وبرقة من جديد بعد خروج الفرس منها باسم الامبراطور هرقل .
٥٤٢–٣	٢–٢١	فتح عمرو بن العاص لاقليم برقة ومصالحة أهلها من البربر على الجزية .
٦٤٣	٢٢	استكمال فتح برقة وجنوبها الغربي من قبل عقبة بن نافع الفهري .
٦٤٣	٢٢	فتح عمرو بن العاص لمدينتي طرابلس وصبراته ، ومصالحة البربر من أهل الإقليم على الجزية .
٦٤٣	٢٢	فتح يسر بن أبي أرطاه لودان .
٦٤٤	٢٣	فتح عمرو بن العاص لجبل نفوسة .
٦٤٤	٢٣	عودة عمرو بن العاص من ليبيا إلى مصر .
٦٤٥–٤٦	٢٤–٢٥	إيفاد عمرو لعبد الله بن سعد على رأس الجند لأطراف افريقية غازياً .
٦٤٦–٤٨	٢٦–٢٥	ايفاد عبد الله بن سعد لجرائد الخيل إلى أطراف افريقية للاغارة والغزو .
٦٤٨	٢٦	استرجاع الروم لمدينة طرابلس من المسلمين .
٦٤٩	٢٧	غزوة العبادلة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وانتصاراتها في افريقية واسترجاع طرابلس من أيدي الروم .
٦٥٠	٢٩	عودة عبد الله بن سعد بن أبي سرح آلى مصر غانماً .
٦٥٤	٣٣	غزوة عبد الله بن سعد لافريقية ثم عودته منها إلى مصر مسرعاً .

السنة الميلادية	السنة الهجرية	الاحداث
٦٥٥	٣٤	معاوية بن خديج يواصل غزو افريقية كقائد للجند بعد عودة عبد الله بن سعد إلى مصر .
٦٥٦	٣٥	عبد الله بن سعد بن أبي سرح يغادر مصر التي تولى ادارتها عامل علي بن أبي طالب .
٦٥٧	٣٦	وفاة عبد الله بن سعد بعسقلان من فلسطين أو بأوجلة من برقة .

مراجع البحث

أ ــ عربية قديمة :

١ ــ ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) :
فتوح مصر وافريقية والمغرب م. جامعة بيل ١٩٢٢ م

٢ ــ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) :
تاريخ اليعقوبي دار صادر بيروت ١٩٦٠م.

٣ ــ ابن الاثير الجزري (على بن أحمد بن أبي الكرم) :
الكامل في التاريخ الثالث القاهرة ١٣٥٧ هـ

٤ ــ ابن سعيد (أبو الحسن علي) :
المغرب في حلى المغرب القاهرة ١٩٥٣ م .

٥ ــ البلاذري (احمد بن يحيى بن جابر) :
فتوح البلدان القاهرة ١٩٦٠ م .

٦ ــ الطبري (محمد بن جرير) :
تاريخ الأمم والملوك القاهرة ١٩٣٩ م .

٧ ــ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار بيروت (د. ت)

٨ ــ ابن أبي دينار القيرواني :
المؤنس في أخبار افريقية وتونس تونس ١٢٨٦ هـ .

٩ ــ ابن الأبار (ابو عبد الله محمد) :
الحلة السيراء (جزآن) القاهرة ١٩٦٣ م .

١٠ ــ البكري (ابو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) :
المغرب في ذكر افريقية والمغرب دى سلان ١٩١١ م .

١١ ــ الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد) :
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ليدن ١٨٩٤ م .

١٢ ــ ... المراكشي (مجهول) :
الاستبصار في عجائب الأمصار الإسكندرية ١٩٥٨ م .

١٣ ــ ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله) :
معجم البلدان بيروت ٥٥ ــ ١٩٥٨ .

١٤ ــ أبو الفدا (اسماعيل بن محمد) :
تقويم البلــدان باريس ١٨٤٠ م .

١٥ ــ ابن حزم (ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد) :
جمهرة أنساب العرب. مصر ١٩٦٢ م .

١٦ ــ ابن عذارى المراكشي (ابو العباس أحمد) :
البيان المغرب في أخبار المغرب صادر ١٩٥٠ م .

١٧ ــ التجاني (عبد الله بن محمد) :
رحلة التجاني (٧٠٦ ــ ٧٠٨ هـ) تونس ١٩٥٨ م .

١٨ ــ أبو المحاسن (يوسف بن تغري بردي) :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة القاهرة ١٩٥٦ م .

١٩ ــ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :
العبر وديوان المبتدأ والخبر بيروت ١٩٥٨ م .

٢٠ ــ السيوطي (جلال الدين) :
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة مصر ١٣٢٧ هـ .

٢١ ــ المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) :
رياض النفوس — القاهرة — ١٩٥١ م .

٢٢ ــ النويري (أحمد بن عبد الوهاب):
نهاية الأرب في فنون الأدب — القاهرة — ١٩٢٣ م .

ب ــ عربية حديثة أو مترجمة :

٢٣ ــ الفرد . ج . بتلر (ترجمة محمد فريد ابو حديد) :
فتح العرب لمصر — القاهرة — ١٩٤٦ م .

٢٤ ــ الدكتور السيد الباز العريني
الدولة البيزنطية (٣٢٣ ــ ١٠٨١ م) — القاهرة — ١٩٦٥ م .

٢٥ ــ ه . موسى (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) :
ميلاد العصور الوسطى — القاهرة — ١٩٦٧ م .

٢٦ ــ دكتور احسان عباس :
تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري — دار ليبيا ــ بنغازي ١٩٦٧ .

٢٧ ــ دكتور احسان عباس ودكتور محمد يوسف نجم
ليبيا في كتب التاريخ والسير — بنغازي — ١٩٦٨ م .

٢٨ ــ دكتور احسان عباس ودكتور محمد يوسف نجم
ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات — بنغازي — ١٩٦٨ م .

٢٩ ــ مبارك بن محمد الهلالي الميلي :
تاريخ الجزائر في القديم والحديث (٣ اجزاء) — الجزائر — ١٩٦٣ م .

٣٠ ــ مقدم محمد فرج :
عمرو بن العاص ، دراسة مستحدثة لحياته وحروبه — القاهرة — ١٩٦٠ م .

٣١ ــ الطاهر أحمد الزاوي :
تاريخ الفتح العربي في ليبيا — القاهرة — (د. ت)

٣٢ ـ شكري فيصل :
المجتمعات الاسلامية في القرن الأول الهجري بيروت (؟..)
٣٣ ـ دكتور السيد عبد العزيز سالم :
المغرب الكبير . ٢ ـ العصر الاسلامي مصر ١٩٦٦ م .
٣٤ ـ أمين سعيد :
تاريخ الاسلام السياسي (ثانٍ) مصر (؟..)
٣٥ ـ اللواء الركن محمود شيت خطاب :
قادة فتح المغرب العربي (أول) بيروت ١٩٦٦ م .

جـ ـ مراجع افرنجية :

36 — Rossi, Ettore :— « Storia di Tripoli e della Tripolitania — dalla conqusta Araba al 1911 ».
Istit. per l'Oriente, Roma 1968.

37 — Caetani, Leone : — Annali dell'islam (vol. IV) anni 18-22 H. Ulrico Hoepli, Milano 1911.

38 — Procopio di Cesarea :—
(A) La Storia Segreta. (Trad. di Compagnoni.
J. Zonzogno, Milano 1828.

39 — (B) Degli Edifizii dell'imperatore Giustiniano (trad. di Comp.) J. Zonzogno, Milano 1828.

40 — Merighi Antonio: — La Tripolitania Antica, (Vol. I, II), Airoldi Ed., Milano 1940.

41 — Romanelli Pietro :— La Riconquista Africana di Giustiniano in :— Africa Romana. (Istit. St. Rom.)
Ulrico Hoepli, Milano 1935.

42 — Valori Franc.:— Storia della Cirenaica.
Sansoni, Firenze 1961.

43 — Bates Oric: — The Eastern Libyans,
Mc Millan, London 1914.

44 — Minist. Aff. Esteri:—
L'Italia in Africa (vol. I) il Territorio e le Popolazioni
Istit. Poligr. dello Stato, Roma 1955.

45 — Chabbot, J.B. :— Recueil des InscriptionsLibyques, Paris 1940.

46 — Beguinot Francesco:— Gli Studi sull'Epigrafia Libica ecc..., in: Libia (Riv. di Studi Libici) an. I No. 1 (Gen.-Mar.), Tripoli 1953.

47 — Rovere P. Fr.:— La Missione Francescana in Cirenaica. Nat. Press., Benghazi 1958.

48 — Duchesne, Mons. L.: — Storia della Chisa Antica (3 vol.), Roma 1911.

49 — Gibbon Ed.: — Storia della Decadenza e Caduta dell'Impero Romano (5 voll.), Torino 1927.

فهرس الموضوعات

المقدمـــات

الفصل الأول : تاريخ ليبيا قبل الفتح :

* * *

الفصل الثاني : المجتمع الليبي قبل الفتح

القسم الاول

(عهد عمر بن الخطاب)

الفصل الثالث : فتح الاسلام لبرقة :

* * *

الفصل الرابع : فتح المسلمين لطرابلس

* * *

القسم الثاني

(عهد عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب)

الفصل الخامس : توطيد الفتح في ليبيا :

* * *

الملاحق :

طبيعة الفتح الاسلامي

ليست عمليات الفتح محاولات تبذل لانشاء دولة ذات كيان سياسي . غايتها الاولى والاخيرة السيطرة على من تخضعه لسلطانها من الامم والشعوب ، كما كان الحال بالنسبة الى التوسع الروماني او البيزنطي او الفارسي ... بل هي عمليات مد حضاري عقائدي يستهدف هداية البشر الى نور الحق وصراطه المستقيم ، وغايته الوحيدة : احداث تغيير جوهري في معتقدات الشعوب .

أن من أول مبادىء الاسلام منع اقامة الفوارق والفواصل التي تميز الشعب الحاكم عن الشعب المحكوم . فالكل ، باعتناق الاسلام ، متساوون في الحقوق والواجبات . وهذا ما لم يقره نظام في التاريخ غير الاسلام . واذا غابت هذه الحقيقة عن اعيننا ، ونحن ندرس التاريخ الاسلامي ، عجزنا عن فهم حركات الفتح على حقيقتها وجانبنا الصواب في الحكم على تصرفات قادته الفاتحين ، ليس بالنسبة الى ليبيا وحدها ، بل بالنسبة الى كل الاقطار التي خضعت للفتح الاسلامي ، في الشرق والغرب على السواء .

واذا كانت طبيعة الفتح الاسلامي على هذا النحو ، فلا بد من ان تصحب أول مراحل الفتح حركات مد وجزر ، باعثها ما يعتمل في نفسية المجتمع من تشبث بالقديم المعتاد واقبال على الجديد الطارىء . وفي خلال هذه الفترة قد تجنح الاطراف المتنازعة الى السلاح تدفعها الى ذلك حماستها للفكرة التي تعتنق . فاذا نحن لم نفهم هذه الحقيقة ايضا جانبنا الصواب ، واسأنا فهم الطبيعة السمحة للاسلام الذي يأمر (وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) ويقرر أن (لا اكراه في الدين) ، وذهبنا نبحث عن علل واسباب نصنعها نحن ، ونفترض وجودها ...

(من مقدمة الكتاب)